

مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية



مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي

Lebanon - Tripoli: Branche Abou Samra P.O. Box 8 - jilrc-magazines.com - social@jilrc-magazines.com



العام السادس - العدد 51 - مارس 2019

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سرور طالبي / المشرفة العامة

المؤسس ورئيس التحرير: د. جمال بلبكاي

jilrc-magazines.com - social@jilrc-magazines.com

التعريف بالمجلة:

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد.

اهتمامات المجلة وأبعادها:

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية عبارة عن مجلة متعددة التخصصات، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر مواقع مركز جيل البحث العلمي، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي.

مجالات النشر بالمجلة:

تنشر المجلة الأبحاث في المجالات التالية: علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، علم الاجتماع، الفلسفة التاريخ، علم المكتبات والتوثيق، علوم الإعلام والاتصال، علم الآثار.

تنشر مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية البحوث العلمية الأصلية للباحثين في هذه التخصصات كافة مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

هيئة التحرير:

- أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)
- د. بغداد باي عبد القادر (المركز الجامعي غليزان، الجزائر)
- د. تيقان بوبكر (رئاسة جامعة التكوين المتواصل، الجزائر)
- د. سامية ابريغم (جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر)
- د. طراد طارق (جامعة خنشلة، الجزائر)
- د. طوال عبد العزيز (جامعة الجلفة، الجزائر)

رئيس اللجنة العلمية: أ.د. علي صباغ (جامعة قسنطينة 2، الجزائر)

اللجنة العلمية:

- أ.د. ودان بوغفالة (جامعة مصطفى اسطمبولي، مُعسكر، الجزائر)
- د. أحمد جلول (جامعة حمة لخضر، الوادي، الجزائر)
- د. بوجليدة حسان (جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر)
- د. بحري صابر (جامعة سطيف 2، الجزائر)
- د. خويلد محمد الأمين (جامعة الجلفة، الجزائر)
- د. سامية شينار (جامعة باتنة 1، الجزائر)
- د. شلالي لخضر (المركز الجامعي آفلو، الأغواط، الجزائر)
- د. علة المختار (جامعة الجلفة، الجزائر)
- د. فكروني زاوي (جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر)
- د. نجوى نايف عبد النبي شكوكاني (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)
- د. هاني إسماعيل رمضان (جامعة غيرسون، تركيا)

أعضاء لجنة التحكيم الاستشارية لهذا العدد:

- أ.م.د. جمال الدين محمد مزكي (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا).
- د. إبراهيم إسماعيل عبده محمد (جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية).
- د. أسماء سالم علي عربي (الجامعة الأسمرية، ليبيا).
- د. اليسع حسن أحمد (جامعة طرابلس، ليبيا).
- د. أيمن عايد (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا).
- د. بن حجوبة حميد (جامعة مستغانم، الجزائر).
- د. بن سولة نور الدين (جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر).
- د. حسن عالي (جامعة الدكتور مولاي الطاهر، سعيدة، الجزائر)
- د. سعيد علي (جامعة نغاونديري، الكاميرون).
- د. صلاح الدين أركيبي (جامعة محمد الأول، المغرب).

التدقيق اللغوي:

- أ.م.د. ميعاد جاسم السراي (الجامعة المستنصرية، العراق).
- د. فاتن عددي (جامعة قسنطينة 1، الجزائر).

شروط النشر



ISSN 2311-5181

تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية :

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة ، أو مؤتمر في الوقت نفسه ، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.
- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:
 - عنوان البحث باللغة العربية والإنجليزية.
 - اسم الباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي إليها، باللغة العربية والإنجليزية.
 - البريد الإلكتروني للباحث.
 - ملخص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12، باللغة العربية والإنجليزية.
 - الكلمات المفتاحية بعد الملخص.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكون البحث خاليًا من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
 - اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن ، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
 - اللغة الأجنبية: نوع الخط (Times New Roman) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
 - تكتب العناوين الرئيسية والفرعية للفقرات بحجم 16 نقطة مثلها مثل النص الرئيسي لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفًا مختصرًا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك .
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها .

ترسل المساهمات بصيغة إلكترونية حصراً على عنوان المجلة:

social@jilrc-magazines.com

الفهرس

الصفحة

- 7 • الافتتاحية
- 9 • التصور النسبي بين لايبنتزو أينشتاين ، تونسسي محمد/جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر.
- 17 • المنهجية الفردانية في سوسيولوجيا ريمون بودون ، عبد الصبور لكرمات/جامعة القاضي عياض، مراكش ، المغرب.
- 29 • تقويم درجة ممارسة مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص لمهامهم الإدارية والفنية بمحلية أم درمان، الزين الخليفة الخضري الخليفة/جامعة الخرطوم، السودان.
- 47 • الجندر: إشكالية تماثل الأدوار في المجتمع الجزائري، عبد الرؤوف مشري/مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية CRASC، وهران، الجزائر.
- 57 • سؤال الدين في السياقين الحداثي والإسلامي : دوركايم وطه عبد الرحمن نموذجاً، حامد رجب عباس/جامعة القاهرة، مصر.
- 65 • البحث الكولونيالي الإسباني حول مجتمع إفريقي (الصحراء الأطلننتية نموذجاً): محاولة في التعريف والتركيب، عادل جاهل/جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.
- 85 • العوامل البيئية وعلاقتها بالإبداع الإداري : دراسة ميدانية بشركة توزيع الكهرباء والغاز للوسط - البلدية – المدينة، نصر الدين بن عودة/جامعة حسيبة بن بو علي، الشلف، الجزائر.
- 101 • المشكلات التي يعانيها الممرضون في الجزائر: دراسة ميدانية مقارنة، أحمد فلوح/المركز الجامعي غليزان، الجزائر د.سنا عبيدي/المركز الجامعي ميله، الجزائر.
- 121 • قراءة وتحليل في كتاب (الهويات القاتلة) لأمين معلوف ، نصر الدين دلاوي/جامعة معسكر، الجزائر.
- 135 • دور الميراث الثقافي في ترسيخ الهوية الوطنية للفرد الجزائري زمن العولمة، إبراهيم بن عمار/ جامعة وهران 02 ، الجزائر.

الافتتاحية

باسم الله المولى الأجلّ سبحانه له الحمدُ في الأولى والآخرة، نستفتحُ بالذي هو خير، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

يسر هيئة تحرير مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية أن تضع بين أيدي قرائها العدد الواحد والخمسين (51)، إذ دأبت المجلة ومنذ انطلاقتها على اعتماد التنوع في البحوث العلمية ومصادر إرسالها وفقاً لمجموعة من الشروط العلمية، وها هي اليوم في هذا العدد تتضمن بحوثاً من الجزائر والمغرب و مصر والسودان، معلنةً استمرار نهجها التنوعي لإيصال هدفها العلمي لأكبر عدد ممكن من الباحثين في تلك الأقطار.

هذا و نأمل أن تتواصل مسيرة المجلة بعون الله وتوفيقه، وبما يرفدنا به الباحثون من بحوث وموضوعات في أعدادنا القادمة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

رئيس التحرير / د. جمال بلبكاي

تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية

لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2019

التصور النسبي بين لايبنتز وأينشتاين

The relative perception between "Leibniz" and "Einstein"

د.تونسي محمد/جامعة عمارثليجي، الأغواط، الجزائر

ملخص :

يعتبر "لايبنتز" من الشخصيات التي لها إسهامات في مجالي الفلسفة و العلم، و قد كانت له آراء حول قضايا في مجالات مختلفة، و قد كان من أبرز منتقدي فيزياء نيوتن، ففي الوقت الذي كانت تمثل فيه فيزياء نيوتن مثالا للدقة بالنسبة لعلوم عصره و أهدرت العلماء و الفلاسفة بقدرتها على التفسير و التنبؤ ببعض الظواهر الطبيعية، رأى "لايبنتز" أنها مبنية على مفاهيم خاطئة، و بين أن الزمان المطلق و المكان المطلق اللذان يشكلان أساسا لفيزياء نيوتن لا وجود لهما، و أنه لا يمكن التعامل مع العالم الفيزيائي إلا بشكل نسبي، فالمكان و الزمان لا يمكن إلا أن يكونا نسبيا، العجيب أن هذه الرؤية النقدية الفلسفية تبين بعد قرون أنها صائبة، بعد تراكمات و أزمت و محاولات تليفيق توصل العلماء في القرن العشرين إلى ما كان يناهز به "لايبنتز"، و ظهرت نظرية النسبية التي أثبتت أنه لا يوجد إلا المكان و الزمان النسبيا، و أنه يستحيل التعامل مع الظاهر الفيزيائية إلا بشكل نسبي، هذا يبين أن الرؤية الفلسفية يمكن أن تتجاوز علم عصرها و تستبق تراكمات العلم برؤية جديدة تجد في المستقبل الأرض الخصبة لنموها.

الكلمات المفتاحية: لايبنتز، اينشتاين، المكان النسبي، الزمان النسبي .

Abstract:

Leibniz is one of the figures who contributed in philosophy and science, He had opinions on various issues, He was one of the most critical of Newton's physics, At a time when Newton's physics represented an example of accuracy for the sciences of his time and impressed scientists and philosophers with their ability to interpret and predict some natural phenomena, Leibniz thought it was based on misconceptions, He explained that absolute time and absolute space that form the basis of Newton's physics do not exist, And that the physical world can only be understood with relative vision, place and time can only be relative, It is strange that this philosophical critical view turns out to be correct after centuries, after accumulations, crises, concoctions. Scientists in the 20th century reached what Leibniz advocated, And discovered the theory of relativity, which proved that there is only the relative space and time, and that it is impossible to understand the physical phenomenon only in a relative framework. This shows that the philosophical vision can transcend the science of its age and anticipate the accumulation of science with a new vision, which in the future will find fertile ground for its growth.

Keywords: Leibniz, Einstein, relative space, relative time

مقدمة:

لقد كان "لايبنتز" في انتقاده للمفاهيم التي قامت عليها فيزياء "نيوتن" قريبا مما توصلت إليه النظرية النسبية في الفيزياء المعاصرة، لقد دافع عن التصور النسبي للزمان و المكان في مقابل التصور المطلق، و قدم حججا بين من خلالها انه لا وجود لمرجععية مطلقة نستند إليها في تعاملنا مع الأشياء، و كل ما يمكن أن نتعامل به هو علاقات مكانية بين الأشياء أو علاقات زمانية بين الأحداث، بحيث لا يمكن قياس الأشياء إلا بالنسبة لبعضها، لقد أعادت نظرية النسبية الاعتبار للمراجع النسبية التي كانت تنبذها فيزياء "نيوتن"، و بينت أنه لا يمكن فهم المواضيع و الحركات و الفواصل الزمنية إلا بشكل نسبي من خلال الاعتماد على مراجع نسبية، و لا يوجد مرجع مفضل بين هذه المراجع يحتكم إليه الجميع، لقد أدرك "لايبنتز" مبكرا الخطأ الذي ارتكبه "نيوتن" و قدم تصوره النسبي كبديل لحل المشكلات المترتبة عن التصور المطلق، كل هذا يدفعنا لطرح هذه التساؤلات: ما هي الانتقادات التي وجهها "لايبنتز" للتصور المطلق؟ وما هي ملامح التصور النسبي الذي قدمه؟ وكيف توافقت تصوراته مع ما جاءت به نظرية النسبية؟.

1- فلسفة لايبنتز في مواجهة فيزياء نيوتن:

"غوتفريد فيلهلم لايبنتز" (Gottfried Wilhelm Leibniz) (1716-1646) فيلسوف ورياضي ألماني، كان إلى جانب "ديكارت" و"سبينوزا" أحد أعمدة الفلسفة العقلانية في الفترة الحديثة، كانت له اهتمامات متنوعة بين العلوم و الفلسفة و القانون و السياسية، و يعتبر إلى جانب "نيوتن" أول من اكتشف حساب التفاضل و التكامل حيث مكنته عبقريته في الرياضيات من التوصل إلى هذه الطريقة، و مع ذلك فقد عانى "لايبنتز" من اتهامات الانجيز بأنه سرق أعمال نيوتن فيما يخص حساب التكامل و التفاضل، كما أن "لايبنتز" إسهامات في مجال الحساب، حيث يعتبر واحدا من المخترعين في مجال الآلة الحاسبة الميكانيكية، و اخترع عجلة "لايبنتز" التي تستخدم في العلم الحسائي، وهي أول آلة حاسبة ميكانيكية، أما في الفلسفة فقد ألف "لايبنتز" عدة مؤلفات نذكر من بينها: تأملات في المعرفة و الحقيقة و الأفكار، مقال في منهج الفلسفة و اللاهوت، مقالات جديدة في الفهم البشري، المونادولوجيا...، اشتهرت فلسفة "لايبنتز" بفكرة "الموناد" أو الجوهر الروحي، حيث كان "لايبنتز" غير مقتنع بفكرة الجوهر الممتد الذي قال به بعض الفلاسفة و كذلك "نيوتن"، و لقد كان "لايبنتز" معترضاً على قول نيوتن بالذرات المادية أو الجزيئات المادية المكونة لعالمنا، فحسب "لايبنتز" كل ما هو مادي و ممتد يبقى قابلاً للقسمة و بالتالي لا تنطبق عليه مقولة أصغر جزء أو الجوهر البسيط، كما أن قوانين الحركة تقتضي أن تكون فيه عناصر حاملة للطاقة، و بالتالي يفقد صفة البساطة¹، في رأي "لايبنتز" الجوهر الحقيقي هو الجوهر البسيط الذي لا أجزاء له، و لذا يجب أن يكون لا ماديا، فهو ذو طبيعة روحية، و يطلق "لايبنتز" على هذا الجوهر اسم "المونادة" (monade)، "فالمونادة" هي جوهر روحي غير منقسم، لا يمكن تصوره إلا بالفكر وحده، و لكون "المونادات" ليست بذات أجزاء فهي غير ممتدة في المكان، طالما أن كل شيء ممتد في المكان قابل للقسمة، رغم أن الجانب الروحي كان حاضرا في فلسفة "لايبنتز"، إلا أنه كانت له ملاحظات ثاقبة في قضايا العلوم المادية لعصره، حيث مكنته عبقريته كعالم و فيلسوف من استيعاب قضايا مختلفة و محاولة النظر إليها برؤية خاصة.

لقد نبه "لايبنتز" في فلسفته إلى بعض المسائل الفيزيائية، و قدم وجهات نظر متقدمة عن زمانه، لقد عارض ما كان سائدا في علم عصره، حيث كانت فيزياء "نيوتن" مسيطرة على العقول، و كانت تمثل وجهة النظر التجريبية في أوج سطوعها، فكيف لهذا الفيلسوف الغارق في المثاليات أن ينتقد فيزياء بقيت لقرون بمثابة دستور للفيزيائيين، لقد سار "لايبنتز" في غير الطريق الذي سار

1 - جوتفريد لايبنتز، أبحاث جديدة في الفهم الإنساني، ترجمة: احمد فؤاد كامل، (دار الثقافة للنشر و التوزيع، 1983)، ص31-32

فيه "كانط" بعده، فهذا الأخير جعل من فيزياء "نيوتن" أساساً لفلسفته، بينما "لايبنتز" عارض فيزياء "نيوتن" و قدم أفكاراً متقدمة أقرتها الفيزياء المعاصرة، رغم أن هناك اعتراضات على تصور "لايبنتز" للمادة، حيث انه جعلها مثالية و فوق الحس، إلا أن هناك من رأى أن أهمية فلسفة "لايبنتز" أنه نبه لمسائل ما كان العلم ليصلها حتى مرت الفيزياء بأزمات و تطورت وتوصلت إلى ما كان ينادي به "لايبنتز".

لقد أراد "إسحق نيوتن" (Isaac Newton) (1642-1727) أن يؤسس الفيزياء على أطر مطلقة تمثل مرجعية مشتركة يستطيع الإنسان من خلالها فهم العالم الفيزيائي، و لقد ألف كتابه الشهير "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" الذي أراد أن يكون دستوراً مؤسساً لعلم الفيزياء، و قد بدأ كتابه بالحديث عن الزمان و المكان، و أشار إلى أن تفكير الإنسان لا يتناول المكان و الزمان و الحركة إلا من خلال علاقتهما بالأشياء المحسوسة، و لكي نخرج من معلوماتنا الحسية بفكرة مجردة تكون لبنة للعلم، يجب علينا ألا نعتمد هذه الطريقة في التفكير -أي ربط المكان و الزمان بالمحسوسات- و الخروج بتصور المكان و الزمان المطلقين المستقلين عن كل شيء و الثابتين دائماً، و في تناوله لمسألة الزمان يعرف "نيوتن" الزمان المطلق بقوله: «الزمان المطلق، الحقيقي و الرياضي، بذاته و بطبيعته، و دون علاقة بأي شيء خارجي، يتدفق بانتظام، و يدعى الديمومة»¹، يظهر من خلال هذا أن الزمان المطلق عند نيوتن مستقل عن الأشياء و الحوادث الفيزيائية مهما كانت حركتها و سرعتها، و أنه ينساب بشكل منتظم في جميع أرجاء الكون بحيث لا يتسارع إيقاعه و لا يبطؤ، يقول "نيوتن" «يمكن أن تتسارع أو تتباطأ جميع الحركات، إلا أن انسياب الزمن المطلق ليس قابلاً للتغير، و مدة أو ديمومة وجود الأشياء تبقى نفسها، مهما كانت الحركات سريعة أو بطيئة أو منعدمة»²

في تعريفه للمكان المطلق يقول "نيوتن": «المكان المطلق بطبيعته و بصرف النظر عن أي شيء خارجي يبقى دائماً متجانساً و ساكناً»³، فالمكان المطلق هو مكان موجود وجوداً موضوعياً مستقلاً بذاته عن الأشياء، و هو متماثل دائماً و غير قابل للحركة أو التغير، إن صفة المطلقية التي أضفها نيوتن على المكان و الزمان لها مبررات حسبه، حيث يقول: «مثلاً يعتبر ترتيب أجزاء الزمان ترتيب ثابت كذلك الأمر بالنسبة لأجزاء المكان، فلو أمكن لأجزاء المكان أن تغادر الموضع الذي تشغله فإنها ستكون قد غادرت نفسها إن صح التعبير، و لهذا فإن الأزمنة و الأمكنة تعتبر حيزاً لنفسها و حيزاً لجميع الأشياء، إن كل شيء يحدد في الزمان حسب ترتيب التتابع، و يحدد في المكان حسب ترتيب التموضع، و لا يمكن أن يكون هذا الحيز الأساسي متحركاً، إذن فالمكان و الزمان حيزان مطلقان»⁴

إن الاعتماد على الزمان و المكان المطلقين يجعل نتائج الفيزياء في نظر "نيوتن" تفرض نفسها على الجميع، حيث يتفق الجميع على أن الحركة مطلقة أو أن السكون مطلق، يقول "نيوتن": «الحركة المطلقة انتقال الجسم من موضع مطلق إلى موضع مطلق، و الحركة النسبية فهي انتقال من موضع نسبي إلى موضع نسبي، على ظهر سفينة تدفعها الرياح المكان النسبي لجسم هو موضعه على السفينة، أو هو الجزء من هيكل السفينة الذي يحتله الجسم و الذي يتحرك مع السفينة، و السكون النسبي هو بقاء الجسم في نفس الموضع أو الجزء من هيكل السفينة، بينما السكون الحقيقي هو بقاءه في نفس الموضع أو الجزء من المكان الساكن الذي تتحرك فيه السفينة ككل و ما تحويه»⁵.

¹ - Isaac Newton , **Mathematical principles of natural philosophy**, tra; Bernard cohen and anne Whitman, (university of California press ,USA.1999). p408

²-Ibid,p 410

³ - Ibid,P P 408-409

⁴ - Ibid, p410

⁵ - Ibid,p409

لقد سيطرت فيزياء "نيوتن" لعقود و فرضت أفكارها مع موجة نجاحاتها في تفسير العديد من الظواهر الفيزيائية، و بدأ هذا وأنه تأكيد لمصادقية مفاهيمها التي تأسست عليها، في ذلك العصر كانت "لايبنتز" الشجاعة الفكرية ليعارض بشدة الأسس التي قامت عليها فيزياء "نيوتن"، و بين أن الزمان و المكان المطلقين لا وجود لهما و لا قيمة لهما بمعزل عن الموجودات و الأحداث الفيزيائية، لقد سبق "لايبنتز" عصره و كان لا بد من مرور قرون حتى تتراكم المعارف و التجارب في علم الفيزياء، و يصل العلماء إلى ما كان يقتنع به، و بالفعل دخلت فيزياء "نيوتن" في أزمة في أواخر القرن التاسع عشر، و كثر منتقديها أمثال "ماخ" و "بوانكاريه" و ظهرت شكوك حول صلابة المفاهيم التي تأسست عليها « لقد أمعن نيوتن في تجريد الأساس النظري لفيزيائه، مما جعل الزمان المطلق مستقلا عن كل شيء في حين انه لا يوجد في الكون أي شيء مستقل عن كل شيء، و نيوتن لا يوضح على الإطلاق العلاقة التي تربط بين الزمان المطلق و موضوعاته، لذا قيل أن زمانه لا هو مقنع نظريا و لا هو مفيد تجريبيا، و انه مجرد إمكانية منطقية، تصور عقلي فقط يهدر جانب التجريب الذي يمثل صلب الفيزياء.»¹، لقد كانت تجربة "مايكلسون" و "مورلي" لقياس سرعة الضوء بدلالة الأثير بمثابة الصخرة التي تحطمت عليها مطلقيات "نيوتن"، لقد قادت نتيجة هذه التجربة إلى أن قياس سرعة الضوء أو أي حركة أخرى بدلالة مرجعية مطلقة هو محض خداع أوهمنا به أنفسنا لقرون، و رغم ظهور محاولات للتلفيق و تكييف فيزياء "نيوتن" مع المعطيات التجريبية الجديدة، إلا أن هذا لم يحافظ على دعائمها المهترئة، و ظهرت نظرية النسبية لتقول أننا لا يمكن أن نرصد الأحداث الفيزيائية إلا بدلالة مراجع نسبية، فالمكان و الزمان نسبيان، و تبعا لهذا فقيم الرصد مختلفة و نسبية حيث أن لكل نقطة رصد إحداثياتها الخاصة، إن المسافات المكانية و الفترات الزمانية سيكون لها قيم تختلف باختلاف موقع الراصد الذي يقيسها، و هذه التحولات التي تطرأ على الفواصل الزمنية و المكانية تبين أن المكان و الزمان يشكلان جزءا من الأحداث و ليس خلفية منفصلة عنها، فلم يعد المكان و الزمان المطلقين مرجعية لوصف الأحداث، بل أصبح مرجع المقارنة هو الراصد الذي يرصد الأحداث الفيزيائية، و النتائج التي يتحصل عليها هذا الراصد تخصه هو فقط بالنظر لموقعه إزاء الحادثة.

2- التصور النسبي بين لايبنتز و اينشتاين:

منذ قرون أشار "لايبنتز" إلى نسبية الزمان و المكان و الحركة في وقت كان الجميع يؤمن بمطلقيات نيوتن، أن أهمية فلسفة "لايبنتز" حول مسألة الزمان و المكان، تكمن في انه نبه إلى العلاقة الموجودة بين الأشياء و المكان، و الأحداث و الزمان، و و قدم حججا تدعم التصور النسبي للمكان و الزمان، كما أنه حاول التقليل من الفصل الذي أحدثه فيزياء نيوتن بين الزمان و المكان، « وهذا الرأي الذي دعا إليه "لايبنتز" هو ما يسمى نظرية العلاقة المشتركة بين المكان و الزمان (أو مركب المكان و الزمان)، وهي في العديد من جوانبها أكثر اتفاقا مع المفهوم النسبي الحديث من نظرية نيوتن عن المكان و الزمان المطلقين، فهي تنظر إلى الحوادث بوصفها أهم من لحظات الزمان و تفيد بما يمكن أن نكشف عنه من تماثل بين المكان و الزمان.»²

رغم أن وجهة نظر "لايبنتز" حول النسبية كانت في إطار فلسفته و أنه اعتمد على حجج فلسفية، إلا أن تطور الفيزياء اثبت أنها أكثر واقعية من مطلقيات نيوتن، كتب "لايبنتز" سلسلة من الرسائل في سنواته الأخيرة بعث بها إلى "صامويل كلارك" (S. Clarke) الذي يعتبر من المدافعين عن فلسفة "نيوتن"، و عن فكرة الزمان و المكان المطلقين، يعتبر كلارك الزمان و المكان خاصيتين لله، فالمكان المطلق الذي لا حدود له يعني سعة الله، و الزمان المطلق ذو الانسياب الأزلي يعني أبدية الله، لقد سعى "لايبنتز" عبر رسائله إلى تفنيد التصورات المطلقة للزمان و المكان و دافع عن التصور النسبي.

1 - يحيى طريف الخولي، الزمان في الفلسفة و العلم، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999)، ص 126-127

2 - كولن ولسن، فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة: فؤاد كامل، (سلسلة علم المعرفة، الكويت، 1992)، ص 163.

لقد كرست فيزياء نيوتن فكرة الزمان و المكان المطلقين و أنهما يوجدان بشكل مستقل عن الأشياء أو الأحداث – أو كما يسميه "نيوتن" وجود في ذاته - و أنهما لا يتأثران بهما، و قد انتقده "لايبنتز" حيث رأى أنه ليس للزمان ولا للمكان وجود مستقل عن الأشياء و الأحداث، و ما المكان سوى العلاقة بين الأشياء، فلا وجود له في حد ذاته، بل نشته من الأشياء، فلا يمكن مثلا أن نقول أن للصدقة أو البغضاء وجودا منفصلا بذاته، فالصدقة تقتضي أن يكون "أ" صديقا لـ "ب"، و البغضاء تقتضي أن يكون "أ" يبغض "ب"، أما الصدقة و البغضاء فلا يوجدان بشكل منعزل، والحديث عن المكان معناه الحديث عن العلاقة بين الأشياء، فلا معنى للمكان إذا لم توجد أشياء، كذلك الزمان يعتبر ترتيب للحوادث وليس له وجود في ذاته، ونستطيع أن نجرد فكرة الزمان من تعاقب الحوادث¹، و هذا يعني أن المكان و الزمان نسبيان، أي أن وجودهما مرهون بالأشياء و حركتها، و لا يمكن تصورهما إلا من خلالها، يقول "لايبنتز" في رسالته الثالثة إلى "كلارك": « بالنسبة لي أشرت أكثر من مرة و علقت بأن المكان بالنسبة لأي جسم ليس إلا نسبي - مثل الزمن- بصفته ترتيب للموجودات، مثل الزمان الذي يعتبر نظام تتابع، لأن المكان سمة تحدد إمكانية ترتيب أشياء موجودة في نفس الوقت.»²

رأى "لايبنتز" أن المكان هو العلاقة التي تظهر على شكل ترتيب للأشياء الموجودة معا، حيث ندرك امتدادها و تجاورها بالنسبة إلى بعضها البعض، و تغير المسافة بالنسبة لبعضها لبعض، بعد ذلك نصرف النظر عن الأشياء و لا نفكر إلا في الحيز الذي تشغله، حينئذ نحصل على فكرة نظام مجرد هي فكرة المكان المحض، لكن هذه الفكرة ليست معطى تجريبي، و إنما نقوم بتصورها فقط أثناء التجربة، فالعالم الممتد يختلف كثيرا عن فكرة المكان التي نتصورها،³ يقول "لايبنتز" في رسالته الخامسة: «إليك كيف يصل الأشخاص لتكوين مفهوم المكان، إنهم يتفحصون الكثير من الأشياء الموجودة دفعة واحدة، و يوجدون نوعا من نظام التجاور وفقا لنسبة إحداها للآخر»⁴، و هذا يعني أن المكان فكرة نكوها في عقولنا و ليس للمكان وجود خارجي مستقل كما رأى "نيوتن" ، كذلك ما دام المكان مستقل عند نيوتن فإنه يمكن أن يوجد بدون أشياء بمعنى أن المكان الخالي أو الفراغ ممكن الوجود عند نيوتن، يرد "لايبنتز" على هذه النقطة حيث يرى أن فكرة الفراغ هي مجرد تصور اخترعته عقولنا، ويقول في هذا الصدد: « نفس السبب الذي يجعل المكان الغريب عن الوجود تصوري، يثبت أن كل مكان فارغ هو شيء تصوري.»⁵

إن تصور "لايبنتز" للمكان يقترب كثيرا مما توصل إليه "ألبرت أينشتاين" (Albert Einstein) (1879-1955) في نظريته النسبية، لقد رأى "اينشتاين" أن المكان يعبر عن ترتيب للأشياء الموجودة و لا يمكن فصله عن الأجسام، أي أنه لا يمكن أن يوجد مستقلا عنها حيث يرفض فكرة المكان المطلق التي يقول بها "نيوتن" يقول "اينشتاين": «لقد أردت أن أوضح أن المكان ليس بالضرورة شيئا يمكن أن ننحده وجودا منفصلا بطريقة مستقلة عن الأجسام الموجودة فعلا في دنيا المادة، إن الأجسام المادية ليست في المكان بل هي امتداد مكاني، و بهذه الطريقة يفقد تصور المكان الفارغ معناه»⁶، و هنا نلاحظ توافق كبير بين رؤية "اينشتاين" للمكان و رؤية "لايبنتز"، حيث أن كل منهما يرد المكان إلى الأشياء.

1 - المرجع نفسه ، ص162

2-Œuvres de Leibniz, **Lettres entre Leibnitz et Clark** . Collationnée sur les meilleurs textes par M.A. Jacques, 3^{ème} lettre, (Paris. Charpentier Libraire-éditeur.1846). p499

3 - عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، ج 2، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1984)، ص392

4- Œuvres de Leibniz, **Lettres entre Leibnitz et Clark**. 5^{ème} lettre, p534

5 -Ibid. 508

6 ألبرت اينشتاين، النسبية. النظرية الخاصة و العامة. ترجمة: رمسيس شحاته (الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1965)، ص41 .

يشير "لايبنتز" إلى نسبية إدراك الأشياء في المكان ، حيث لا نستطيع الوصول إلى تحديد مطلق للأشياء وإنما فقط من خلالها نسبها إلى أشياء أخرى و معالم أخرى ، فعندما نقول هذا الشيء بعيد أو قريب يجب أن نحدد بالنسبة لمن حتى تكون عبارتنا ذات معنى ، فأى شيء في هذا الوجود لا يكون إلا مرتبطا مكانيا بأشياء أخرى ، حيث يتخذ إزاءها علاقات مكانية معينة ، إذ أن هناك مسافة بين الأشياء نعب عنها بقريب و بعيد، و اتجاهات من يمين و يسار و تحت و فوق، كل هذه العبارات تعبر عن العلاقة المكانية التي ننسب فيها الأشياء لبعضها إذ ليس هناك تحديد مطلق لمتوضع الأشياء¹، بعد قرون نجد "اينشتاين" يكرر نفس الكلام في نظريته النسبية ، حيث يتكلم عن نسبية تحديد الأشياء ، حيث لا يوجد مرجع مطلق نستند إليه في تحديدنا لموقع الجواث و الأشياء ، و كل ما بوسعنا هو تحديدها بدلالة أشياء أخرى ، فالمرجع المطلق المستقل عن الأشياء لا وجود له ، و كل ما في الأمر أننا نتعامل بعلاقات مكانية نسبية بين الأشياء.²

كذلك يقول "لايبنتز" بنسبية الحركة ، حيث أن الحركة أيضا منسوبة للأشياء و لا يمكن إدراكها إلا بشكل نسبي ، فليس هناك أي شيء مطلق ننسب إليه الحركة أو معلم يتفق عليه الجميع ، فكل الحركات نسبية و لا وجود لأي حركة مطلقة ، يقول "لايبنتز" عن الحركة أنها «تغير نسبي بسيط للوضعية بالنسبة لجسم إزاء أجسام أخرى ، لأنه حينما يكون السبب المباشر للتغير موجود في الشيء ، فهذا يعني أنه في حركة ، و هكذا فإن وضعية الأشياء الأخرى بالنسبة إليه ستتغير»³ ، لقد انتقد "اينشتاين" مفهوم الحركة المطلقة عند "نيوتن" ، حيث ليس هناك مرجعية مشتركة نحكم من خلالها على مطلقية الحركة ، فقد يكون ما هو متحرك بالنسبة إليك ساكن بالنسبة إلي ، فالمصباح الذي يبدو ثابتا على سطح المكتب هو في نفس الوقت متحرك بسرعة هائلة بالنسبة لمراقب موجود خارج الأرض ، كون هذه الأخيرة تدور حول الشمس بسرعة 30 كلم/ثا. يقول "اينشتاين" : « فنحن لم نأخذ بعين الاعتبار واقع أن الملاحظات الرصدية يجب أن تتم كلها بالنسبة لمرجع معين ، و بدلا من أن نعين هذا المرجع بدقة كنا نتجاهل وجوده ، فعندما كنا نقول مثلا : (أن الجسم يتحرك بانتظام...) كان علينا في الواقع أن نقول (أن الجسم يتحرك بانتظام بالنسبة للمرجع كذا...)»⁴.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الزمان فقد رفض "لايبنتز" الزمان المطلق المستقل عن الأحداث ، فالزمان لا يمكن إدراكه إلا بالأحداث ، إذ هو علاقة تظهر في صورة ترتيب للظواهر المتوالية ، ففكرة الزمان مرتبطة بالأحداث و لا يمكن أن ندرك زمانا خاليا خلوا تماما من توالي لحظات متجانسة ، فما ندركه هو توالي الأحداث العينية ، فنستخرج من هذا التنوع من الأحداث المختلفة صفة التوالي وينشأ لدينا تصور الزمان ،⁵ يقول "لايبنتز" في رسالته الثالثة إلى "كلارك" : « اللحظات لا تعني شيئا على الإطلاق بمعزل عن الموجودات ، حيث لا وجود لها إلا في النظام المتتابع للأشياء»⁶ . من جهته يرى "اينشتاين" أن الزمان المحض المستقل عن الأشياء لا معنى له ، حيث يجب أن يرتبط بالحوادث ، حيث أن تصور الجسم و حركته سابق عن تصور الزمن ، و بهذا يخالف اينشتاين

¹ - Lawrence Sklar, **Philosophy of physics** , (oxford university press ,new York 2002).p p19

² -ألبرت اينشتاين، أفكار و آراء، ترجمة رمسيس شحاتة، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986)، ص 65-66

³ Œuvres de Leibniz, **Lettres entre Leibnitz et Clark** . 5^{ème} lettre, p 538

⁴ - ألبرت اينشتاين ،ليوبولد انفلد، **تطور الأفكار في الفيزياء**، ترجمة: أدهم السمان، (دار طلاس للنشر ، 1992)، ص 117

⁵ - عبد الرحمان بدوي، **موسوعة الفلسفة**. ج.2. ص.392

⁶ - Œuvres de Leibniz, **Lettres entre Leibnitz et Clark**, 3^{ème} lettre, p500

تصور "نيوتن" عن استقلالية الزمان المطلق و وجوده بذاته، و يتفق مع رؤية "لايبنتز"، حيث يقول: «يبدو لي أن تكوين تصور الجسم المادي يجب أن يسبق تصورنا للمكان و الزمان»¹.

يرى "لايبنتز" أنه يمكن أن نعبر عن الزمان بعلاقات كمية، باعتباره نسبة نقيمتها بين الأشياء، إن الزمان هو ببساطة العلاقة الزمنية التي تربط بين الأحداث، و لتوضيح طبيعة هذه العلاقة نقول مثلا أن الحدث "أ" يحدث قبل أو مع أو بعد الحدث "ب" ، فلا يمكن لـ "أ" إلا أن يكون زمانيا في هذه العلاقات الثلاث و يمكن أن نعبر كميًا عن هذا ، فنقول أن الحدث "أ" يحدث في وقت زمني يقدر بقيمة سلبية أو معدومة أو ايجابية بالنسبة للحدث ب². بهذه الصورة يبدو أن الزمان لا يمكن أن يكون إلا نسبي و لا وجود لزمان مطلق مستقل عن الأشياء ، لقد أشار "اينشتاين" إلى هذا في تعليقه على زمان نيوتن حيث يقول: «إن الفيزياء التقليدية تفترض ضمنا وجود ميقاتية واحدة، بمعنى أن الزمن ينساب واحدا لدى كل الناس، أي أن ميقاتية واحدة تكفي و يمكن أن تخدم كل الراصدين في أي مرجع كانوا، شريطة أن يروها فقط، و على هذا فإن العبارات التي مثل تواقف و قبل و بعد كان لها معنى مطلق مستقل عن أي مرجع يرصد الزمن منه»³، لقد رأى "اينشتاين" أن نظرية النسبية تجبرنا على التخلي عن وجهة النظر التقليدية، حيث أنه لا يمكن الاتفاق على توقيت واحد في الكون أو على "قبل" واحد أو "بعد" واحد أو "تزامن" واحد، فكل ملاحظ سيقاس الحادثة بالنسبة إليه و يتحصل على النتيجة التي تخصه، يقول "اينشتاين": «قد واجهنا لدى الراصدين حادثين متواقفين في مرجع احدهما، و غير متواقفين في مرجع آخر»⁴.

إن الفرق بين التصور المطلق و التصور النسبي للمكان و الزمان يكمن في أن التصور المطلق يدرك المادة و يتصورها من خلال الزمان و المكان، بينما التصور النسبي فيعكس الصورة حيث يدرك الزمان و المكان من خلال المادة، لقد أدرك "لايبنتز" مبكرا أن الزمان و المكان لا يمكن إلا أن يكونا نسبيين، فالمكان و الزمان ملازمين للمادة و حركتها حيث يمكن اعتبارهما نسقين أو ترتيبين مرهونين بوجود الأشياء و الحوادث، و لا يمكن أن نتصور أن لهما واقع مستقل مطلق، يقول "لايبنتز" في الرسالة الخامسة التي بعثها إلى "كلارك": «أنا لم اقل بتاتا أن المادة و المكان شيء واحد، قلت فقط، لا وجود لمكان حيث لا توجد المادة، و أن المكان نفسه ليس بحقيقة مطلقة، المكان و المادة مختلفان مثل الزمن و الحركة، و مع أن هذه الأشياء مختلفة إلا أنها ملازمة لبعضها»⁵.

الملاحظ كذلك في رؤية "لايبنتز" هو أنه قلل من حدة الفصل الموجود بين الزمان و المكان الذي أحدثته فيزياء نيوتن ، فكل منهما موجود بذاته مثلما يعرفهما "نيوتن"، أما "لايبنتز" فقد ربط كل من الزمان و المكان بالمادة و حركتها، و لا يمكن أن يوجد المكان و الزمان بدون مادة، و كأنه يرى أن المادة هي الشيء المشترك بين الزمان و المكان، حيث لا يمكن فهمهما إلا من خلالها، ومع ظهور نظرية النسبية زادت قوة التأكيد على العلاقة بين الزمان و المكان ، و قد أنتجت هذه العلاقة مفهوما جديدا دمج فيه الزمان و المكان في تسمية واحدة أطلق عليها الزمكان (Space-time)، فالمكان و الزمان يعتبران جزء من العلاقة المتبادلة المتشابكة الكلية التي يفقدان فيها استقلالهما ، فالأشياء التي نراها لا توجد في العالم المكاني الثلاثي الأبعاد و إنما أيضا تخضع للبعد الزمني ، ولهذه الأسباب تقترح النسبية ضرورة استيعاب العالم الفيزيائي بالأبعاد الأربعة و هو ما يسميه "اينشتاين" بالمتصل الزمكاني، يقول

¹ - ألبرت اينشتاين، النسبية، النظرية الخاصة و العامة، ص 209

² - Lawrence Sklar, **Philosophy of physics**, p 19

³ - ألبرت اينشتاين، ليوبولد انفلد، تطور الأفكار في الفيزياء، ص 132-133

⁴ - المرجع نفسه، ص 133

⁵ - Œuvres de Leibniz, **Lettres entre Leibnitz et Clark**, 5^{ème} lettre, p541.

"اينشتاين": « إن الموضوع الواحد يتعين بثلاثة أعداد ، أما العدد الرابع فيعين زمن الحادث .فيتعلق إذن بالحادث الواحد بتمامه أربعة أعداد ، و كل مجموعة أربعة أعداد تعين حادثا بذاته .فعالم الحوادث هو إذن متصل رباعي الأبعاد»¹.

من خلال ما سبق يتضح أن "لايبنتز" أشار إلى نسبية المكان و الزمان و الحركة مبكرا ، رأى أنه لا وجود لمكان و زمان مستقلين عن الأشياء ، فلا وجود إلا لعلاقات مكانية و زمانية ، و إن لم توجد الأشياء فلا معنى لما نسميه زمان و مكان ، و تبعا لهذا لا وجود للحركة المطلقة ، فكل الحركات نسبية حيث تكون منسوبة للأشياء المتجاورة في المكان و المتحركة في الزمان ، يعتبر "لايبنتز" من الفلاسفة الذين كانت لهم الشجاعة الفكرية لانتقاد فيزياء أبهت الكثيرين من علماء و فلاسفة ذلك العصر ، لقد كان حوار "لايبنتز" مع "نيوتن" حوارا فلسفيا حول مفاهيم مؤسسة لعلم الفيزياء ، و قد تبين مع التراكمات و التجارب أن التصور النسبي هو الذي يصلح كأساس لعلم الفيزياء ، حيث أثبتت نظرية النسبية أنه لا يمكننا فهم الأحداث الفيزيائية إلا بشكل نسبي ، هذا يبين أن الرؤية الفلسفية قد تكشف عن خلل في العلم و تقدم تصورات بديلة. لقد مثل "لايبنتز" نموذج للفيلسوف الذي انتقد علوم عصره فقد خالف "كانط" الذي بنى فلسفته على فيزياء "نيوتن" و مضى في بناء تصورات مخالفة لفيزياء عصره من منطلق فلسفي ، و قد أكدت تراكمات العلم أن "لايبنتز" كان فيلسوفا سابقا لعصره .

قائمة المراجع :

1. -ألبرت اينشتاين، أفكار و آراء، ترجمة رمسيس شحاتة ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ، 1986).
2. ألبرت اينشتاين، النسبية. النظرية الخاصة و العامة، ترجمة: رمسيس شحاته (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1965).
3. ألبرت اينشتاين، ليوبولد انفلد، تطور الأفكار في الفيزياء، ترجمة: أدهم السمان، (دار طلاس للنشر ، 1992).
4. جوتفريد ليبنتز، أبحاث جديدة في الفهم الإنساني، ترجمة: احمد فؤاد كامل، (دار الثقافة للنشر و التوزيع، 1983).
5. كولن ولسن، فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة: فؤاد كامل ، (سلسلة علم المعرفة ، الكويت ، 1992).
6. عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، ج 2، (ط1 المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1984).
7. يمتى طريف الخولي، الزمان في الفلسفة و العلم ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. 1999).
8. Isaac Newton ; **Mathematical principles of natural philosophy** , tra; Bernard cohen and anne Whitman ; (university of California press ,USA.1999).
9. Lawrence Sklar, **Philosophy of physics**, (oxford university press, new York 2002).
10. Œuvres de Leibniz. **Lettres entre Leibnitz et Clark**, Collationnée sur les meilleurs textes par M.A. Jacques. 3^{ème} lettre, (Paris. Charpentier Libraire-éditeur.1846).

¹ - ألبرت اينشتاين، ليوبولد انفلد، تطور الأفكار في الفيزياء، ص 153

المنهجية الفردانية في سوسولوجيا ريمون بودون Methodological individualism in Boudon,s sociology

د.عبد الصبور لكلمات/جامعة القاضي عياض، مراكش ، المغرب

ملخص :

تهدف المنهجية الفردانية كتوجه إلى بناء واقع اجتماعي وثقافي، يستطيع فيه الناس اختيار طريقة حياتهم وسلوكهم ومعتقداتهم، واقع يضمن للفرد خاصية الاستقلالية والتميز. لهذا يمكن القول بأن إرساء براديفم الفردانية على مستوى التحليل السوسولوجي، وتحديدًا مع ريمون بودون، كانت الغاية منه تحليل الظواهر الاجتماعية في إطارها الميكروسوسولوجي، وذلك بالتركيز على مقولة "المفرد". هذا الموقف في التفسير يتجاوز منطق التحليل الكلياني. ويعيد ترتيب وحدات التحليل السوسولوجي. إنه طرح منهجي يعطي الأولوية للأفراد في تحليل النظام. ويقوم على الارتقاء بالمفاهيم التحليلية، إلى مستوى يسمح بإقامة علاقة ربط ما بين الظواهر ومتغير الأفراد، بحيث تتغير المعطيات والنتائج بتغير الأفراد. لقد فتحت المقاربة الفردانية الأفاق لإيلاء الفرد المكانة الأهم في التحليل السوسولوجي. وهذا الاعتبار النظري – المنهجي جعل بودون يستلهم مفاهيم "الفعل" "أثر التجميع" و"أثر التشكل" و"الأثار الشاذة" و"الصدفة" و"أثر الانبثاق" ... وهي كلها مفاهيم تتكامل فيما بينها لتنتج مقاربة جدّ مخصصة في حقل علم الاجتماع.

الكلمات المفتاحية: الفردانية، الكليانية، المفرد، القصدية، الفعلانية، العقلانية الإدراكية.

Abstract:

The individual methodology aims at building a social and cultural reality in which people can choose their way of life, behavior and beliefs, a reality that guarantees individual autonomy and excellence. It is therefore possible to say that the establishment of the individuality paradigm at the level of sociological analysis, specifically with Raymond Bodon, was intended to analyze social phenomena within its microcosiological framework by focusing on the singular. It is a systematic approach that gives the primary to individuals in system analysis. And is based on the upgrading of analytical concepts, to a level that allows the establishment of a link between the phenomena and the variable of individuals, so that the data and results change according the change of individuals.

Keywords: individualism, totalitarianism, singular, intentional, actuality, cognitive rationality.

مقدمة :

تعتبر النزعة الفردانية¹ توجه فكري فرض نفسه داخل الحضارة الغربية على وجه الخصوص، بدءاً من عصر التنوير وحتى مرحلة ما بعد الحداثة. لقد شكل هذا التوجه الفكري واحداً من التوجهات الكبرى التي أطلقت حرية الفرد ومكنته من المشاركة الإيجابية في بناء الحضارة الإنسانية. لقد ارتبطت كتوجه فكري، بالدعوة إلى حق الفرد في أن يمتلك نفسه وأن يصوغ وجوده بإرادته ورغبته وأن يقرر بذاته حدود أفعاله الإنسانية وكيفية مواجهة أشكال التسلط والإكراه التي قد تحد من الصيرورة الإنسانية. الفردانية كتوجه تؤكد على الخصائص الذاتية للفرد وعلى سماته ومميزاته الخاصة. أي التركيز على كل ما هو خاص وشخصي ومتفرد وهذا يعني أن الإنسان يمتلك وحدته الداخلية ويؤدي وظيفته كنسق ونظام متكامل، كما يمتلك استقلالية في الوسط الذي ينتمي إليه، فهو يتميز عن الجماعة والآخرين بطرق تفكيره وعمله ونظرته للوجود. وهي حالة من حالات شخصنة الفرد وإعطائه سمات وخصائص شخصية يتفرد بها، ويكتسب عبرها هويته المميزة. لذلك فغاية التوجه الفردي الوصول إلى بناء واقع اجتماعي وثقافي، يستطيع فيه الناس اختيار طريقة حياتهم وسلوكهم ومعتقداتهم، واقع يضمن حقوق الأفراد، بوصفهم أفراداً غير مكرهين على التضحية أو التنازل على شيء هم يعتقدون به². انطلاقاً من هذا النمط الخاص من التفكير والذي يمكن اعتباره نتيجة عملية لسياق التطور التاريخي، الذي عرفته المجتمعات الحديثة والذي أعطى للفرد نوعاً من التميز والفرادة. سنتوقف إذن مع ريمون بودون لنفكك مجموع الأسس النظرية والإبستمولوجية، التي تقوم عليها المنهجية الفردانية، بالبحث أولاً عن الجذور الفكرية لهذا التوجه، لنتقل بعد ذلك إلى تفكيك المفاهيم التحليلية التي تقوم عليها وحضورها على مستوى تحليل القضايا السوسولوجية.

الجذور المعرفية للمنهجية الفردانية

هناك سؤال يطرح نفسه، سؤال يرتبط بجذور هذا التوجه الفردي. وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أنه من المفكرين الأوائل الذين تناولوا هذا التوجه نذكر كل من هوبز ولوك وأدم سميث، بحيث كانوا ينظرون للإنسان في دائرة تفرده ويقابلون بينه وبين الدولة. بعد ذلك وفي مجرى القرن التاسع عشر، وما واكبه من تطور فكري، بدأت الفردانية تزدهر وتتوسع لتشمل مختلف مناحي الحياة وبخاصة المنحى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، مع الانتصار المتنامي للرأسمالية والطبقة البورجوازية. لقد شكلت هذه المرحلة النواة الحقيقية، لبداية التطور الحقيقي لمفاهيم الفردانية وحقوق الإنسان والعمل على تحرير الإنسان عقلاً وفكراً وممارسة وانتماء. وبالانتقال إلى المجال السوسولوجي يمكن القول بأن إرساء براديجم الفردانية على مستوى التحليل السوسولوجي يرجع بالأساس إلى عالم الاجتماع الفرنسي ريمون بودون، الذي يعتبر من أول مؤسسي ما عرف في السوسولوجيا الفرنسية بتيار الفردانية المنهجية *L'individualisme méthodologique*. عندما وظف المنهج الفردي في تفسير وفهم الظواهر السوسولوجية والتي عمل على تحليلها في إطارها الميكروسوسولوجي، إيماناً منه بأهمية المقاربة الميكروسوسولوجية في تحليل

¹ - الفردانية، هذا اللفظ يعني الجزء الذي لا يتجزأ، وهذا يفيد بأن الفردانية كمفهوم يقوم في عمقه على مبدأ الكينونة التي تمتنع على التجزئة. يبين قاموس دوزات Dauzat أن هذه الكلمة قد ظهرت عام 1826 في جريدة *Globe* الباريسية كتنقيص لكلمة اشتراكية *Socialisme*، لذلك فهو مفهوم يقابل "الجماعة"، وفي هذا السياق نجد أن علماء الاجتماع اليوم يوظفون مفردة الفردانية كمقابل "للجماعة" التي تقوم على فكرة أن الفرد نسخة متكررة عن الجماعة التي ينتمي إليها ومن هذا المنطلق يجري الحديث عن الفردانية بوصفها الحالة التي يكون فيها الفرد كياناً مستقلاً ومتفرداً عن الجماعات التي ينتمي إليها، وقادراً على اتخاذ قراراته استناداً إلى إمكانياته الخاصة وقدراته المستقلة عن أفراد الجماعة الآخرين الذين ينتمي إليهم الفرد.

² - Charles Taylor , *Les malaises de la modernité*, C .E .R.F, Paris, 1999, P15.

المجتمعات المعاصرة. وهو موقف في التفسير يتجاوز منطق التحليل الكلياني الذي دأبت المقاربة الكليانية¹ holistique على توظيفه. هذه المقاربة عملت دائما على معالجة الظواهر والسياقات المجتمعية كظواهر مفارقة لسلوكيات الفرد ومؤثرة في سلوكه ومحددة لأهدافه ومقاصده.

إن الفرد في سوسيولوجيا ريمون بودون يعتبر من الأسباب الأساسية في حدوث الظواهر الاجتماعية. لذلك، نجده يسير في اتجاه دحض النظريات الماكرو-سوسيولوجية التي تجعل الفرد نتيجة للظواهر الاجتماعية. فهو يولي الأهمية القصوى للفرد وكل ما يقوم به من سلوكيات على أنها المؤثرة في الظواهر الاجتماعية، ومن ثمة في التغيير الاجتماعي. يقول في هذا الإطار: «شرح ظاهرة اجتماعية يعني الأخذ بعين الاعتبار دائما على أنها نتيجة للأعمال الفردية»². ويصرح ريمون بودون بأنه إذا كان من البديهي القول بأن النظريات الكلاسيكية في علم الاجتماع قد تأسست على مناهج ومقولات تحليلية كليانية فإن اللافت للانتباه هو أن هذه النظريات الكلاسيكية لا تخلو بدورها من مقولة الفردانية، ذلك أن هذه المسألة تبقى متجددة في علم الاجتماع ومند بواكيره الأولى، وهو ما نجده واضحا في مؤلفات بودون، بحيث بين كيف أن أصول المقاربة الفردانية تعود أساسا إلى أعمال كل من ماكس فيبر وفلفريدو باريتو، فيبر الذي ميز على مستوى الأفعال الإنسانية ما بين الفعل البدائي والفعل الوجداني والفعل العقلاني. كما تمتد كذلك إلى علماء الاجتماع المعروفين بنزعتهم الكليانية على غرار كارل ماركس وإميل دوركايم وغيرهم. وقد أشار ريمون بودون إلى أن الفردانية كانت موضوع تعريفات متعددة فهي لدى دي توكفيل (A. De. Tocqueville) نتاج اتساع المجال الخاص بحيث يميز في إطار حديثه ما بين الخاص والعام أو بعبارة أخرى الجماعة والفرد، ولدى دوركايم انعكاس لتدعيم استقلالية الفرد معياريا وأخلاقيا، وهي لدى جورج زميل G. Simmel وتالكوت بارسونز T. Parsons نتيجة لتطور العلاقات الاجتماعية، أما لدى ماركس فهي نتاج المنافسة في السوق التي تدعم انعزال الأفراد³

لذلك فقد انتهى بودون إلى أن كل التحاليل السوسيولوجية تحمل في طياتها بشكل أو بآخر مبدأ الفردانية. ويبين في هذا الإطار كيف أن مختلف أعمال المقاربة الماكرو-سوسيولوجية، كمقاربة شمولية في دراسة المجتمعات، تحتوي بشكل ظاهر أو خفي على مبدأ الفردانية والتي لا شيء، يوضح ريمون بودون، يتبنت نفهم لها أو إنكارهم للبعد الفردي. إن الإنسان بالنسبة لدوركايم يعتبر كائن اجتماعي بطبعه ولا يمكنه أن يكون خلاف ذلك. وهذا يعني أن الجانب الفردي في الجماعة لا يتعارض أبدا مع الجانب الاجتماعي، الشيء الذي عبر عنه دوركايم بقوله بأنه داخل كل كائن، هناك كائن فردي يعبر عن منظومة الميول الفردانية، وكائن اجتماعي يمثل جميع المواقف والاتجاهات والقيم التي يشترك فيها مع الجماعة التي ينتمي إليها⁴. لذلك فعالم الاجتماع مدعو إلى تحليل أثر البيئة وتغيرات المحيط على الفعل الفردي. وبأكثر دقة فهو يعتبر المحيط كمساهم في تحديد عنصرين مهمين في الحقل الذي يتموقع فيه العون الاجتماعي l'agent social هما عامل الاختيارات المقدمة له وقيمة الأهداف التي يقدمها⁵. لذلك فآثار البيئة والمحيط لا تقع في فراغ بل يستجيب لها الأفراد الذين يتموقعون بدورهم داخل البيئة والمحيط. وهو ما يشير إلى وجود علاقة جدلية بين الفرد والمحيط. ذلك أن الفرد وإن كان لا يقدر على تحقيق فكرة الاندماج الاجتماعي إلا من خلال القبول بإملاءات

¹ - وهي ترجمة للكلمة الفرنسية Holisme والكلمة اليونانية Holos والتي تعني "كلية. انظر: ريمون بودون وفيول، الطرائق في علم الاجتماع، ترجمة مروان بطش، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2010، ص 50

² - بير أنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ت: نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، ط: 1، ص 71، 1992.

³ - Raymond Boudon et François Bourricaud : Dictionnaire critique de la sociologie. 2^{ème} édition. PUF. 1986.P617.

⁴ - إميل دوركايم، التربية والمجتمع، ترجمة علي وطفة، دار معد، 1990، ص 70.

⁵ - Rymond Boudon La Logique du social : Introduction à l analyse sociologique . 3^{ème} édition. Hachette /Pluriel. Paris 1997 .P270 .

المجتمع، فذلك لا يلغي أن دوركايم قد ترك مجالاً يتحرك فيه الفرد أسماه بالوعي الفردي. يتحرك بالموازاة للوعي الجماعي وكلاهما مطالب بالتجاوب مع الآخر. وهكذا فإن دوركايم قد أعطى بعض الأهمية للفرد في التحليل السوسيولوجي للظواهر الاجتماعية، عبر ما يحمله في مرحلة التضامن العضوي من كفاءة وقدرة على التحرر من الجماعة العضوية التي ينتمي إليها. والملفت للانتباه هنا هو أن المقاربة الدوركايمية لم تجعل من الفرد عنصراً قادراً على الفعل والتأثير، إلا في إطار المجتمع المعقد حيث يسود التضامن العضوي. وهكذا فمن الممكن أن نجد لدى دوركايم بعض الوعي بأهمية هذا الفرد في التحليل السوسيولوجي للظواهر الاجتماعية.

لقد حاول ريمون بودون من خلال هذا التوضيح تبيان عمق وتجدر المقاربة الفردانية في الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي. وتجدر الإشارة إلى أن ذلك لم يمنعه من توجيه النقد للمقاربات الكليانية، التي تنظر للفرد باعتباره نقطة عبور لمجموع الأفكار الجماعية، حيث تحدد طموحاته ورغباته عبر محيطه الاجتماعي¹. وهو اعتبار دفع ريمون بودون إلى أن يعيد ترتيب وحدات التحليل السوسيولوجي من جديد، بشكل يقطع مع المسلمات الكلاسيكية في علم الاجتماع، تلك التي تغالي من شأن البنى والأنظمة والوظائف وتجعل الفرد أسير ما تمليه عليه الوحدات المشكلة للمجتمع. لذلك فالفردانية المنهجية كما يبدو من خلال جل مؤلفات Boudon تقوم في عمقها على نقد هذه النظريات التي يرى فيها غلوًا ومبالغة في هذا الجانب، بل هو يجعل مقارنته على طرفي نقيض مع ما يسميه بالوظيفية المغالية (Hyperfonctionnalisme) والثقافية المغالية (Hyperculturalisme) والواقعية الكلية (le réalisme totalitaire).

المنهجية الفردية ومبادئ التحليل السوسيولوجي:

إن الفردانية المنهجية هي طريقة تهدف إلى تفسير الظواهر الاجتماعية على مرحلتين عضويتين:

- 1- مرحلة تفسير تثبت من خلالها أن هذه الظواهر الاجتماعية هي محصلة تجميع أو إدماج مجموعة من الأفعال الفردية.
- 2- مرحلة فهم تتلخص في إدراك معنى هذه الأفعال وبعبارة أدق إيجاد الأسباب الوجيهة التي دفعت الفاعلين إلى القيام بذلك. ومع حساب الدور الرئيسي الذي يلعبه هنا مفهوم الفعل، يمكن أيضاً تسمية هذه الطريقة بالتحليل الفعالي analyse actionniste أو بكلمة واحدة الفعالية² actionnisme. ولهذه الطريقة تطبيقات عديدة تبدأ من تفسير ظواهر التفاعلات الأولية، بين بضعة فاعلين وحتى تفسير الظواهر العيانية التي تحدث على صعيد المجتمعات. فهي منهجية تحليل تعمل على تجاوز التحليل السببي الذي يقوم على الوصف واكتشاف العلاقات السببية الإحصائية بين أحداث اجتماعية، كما فعل دوركايم في إطار دراسته للانتحار. إن خصوصية التحليل السوسيولوجي عند ريمون بودون وخلافاً للتوجه الكلاسيكي هو أنه ركز في المقام الأول على "دراسة حالات فردية في نظام من التفاعل حيث تنمو داخله الحالات التي ستفسر"³ لذلك فالخاصية المميزة للتحليل السوسيولوجي، كما تقره المنهجية الفردانية، تكمن في أنه يهدف إلى دراسة حالات فردية، لا من خلال براديفم استخراج المفرد (Le singulier) من المفرد، بل من خلال نمط ممثل لبنية نظام التفاعل الذي تنمو داخله مجموع الحالات موضوع التفسير⁴.

¹- Rymond Boudon : Individualisme et holisme en sciences sociales. Dans : Pierre Birnbaum et Jean LeCa (S/D) : Sur Individualisme . Ed. Paris.1991.P49.

² - بودون وفبول، الطرائق في علم الاجتماع، مرجع سبق ذكره، ص55

³ - بيرانصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، مرجع سبق ذكره، ص79

⁴-Rymond Boudon La Logique du social : Introduction à l'analyse sociologique . 3^{ème} édition. Hachette /Pluriel. Paris 1997 .P80.

فالنظام قد يمارس قوة على الأفراد ضغوطات واکراهات، غير أن ذلك لا يعني إلغاء فاعلية الأفراد، فهؤلاء بدورهم لهم من القوة ما يجعلهم قادرين على ممارسة تأثير تام على هذه الكلية ونسق التفاعلات، الشيء الذي يتطلب مقارنة منهجية تعطي الأولوية للفرد على الكل أو المجموع في تفسير هذا النسق. فالأفراد المكونين للنظام وفي إطار تفاعلهم يمارسون التأثير لامتلاكهم القدرة على الفعل وإحداث التغيير في النظام، ومن تم فقد عمل ريمون بودون على جعل الفرد أداة التحليل المركزية في أعماله، كما جعل منه المرجع الأساسي، الذي يمكن الرجوع إليه لفهم مجموع الظواهر الاجتماعية. وهو الأمر الذي دفع ريمون بودون إلى التأكيد على ضرورة تبني طرح منهجي جديد يعطي الأولوية للأفراد في تحليل النظام موضوع الاشتغال. طرح يقوم على الارتقاء بالتحليل السوسيولوجي إلى مستوى من الذكاء، الذي يسمح بتجاوز التحليلات الماكروسيولوجية إلى مستوى آخر من التحليل، يسمح بإقامة علاقة ربط ما بين هذه الظواهر ومتغير الأفراد بحيث تتغير المعطيات والنتائج بتغير الأفراد¹.

لذلك فهي قضية مركبة يحكمها منطق معقد يختلف عن اتجاه البنى كما في سوسيولوجيا ماركس، أو المؤسسات كما في سوسيولوجيا دوركايم مثلاً. منطق ينتجه الأفراد ومن تم وجب إيلاء هؤلاء المكانة التي يستحقونها. انطلاقاً من ذلك يرى بودون أن مبدأ الفردانية يفرض على عالم الاجتماع أن يقيم قاعدة منهجية، تقوم على اعتبار الأفراد أو الفاعلين الفرديين المنتمين إلى نظام تفاعل واحد كذرات منطقية في تحليله. وهي قاعدة منهجية تقوم في عمقها على أساس اعتبار أن الفرد يعتبر المسؤول المباشر، عما يحدث من ظواهر اجتماعية داخل الأنظمة وهو اعتبار منهجي يقطع مع المسلمات الكلاسيكية التي كانت تهمش دور الفرد في التحليل، الشيء الذي يستدعي معاودة ترتيب عملية التحليل السوسيولوجي بشكل يسمح بربط وحدات التحليل، في مختلف أجزائه، بالفرد الذي أصبح ينظر إليه على أنه ذات فاعلة بعدما كان يتعامل معه على أنه مجرد أسير البنى والأنظمة الاجتماعية. لقد سار بودون في الاتجاه الذي رسمه باريتو والذي ميز على مستوى الأفعال الفردية ما بين الفعل المنطقي والفعل اللامنطقي. فشكّل بذلك الفعل الفردي الدعامة المنهجية في المنهج الفردي البودوني، إذ سيصبح الفرد بذلك الفاعل الرئيسي في حدوث التغيير الاجتماعي في سياق نسق التفاعلات الاجتماعية. وهو الأمر الذي دفع به إلى إدراج مقولة الفردانية المنهجية في إطار الفعالية (l'actionnalisme) فالظاهرة الاجتماعية كيفما كانت هي نتاج لأفعال ومواقف ومعتقدات وسلوكات الأفراد² ويعتبر ذلك الأساس الأول الذي يقوم عليه براديجم علم اجتماع الفعل. أما الأساس الثاني فيرتبط بالبحث عن معنى السلوكات الفردية التي تشكل أساس الظاهرة الاجتماعية، وذلك من خلال الجواب عن السؤال الفيبييري لماذا؟ وهو ما أسماه فيبر بالفهم³. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بودون قد اشتغل على الفهم في إطار مقارنته الفردانية، وذلك من خلال التركيز على مقولتي التفسير والفهم ضمن مجال تحليل السلوكات الفردية.

فجوهر التحليل إذن هو الفهم الذي يسمح بادراك خفايا الظاهرة والآليات المتحكمة فيها، وهي عملية لا تتم بشكل منفصل عن الظروف المحيطة التي يتحرك في إطارها الأفراد، والتي تمارس عليهم ضغوطا واکراهات. هذا الأمر يبين كيف أن الفردانية المنهجية تقتضي أن لا يكون هناك أي تعامل اختزالي أو تجزيئي مع الظواهر والسلوكات. فهي لا تقتضي أي شكل من أشكال الظواهر العلائقية مثل التأثير والنفوذ، وتؤكد بذلك على ضرورة أن يفهم سلوك الفاعل بالنظر إلى وضعية ما تحدد هي نفسها جزئياً بمتغيرات ماكروسيولوجية⁴.

¹ - Rymond Boudon : Individualisme et holisme en sciences sociales. Dans : Pierre Birnbaum et Jean Ica (S/D) : Sur Individualisme . Ed. Paris.1991.,P82.

² - Rymond Boudon : Traité de sociologie. PUF. Paris. 1992 . P22.

³ - Ibid P30 .

⁴ - Rymond Boudon : La place du désordre. Quadrige , PUF.Paris.1984.P66.

إن المقاربة الفردانية لا تلغي دور البنى في التأثير على الفعل الفردي غير أن درجة التأثير هذه تبقى محدودة على اعتبار أن الفعل الفردي لا يتحدد وفقها، على الرغم من مساهمتها الجزئية في تحديد اختيارات الفاعل يقول بودون في هذا الإطار بأن الذرة المنطقية (l'atome logique) للتحليل السوسيولوجي هي إذن الفاعل الفردي والذي لا يتحرك في فراغ مؤسساتي واجتماعي، كما أن فعله واقع في سياق من الضغوط، أي من الوحدات التي يجب أن يقبلها كمعطيات مفروضة عليه، ومع ذلك فالفعل الفردي للفاعل لا يمكن أن يكون النتيجة الحتمية لتلك الضغوط¹. فالبنى الاجتماعية موجودة لها أدوار ووظائف، وتشتغل وفق أطر ومرجعيات مؤسساتية، لكن ومع كل ذلك فهذه الأنظمة لا يمكنها بأي حال من الأحوال الحد من قدرة الفرد على ممارسة فعل الاختيار. لذلك فالارتقاء بالتحليل السوسيولوجي والوصول به إلى درجة العلمية أمر يتطلب من عالم الاجتماع أن يرتبط في تحليله بجوهر الظاهرة، وأن لا يتوقف عند حدود المظهر الخارجي، وذلك بالبحث عن الدوافع والخلفيات التي تحكم سلوكيات الأفراد وكذلك المنطق الذي يحكم اختيارهم لسلوك معين دون غيره من السلوكيات المتاحة. وهو إجراء سيمكن الملاحظ من إمكانية حرق المسافة الفاصلة زمانياً ومكانياً بينه وبين الذات الملاحظة، ومن تم إمكانية فهم سلوك الفاعل، مستعينين في ذلك بمجموع المعلومات التي يتم تحصيلها وبشكل كافي حول الظروف المميزة للمحيط الاجتماعي للفاعل².

المنهجية الفردانية، المفاهيم التحليلية:

يستدعي الحديث عن المنهجية الفردانية الحديث عن أهم المفاهيم التي وظفها ريمون بودون لفهم سلوكيات وأفعال الأفراد وأثر ذلك على التغيير الاجتماعي. إن الميزة الأساسية للإضافات المفهومية لريمون بودون تكمن في متانة العلاقة بين المنهج والمضمون، وبين الفرضية والمفهوم. هذه الميزة التي جعلته ينفرد بجملة من المفاهيم تتوالد فيما بينها عبر حوار دقيق ووثيق. فالمقاربة الفردانية فتحت الأفاق لإيلاء الفرد المكانة الأهم في التحليل السوسيولوجي. وهذا الاعتبار النظري - المنهجي جعل بودون يستلهم مفاهيم "الفعل" "أثر التجميع" و"أثر التشكل" و"الأثار الشاذة" و"الصدفة" و"أثر الانبثاق"... وهي كلها مفاهيم تتكامل فيما بينها لتنتج مقاربة جدّ مخصصة في حقل علم الاجتماع، على اعتبار أنها فتحت الباب أمام الباحثين لطرق أبواب أخرى على مستوى التحليل العلمي الاجتماعي. إن هذه الموضوعات قد استجوبتها المستجدات المتعاقبة على مختلف أوجه الحياة الاجتماعية، والتي بقيت مهمة على مستوى التحليل السوسيولوجي المعاصر، والذي أصبح يبدو في بعض الحالات وكأنه يفتقد موضوعاً كما بين ذلك بودون. إن الفرد يعتبر أداة التحليل الرئيسية في سوسيولوجيا بودون باعتباره ذات فاعلة لذلك فالفردانية المنهجية تعتبر الظواهر سواء أكانت انتظامات إحصائية أم علاقات عامة أم حقائق مفردة حاصل تجميع أفعال Actions d'agrégation ويتم في هذا الإطار ربط هذه الظواهر بمفهوم الفعل والتجميع وكل منهما تقابله مرحلة من مراحل التفسير بحسب الفردانية المنهجية، أي مرحلة فهم الأفعال من جهة والتي توفر أساساً للتفسير بإعطاء معنى لسلوكيات الأفراد الفاعلين، ومرحلة تجميع الأفعال من جهة أخرى والتي تشكل بنية التفسير، وذلك بتبيان أن الظواهر المراد تفسيرها ليست سوى نتيجة لدمج لهذه الأفعال في ما بينها. فالفعل بحسب هذا التصور يعتبر تصرفاً قصدياً، أي أنه سلوك يرمي بشكل واع ومتعمد إلى بلوغ غاية معينة، بيد أن بعض التصرفات البشرية ليست أفعالاً، ويكفي أن نذكر مثال الحركات الانعكاسية. إن مفهوم الفعل يفترض مسبقاً بأن يتمتع الفاعل بدرجة ما من الحرية في خياراته وألا تكون تصرفاته محددة بشكل وثيق بقوى نفسية أو اجتماعية لا قدرة له عليها³. وقد عمل بودون في إطار بحثه السوسيولوجي على ربط هذا المفهوم بمفهوم أثر التجميع والأثار غير المتوقعة اللذان يعتبران من المفاهيم الأساسية التي

¹ - Rymond Boudon La Logique du social : Introduction à l'analyse sociologique .op cit .P52.

² - Rymond Boudon: La place du désordre.Op cit.P65.

³ - بودون وفيول، الطرائق في علم الاجتماع، مرجع سبق ذكره، ص72.

تشتغل عليها سوسيولوجيا ريمون بودون، كما أنها مفاهيم تعتبر إضافة نوعية في مجال التحليل السوسيولوجي المعاصر. وبخصوص مفهوم "التجميع" فهو يشير ببساطة إلى عملية جمع بين الأفعال الفردية، بيد أنه توجد أفعال فردية تعتبر غاية في التركيب على اعتبار أنها تعتبر استجابة لأفعال فاعلين آخرين قد جرت أو قد تجري لاحقاً. وتكشف هذه العملية عن إمكانية لحدوث خلاف أو تباين على مستوى غايات الفاعلين ونتائج أفعالهم المجمعّة. ويمكن لهذه الأفعال في حالة اندماجها أن تؤدي إلى تأثيرات سوسيولوجية كلية لا تمثل جزءاً من غايات الفاعلين ونواياهم¹ لذلك فمن أهم المكاسب العلمية التي تحسب للفردانية المنهجية أنها عملت على دراسة الظواهر الاجتماعية، التي هي النتيجة المجمعّة لا القصدية للأفعال البشرية. وتجدر الإشارة إلى أنه يمكن أن يؤدي الدمج بين الأفعال الفردية إلى تأثيرات تجميع من أنواع مختلفة تسمى بتأثيرات التجميع المركبة، فهناك التأثيرات التركيبية و التأثيرات المنحرفة (غير المرغوبة)، تأثيرات تكميلية، تأثيرات ردود الفعل التسلسلية، التأثيرات الجمعية، وتأثيرات إعادة الإنتاج والتأثيرات التناقضية. أما بخصوص الآثار الغير المتوقعة les effets prevers فيعرفها ريمون بودون بقوله «...نستطيع القول إن هناك آثاراً غير متوقعة عندما يخلق شخصان (أو أكثر) خلال سعيهم وراء هدف معين، واقعا لا يتفونونه وقد يكون غير مرغوب فيه من وجهة نظر كل واحد منهما، أو من وجهة نظر أحدهما»² وقد قدم ريمون بودون مجموعة من الأمثلة لإزالة اللبس الذي قد يعتري هذا المفهوم في إطار التوصيف العلمي له. فالآثار الغير المتوقعة تعتبر من الظواهر الغير المتوقعة التي تحدث بشكل تلقائي نتيجة تعقد العلاقات الاجتماعية، فهي إذن نتاج مضاعف لهذه العلاقات، التي لا تقف عند حدود التعقيد بل تتجاوز ذلك إلى التعارض مع مصالح الفاعلين الاجتماعيين. وتنتج هذه الآثار عن الأفعال والسلوكيات الفردية غير المرادة حيث حصولها لم يكن نتيجة المساهمة القصدية للفاعلين. كما وظف كذلك مفهوم البروز وأثر التجميع، والمقصود بظاهرة البروز تلك الآثار التي لم يسعى الفاعل الاجتماعي إلى حدوثها ولكنها تعبر في عمقها عن كونها نتيجة لعملية الإدماج، التي تتعرض لها سلوكياتهم وأفعالهم وقد قدم بودون في هذا الإطار مثال الإشاعة في الحقل المالي وما تخلقه من آثار، مثلاً، فكلما انتشرت إشاعة حول إفلاس ممكن لمؤسسة بنكية إلا ويسرع المودعون لسحب ودائعهم، ليعلن بالفعل عن إفلاس البنك، وهو أمر يعد نتيجة لعملية لفعل تجميع سلوكيات فردية للمودعين³. وحتى يكون لإدماج وتجميع الأفعال الفردية effets d'agrégation أثر على المستوى الماكروسوسيولوجي في نشوء الظواهر الاجتماعية، فذلك يستدعي تركيز الاهتمام على هذه الأفعال الفردية بتحليلها وفهمها بدلا عن الظواهر الكلية. وقد عبر بودون عن ظاهرة البروز، بروز الآثار الغير المتوقعة بالمعادلة التالية: $M=M(m)$ ويشير الرمز $M(m)$ إلى حاصل تجميع أو إدماج السلوكات الفردية، M يشير إلى أثر التجميع و m يشير إلى الفعل الفردي. ومثلما هو ملاحظ من خلال هذه القاعدة، لا يعني أثر التجميع مجرد عملية جمع بسيطة (addition) من نوع $(A+B+C=X)$ بل تتشكل القاعدة على أساس نوع من تفاعل الأفعال الفردية الذي ينتج أثراً معيناً تتم قراءته على أساس عملية ضرب (multiplication) من نوع $((AxB) \times (AxC) \times (BxC) = X)$ وهو ما حدا ببودون إلى استعمال مفهوم أثر التكوّن (effet de composition) أحيانا كمرادف لمفهوم أثر التجميع. ومثلما يفيد مفهوم أثر التكوّن نفسه، فإننا نجد أن مجرد تغير أيّ عنصر من العناصر المساهمة في نشوئه، يغير بالضرورة هذا الأثر على النحو الذي رسم عليه بودون مفهوم أثر التجميع، حيث لاشك أن غياب أو تغير أي فعل فردي مساهم في نشوء ظاهرة معينة، يؤدي إلى تغير هذه الأخيرة أي نتيجة تجميع أفعال فردية مغايرة للأولى. وحتى تتضح أكثر معالم الآثار الغير المتوقعة فيمكن الاستناد في هذا الإطار على اشتغال ريمون بودون على الأزمة التربوية بفرنسا خلال ستينيات القرن الماضي وما واكب هذه الأزمة من اضطرابات

¹ - بودون وفيول، الطرائق في علم الاجتماع، مرجع سبق ذكره، ص 86

² - بيرأنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ت: نخله فريفر، المركز الثقافي العربي، ط: 1، 1992، ص 83.

³ - بيرأنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ت: نخله فريفر، المركز الثقافي العربي، ط: 1992، ص 82.

مجتمعية وهي أزمة كانت نتيجة للآثار الغير المتوقعة، والتي كانت بدورها نتيجة لصراع المصالح فقطاع التربية والتعليم حسب بودون هو قطاع يشبه قطاع السياسة. إنه مسرح لظهور الأزمات والصراعات الاجتماعية الناتجة عن الآثار الغير المتوقعة التي تبرزها علاقات الترابط بين الفاعلين الاجتماعيين، القائمة على سلوكياتهم وأفعالهم وليس نتيجة لعلاقات السيطرة.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أنه إذا كان الفرد والفعل كمفهومين قد أتاحا إمكانية الولوج إلى عمق السلوك الإنساني، فإن مفهومي أثر التجميع والآثار الغير المتوقعة هما اللذان يمكنان من المرور إلى جوهر الظواهر الاجتماعية كظواهر تعبر في عمقها عن الفعل الذي يقوم به أفراد متعددون. وبما أن الظاهرة وليس السلوك الفردي هي ما يتشكل أمام الباحث ويثير فريضة البحث لديه، فإن المقاربة الفردانية تنظر إلى أثر التجميع على أنه المفهوم الذي يمنح الأداة الناجحة، التي يمكن بواسطتها تبين حجم الظواهر وظروف تشكلها، ومن ثمة يسهل فهمها على اعتبار أنها في الأصل أفعال فردية تتجمع معا ومحصلة ذلك أنها تنتج أثرا ماكروسوسيولوجيا قابلا للملاحظة والفهم، على أن ذلك لا يعني أن الأفراد يتصرفون عن قصد وبشكل معين لإنتاج ظاهرة ما. فمن البديهي أن الظواهر تنشأ لذاتها ولا يمكن القول أن الأفراد يتصرفون عن قصد لإنتاج ظاهرة ما¹. لذلك فريمون بودون يعرض هذه الأفعال على أنها حاصل تجميع أفعال متعددة لمجموعة من الفاعلين، الذين يتفاعلون في ما بينهم ومع النظام فينتجون آثارا معينة. كما أنه بين بأن عملية التجميع لا تعبر في عمقها عن عملية جمع آلية لمجموعة من الأفعال، ولكن الأمر يتعلق بعملية مركبة تستدعي ضرورة الوقوف عند كيفية تشكل الظواهر انطلاقا من التوقف عند مجموع التفاعلات القائمة بين مجموع الأفراد. هذه التفاعلات التي ينتج عنها أثرا يتم التعامل معه وفق قاعدة الضرب² وهو الأمر الذي سيدفع ريمون بودون إلى توظيف مفهوم أثر التكون effet de composition كمرادف لمفهوم أثر التجميع. ويشير في هذا الإطار إلى أنه بمجرد تغير أي عنصر من العناصر المساهمة في نشوئه يتغير بالضرورة الأثر، حيث لا شك أن غياب أو تغير أي فعل فردي مساهم في تشكل ظاهرة معينة يؤدي إلى تغير هذه الأخيرة كنتيجة عملية لحاصل تجميع أفعال فردية مختلفة عن الأولى. كما أن الأفعال الفردية نفسها لا تؤدي بالضرورة إلى الظاهرة الاجتماعية نفسها. الشيء الذي يستدعي أن نأخذ بعين الاعتبار ضرورة طرق النتائج الغير المتوقعة للأفعال الإنسانية أي ضرورة فك رموز ما يسمى بآثار التشكل. فموقع الأفراد لا يحدد دائما السلوك الفردي كما بين ذلك ماركس، كما أنه لا يمكن توقع مدى تأثير البنية الاجتماعية في النظام التفاعلي بين الأفراد.

انطلاقا من هذا التصور يخلص ريمون بودون إلى إبراز الحيز الهام الذي تحتله الآثار الغير المتوقعة في حقل الواقع، الذي لا ينضبط لمختلف التوقعات ويرتبط في تشكله بما ينتج عن أفعال الأفراد الذين يتحركون وبشكل مستمر بطريقة منعزلة عن بعضهم البعض. من خلال ذلك يمكن القول بأن الظواهر الاجتماعية ووفقا للمقاربة الميتودولوجية لا تكون بالضرورة متوقعة، على اعتبار أنها نتاج أفعال فردية وجماعية غير محددة مسبقا، كما أن إمكانية التحكم فيها تبقى ضئيلة. وهو الأمر الذي يبين الحاجة لتوظيف مجموعة من المفاهيم من قبيل "الشاذ" (l'effet prevers) والمصادفة (le hasard) و أثر الانبثاق (effet émergent) في إطار التحليل السوسيولوجي، ومرد ذلك بالأساس إلى الدور الذي تلعبه في تشكل الظواهر الاجتماعية. لذلك يركز بودون في إطار طرحه السوسيولوجي على ضرورة أن تأخذ هذه المفاهيم مكانها في التحليل السوسيولوجي، الذي تعامل معها بنوع من الغموض والضبابية يقول بودون في هذا الإطار " يتم اعتبار المصادفة في العلوم الاجتماعية عموما كمال غير محدد، موجود في كل مكان ولكننا نتعسف في الغالب لإزاحته وتناسيه... إنه فقط لأننا لم نتناول كل المتغيرات المحددة لظاهرة ما نرى أنها غير محددة جزئيا. ولكن إذا كانت المواقف حول نمط وجود المصادفة متغيرة فإن هناك نقطة يمكن أن نلاحظ نوعا من شبه الاتفاق حولها في

¹ - Rymond Boudon, La Logique du social : Introduction à l'analyse sociologique . op cit .P119.

² - Rymond Boudon: La place du désordre. Op. Cit. P69.

العلوم الاجتماعية، وهو أن " المصادفة لا تمثل أي أهمية من زاوية نظر المعرفة " ¹ . إن هذا الأمر يجعلنا نتحرك ضمن مجال التناقض، بحيث نقر بوجود هذا المتغير وفي الآن ذاته لا نقر بأهميته المعرفية العلمية. فالإقرار بوجودها إذن يقتضي منا الاعتراف بقيمتها وعدم نكران أهميتها المعرفية. وعلى هذا الأساس يعتبرها بودون بحسب قوله بأنها " مادة أو متغير أو مجموعة من المتغيرات، تعبر عن بنية خصائصية structure caractéristique لمجموعة من الحلقات السببية مثلما تظهر للملاحظ " ² وهو ما يفيد بأن لها مكانة مركزية في التحليل السوسيولوجي، لذلك فهذا المتغير ينبغي إذن أن نأخذه بعين الاعتبار متجاوزين بذلك فكرة أنه لا يعدو أن يكون مجرد مفهوم فارغ سلبى.

الفردانية الميتودولوجية والعقلانية الإدراكية

لقد انتهى الباحث ريمون بودون إلى ضرورة ربط منطق التحليل الفردي بما أسماه "العقلانية الإدراكية"، باعتبارها أحد مراكز الاهتمام في علم الاجتماع، نظرا للدور الذي تمارسه حيال الأفعال. إن العقلانية الإدراكية نظرية تهتم بالمعتقدات وذلك من أجل إتمام الفردانية المنهجية، فلما كانت الأفعال تستند إلى معتقدات، كان ضروريا صوغ هذه النظرية. إن العقلانية الإدراكية تقوم على مسلمة الفهم بالمعنى الفيبري للكلمة، أي إيجاد الأسباب التي من شأنها تفسير هذه المعتقدات. ففي نظر ماكس فيبر يجب تقويم نوعية الأسباب ليس من وجهة نظر عالم الاجتماع أو الباحث بل من وجهة نظر الأفراد أنفسهم. من هنا يمكن القول بأن النتائج المهمة للعقلانية الإدراكية هي إمكان أن تكون لنا أسباب وجهة للإيمان بأفكار خاطئة. لذلك فمسلمة الإدراك و الأسباب الوجيهة تسمحان بتوسيع مجال العقلانية.

إن المعتقدات بأنواعها المختلفة العادية والإيديولوجية والأخلاقية والعلمية من المواضيع، التي تحضا باهتمام علم الاجتماع، وذلك نظرا للدور الذي تلعبه في الحياة الاجتماعية، وعلاقة ذلك بالفعل الاجتماعي الذي يستند إلى المعتقدات. لذلك نجد أن الفردانية المنهجية قد ركزت في دراستها على أفراد نظرية خاصة بالمعتقدات تحت مسمى العقلانية الإدراكية (بالفرنسية cognitive) وهي صفة جاءت من الفعل الفرنسي connaitre الذي يعني عرف وأدرك) وهي طريقة تقوم على مسلمة الفهم. فتفسير قاعدة ما يعني فهمها أي البحث عن الأسباب الخارجية أو الضمنية التي دفعت الفاعل إلى اعتناقها، وبالتالي العمل على إعادة بناء وصياغة الدوافع التي استطاعت إقناع فرد ما بتبني المعتقد الذي هو موضوع الحديث. وقد ميز بودون وفيول في هذا الإطار بين المعتقدات الإيجابية والمعتقدات المعيارية. فيما يخص المعتقدات الإيجابية فهي تخص المعتقدات الإيجابية فهي تخص نصوصا حديثة، أي تلك التي تتعلق بمعيار الصحيح والخطأ، والأفراد الذين يتبنون هذا النوع من المعتقدات إنما يفعلون ذلك استنادا إلى محاكمات عقلية مفهومة. وتجدر الإشارة إلى أنه، ووفقا لنموذج سيميل، قد يؤدي استدلال أو محاكمة عقلية غير مناسبة إلى اعتناق معتقدات خاطئة، كما يمكن أن توصلنا إلى ذلك محاكمة عقلية صحيحة لكنها تستند إلى معطيات خاطئة، الشيء الذي ينتج عنه أن الأفراد قد يعتقدون بأفكار خاطئة ولكن لأسباب وجيهة. إن مصدر المعتقدات الخاطئة وفقا لنموذج سيميل يقع في قناعات ما وراء الشعور، أما بخصوص المعتقدات المعيارية، فهي أحكام تقويمية تطلق على مؤسسات أو تصرفات أو مواقف. ويصدر الفاعل الاجتماعي هذه الأحكام التقويمية في ظروف مختلفة من حياتهم اليومية، وهم مستعدون للدفاع عنها بحجج مختلفة. وتتلخص الطريقة العقلانية في إيجاد الأسباب التي دعت الأفراد إلى اعتناق هذا النوع من المعتقدات، وبيان الأسباب المفسرة لوجهات نظرهم. وقد ميز بودون في هذا الإطار ما بين التفسير الذي يقوم على عقلانية أخلاقية وهو تفسير يعنى بمقاربة موضوعية القيم والمعرفة في ضوء العرض المجمل للعواطف الأخلاقية، وما يرافقها من استدلال أخلاقي، وتفسير نفعي بحيث يلجأ إليه الفاعلون الاجتماعيون لتبرير معتقداتهم

¹ - Rymond Boudon: La place du désordre.Op. Cit. P184

² - Rymond Boudon: La place du désordre.Op. Cit. P119.

المعيارية، بناء على أسباب ذات طبيعة نفعية، كالحكم على مؤسسة بأنها جيدة إذا كانت تسهم في تشغيل النظام الاجتماعي، وبأنها سيئة إذا كانت تسبب الضرر له¹

إن هذا من النمط من التحليل العقلاني بحسب التصور البودوني يجب ألا ينظر إليه كإقرار انطولوجي بل كمبدأ منهجي، يسمح لنا بمقاربة سلوك الفاعل وتحديد النخبة السياسية والإدارية. فالبحث في العقلانية التي تحكم سلوك النخبة المحلية، إنما يعني البحث في الأسباب التي تحكم السلوك، ومن تم إدراكه في كل الحالات التي بإمكاننا وفقها إقامة تفسير على النحو الآتي: "إذا قام الفاعل (x) بسلوك معين بالطريقة (y) ويكون هذا السلوك قابلاً للفهم (compréhensible) فإن هذا الفاعل (x) كانت له في وضعيته تلك، أسباب معقولة للقيام بالفعل (Y). وتجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من الأهمية المسندة لمقولة العقلانية في هذا الطرح، فإن بودون لم يجعلها خاصة أساسية للفاعل، بل إن القسم الأكبر من الأفعال إنما تنبئ على غير هذا الأساس، رغم ما يبدي أصحابها من عقلانية وتخطيط. إن احترام الفاعل للعادات مثلاً من قبيل الاحترام غير المشروط أي الميكانيكي (كما في السوسولوجيا الكليانية)، يرجع بالأساس إلى تطابق أو تعارض مع معطيات الوضعية تلك، أي لأنها عقلانية من وجهة نظر الفاعل. فالفاعل كما بين ذلك بودون يعمل على بلوغ الغاية المختارة، أي تلك التي توفر له بحسب اعتقاده، أعلى مستوى من الرضا أو الفائدة باستخدام قدراته على أفضل وجه لتحقيق مصالحه الشخصية². ونوضح في الإطار بأن هذه المصالح الشخصية لا تعني بالضرورة مصالح أنانية، إذ أن الفاعل السياسي والاقتصادي والاجتماعي قد يختار أن يكرس وقته وقدراته لخدمة ومساعدة الآخرين ومن تم المشاركة الإيجابية. وهذا ما يسميه بودون وفيول بالعقلانية النفعية *rationnalité instrumentale*، وهي عقلانية لا يمكن أن نمثلها بالعقلانية الكاملة، وإنما هي بحسب ه سيمون³ عقلانية محددة، على اعتبار أن المعلومات التي يمكن أن يستند عليها في اتخاذ القرار يمكن أن تكون ناقصة أو مغلوبة أو الوقت المتاح للعمل قصير، مما يمنع الفاعل من أن ينظر في الأفعال الممكنة كافة وحتى في فحص النتائج المتوقعة، من وراء فعل ينوي القيام به⁴. ومن البديهي أن يكون كل فعل مستند إلى معتقدات خاطئة أو معلومات مغلوبة غير فعال ولا يمكنه أن يوصل صاحبه إلى الغاية المرجوة، لذلك فإذا أخطأ الفاعل هدفه فقد يرجع ذلك إلى حقيقة أن معتقداته بشأن العلاقات السببية مغلوبة. ولتبسيط أكثر للفكرة لقد عمل بودون على فصل نظرية الفعل عن نظرية المعتقدات. فالنظرية الأولى توفر لعالم الاجتماع التعليمات الضرورية لمقاربة مرحلة الفهم أو إدراك الفردانية المنهجية⁵. وتقوم هذه الطريقة الإدراكية على الفرضية القائلة بأن الأفعال مفهومة كلياً وتدرج عقلياً، بحيث يستطيع العالم من خلال حصوله على معلومات كافية أن يضع نفسه مكان الفاعل ليفهم أفعاله أياً كانت.

عموماً نخلص من خلال كل ذلك إلى أن المنهجية الفردانية كموقف نظري تستند في عمقها على مبدأ التساؤل حول اختيارات الفاعلين أو الأفراد المعنيين، والتي تترجم من خلال سلوكات وقرارات قابلة للدراسة والتحليل السوسولوجي. وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أن المنهجية الفردانية لا تقف عند حدود الوصف والتحليل السببي للظواهر، بل تعدت ذلك إلى حدود الموازنة الذكية ما بين الفهم والتفسير، وذلك لأجل الفهم العميق للظواهر وكذلك صياغة تفسيرات حقيقية للظواهر وذلك جوهر

1 - بودون وفيول، الطرائق في علم الاجتماع، مرجع سبق ذكره، ص 145.

2 - ل، فون ميزس، الفعل الإنساني دراسة في الاقتصاد، باريس، مطبوعات PUF، 1985، ص 13-33.

3 - هيربرت سيمون، نماذج من العقلانية المحددة، المجلد الثاني: سلوكيات الاقتصاد وتنظيم العمل كامبريدج، MIT Press، 1982، ص 103.

4 - نفس المرجع ص 74.

5 - ماكس فيبر، الاقتصاد والمجتمع الجزء الأول: أنواع علم الاجتماع، باريس دار النشر (بولون) مجموعة أغورا، 1995، ص 28-52.

التحليل الفعلاني. ويبين في هذا الإطار كل من ريمون بودون ورينو فيول في كتابهما الطرائق في علم الاجتماع بأنه إذا كان الفاعل الاجتماعي يعتبر اللبنة الأساس في التحليل السوسيولوجي، فذلك لا يعني أن الفرد عبارة عن قطعة ذرية تتخذ قراراتها بمعزل عن الجماعة المنتمية لها، وإنما هو فاعل اجتماعي كباقي الفاعلين، كما أنه لا يتمتع بالاستقلالية عن الجماعة التي هو عضو فيها، بحيث يتفاعل ويتخذ قراراته داخلها. هذا الأمر يوضح كيف أن المنهجية الفردانية قد حصرت مجال اهتمامها في البحث عن الدوافع والأسباب الكامنة وراء اختيارات هؤلاء الفاعلين، انطلاقاً من الحركية الاجتماعية والمواقع التي يحتلونها، وذلك لمعرفة مدى الأثر الذي تركه الأفعال على البنية الاجتماعية والظواهر الاجتماعية، التي تنبني على هذه السلوكيات والأفعال الفردية. لذلك ففهم سلوكيات الأفراد يعني قطعاً فهم خفايا الظاهرة الاجتماعية والآليات المتحكمة فيها وذلك بالتركيز على خصائص الأفراد التي تسمح بإمكانية تفسير هذه الظواهر. ولعل من بين المكاسب التي حققتها الفردانية المنهجية هو إسهامها في هذا الإطار في الربط ما بين الظواهر والأفعال الفردية على اعتبار أن هذه الظواهر هي النتيجة المجمعلة لا القصدية للأفعال البشرية فردية كانت أو جماعية.

قائمة المراجع:

- 1- اميل دوركايم، التربية والمجتمع، ترجمة علي وطفة، دارمعد، 1990.
- بير أنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ت: نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، ط: 1992، 1.
- 2- ريمون بودون وفيول، الطرائق في علم الاجتماع، ترجمة مروان بطش، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2010.
- 3- ل، فون ميزس، الفعل الإنساني دراسة في الاقتصاد، باريس، مطبوعات PUF، 1985.
- 4- ماكس فيبر، الاقتصاد والمجتمع الجزء الأول: أنواع علم الاجتماع، باريس دار النشر (بولون) مجموعة أغورا، 1995.
- 5- هيربرت سيمون، نماذج من العقلانية المحددة، المجلد الثاني: سلوكيات الاقتصاد وتنظيم العمل كامبريدج، MIT Press، 1982.
- 6- Charles Taylor , Les malaises de la modernité, C. E. R.F, Paris, 1999.
- 7- Rymond Boudon : Individualisme et holisme en sciences sociales. Dans : Pièrre Birnbaum et jean leca(S /D) : Sur Individualisme . Ed. Paris.1991.
- 8- Rymond Boudon : Traité de sociologie. PUF. Paris. 1992 . P22.
- 9- Rymond Boudon : La place du désordre. Quadridge , PUF.Paris.1984.P66.
- 10- Rymond Boudon La Logique du social : Introduction à l analyse sociologique . 3^{ème} édition. Hachette /Pluriel. Paris 1997.
- 11- Rymond Boudon La Logique du social : Introduction à l analyse sociologique . 3^{ème} édition. Hachette /Pluriel. Paris 1997.
- 12- Raymond Boudon et François Bourricaud : Dictionnaire critique de la sociologie. 2^{ème} édition. PUF, 1986.

تقويم درجة ممارسة مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص لمهامهم الإدارية والفنية بمحلية أم درمان د. الزين الخليفة الخضر الخليفة/جامعة الخرطوم، السودان

ملخص :

هدف البحث إلى التعرف على درجة ممارسة مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص لمهامهم الإدارية والفنية قبل بداية العام الدراسي وأثناء العام وفي نهايته بمحلية أم درمان. استخدم الباحث المنهج الوصفي وقد تكون مجتمع الدراسة من 721 معلم ومعلمة يعملون بمدارس الأساس الخاصة بمحلية أم درمان. اختار الباحث عينة عشوائية بسيطة بلغت 100 معلماً ومعلمة. استخدم الباحث الاستبانة كأداة رئيسة لجمع البيانات المطلوبة، وجهت الاستبانة إلى كل أفراد العينة من المعلمين. ولتحليل البيانات إحصائياً استخدم الباحث برنامج الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية SPSS. توصل البحث إلى نتائج عديدة أهمها: ممارسة مديري المدارس لمهامهم الإدارية والفنية جاءت بدرجة كبيرة، معظم مديري المدارس يهتمون بالمهام الفنية أكثر من اهتمامهم بالمهام الإدارية، اهتمام مديري المدارس بالعمل في نهاية العام الدراسي أقل منه في بداية العام. وفي ضوء هذه النتائج خلص البحث إلى عدة توصيات منها: يجب على مديري المدارس إعطاء المهام الإدارية مزيد من الاهتمام أسوة بالمهام الفنية، يجب على مديري المدارس الاهتمام بتجويد العمل في نهاية العام الدراسي.

الكلمات المفتاحية: التعليم الخاص / المهام الإدارية / المهام الفنية.

Abstract:

The research aimed at identifying the degree of basic schools principals' practice of private education for their administrative and technical tasks before the beginning of the academic year and during the year and at the end of the Omdurman locality. The researcher used the descriptive approach. The population included 721 male and female teachers working in the basic schools of the Omdurman locality. The researcher selected a simple random sample of 100 male and female teachers. The researcher used the questionnaire as the main tool for collecting the required data. The questionnaire was sent to all the sample members of the teachers. To analyze the data statistically, the researcher used the SPSS program. The research found many results. The most important of these is the fact that school principals exercised their administrative and technical duties largely. Most school principals are more concerned with technical tasks than with administrative tasks. The principals are interested in working at the end of the school year less than at the beginning of the year. In light of these findings, the research concluded with several recommendations, including: School principals should give administrative tasks more attention As with technical tasks, school principals should pay attention to improving work at the end of the school year.

Keyword: Private Education / Administrative Tasks / Technical Tasks.

مقدمة:

تعتبر الإدارة بصفة عامة مرآة تعكس حياة المجتمع الموجودة فيه، فهي العملية التي نستخدمها في إدارة العمل سواء في المدرسة أو المصنع أو غيرهما، ومن خصائص الإدارة أنها تتشكل تبعاً للإطار الذي يعيش فيه المجتمع بنظمه وقوانينه ومدى التقدم الحضاري الذي يعايشه، فالإدارة ترجمة للأفكار والنظريات والفلسفات إلى واقع.

والمدرسة - كنموذج إداري - هي الوعاء الذي تنمو بداخله سواعد التنمية التي تضطلع بالأدوار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتتوقف قدرة المدرسة على أداء رسالتها على جودة الإدارة المدرسية التي من خلالها يمكن السيطرة على عملية التعليم والتعلم وتنظيمها وتوجيهها وتقويمها، فإذا كانت هذه الإدارة بالية أو عتيقة أو فاسدة أو معطلة فإنها تؤثر في نوعية مخرجات هذه المؤسسة من الطلاب، فبقدر أهمية التعليم ذاته تكون أهمية إدارته.¹

تمثل الإدارة المدرسية عنصراً مهماً من عناصر العملية التربوية والتعليمية على مستوى المدرسة فهي التي تعمل على تفعيل بقية العناصر الأخرى وتنشيطها، وهي تتغلغل في جميع أوجه النشاط التعليمي داخل المدرسة وخارجها تحت إشرافها، فالإدارة التعليمية هي الوحدة القائمة بتنفيذ السياسة التعليمية والتربوية - إجرائياً وعملياً - وفق الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة، وهي التي تخطط وتنظم للعملية التربوية والتعليمية وتشرف عليها وتتابعها وتقيم نتائجها وتستفيد من التغذية الراجعة في تحديث المدخلات وتفعيل العمليات واتخاذ القرارات والإجراءات المناسبة لعلاج جوانب القصور في العملية الإدارية مما يساعد على تحسين النتائج التربوية والتعليمية للمدرسة.²

تعتبر الإدارة المدرسية فرع من فروع الإدارة التعليمية تهدف إلى تنظيم الأعمال المختلفة التي يمارسها عدد من العاملين في المدرسة من أجل تحقيق هدف معين، بأقل جهد، وأسرع وقت، وأفضل نتيجة، والإدارة المدرسية الواعية تهدف إلى تحسين العملية التعليمية التربوية والارتقاء بمستوى الأداء وذلك عن طريق توعية وتبصير العاملين في المدرسة بمسؤولياتهم وتوجيههم التوجيه التربوي السليم.³

مشكلة البحث:

نبعت مشكلة البحث من خلال الدور الكبير الذي تؤديه الإدارة المدرسية في تنظيم وتوجيه وتسيير العمل داخل المدرسة من أجل تجويد العمل والحصول على أفضل النتائج في نهاية العام الدراسي، وتعتبر مدارس الأساس أكثر حاجة لمديرين أكفاء وأصحاب مهارات وخبرات في العمل الإداري نسبة لصغر سن التلاميذ وميولهم الكبيرة نحو اللهو والشغب مما يتطلب فرض نوع خاص من الضبط والرقابة عليهم من قبل المديرين.

عليه يطرح الباحث السؤال الرئيس الآتي:

ما درجة ممارسة مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص لمهامهم الإدارية والفنية بمحلية أم درمان؟

1 - خالد بن عبد الله بن دهاش، "الإدارة والتخطيط التربوي"، دار الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، 2005م.

2 - صلاح عبد الحميد مصطفى، "الإدارة المدرسية الحديثة - المفاهيم والتطبيقات"، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2011م.

3 - جودت عزت عطوي، "الإدارة المدرسية الحديثة"، دار الثقافة، الطبعة الثامنة، عمان، الأردن، 2014م.

أسئلة البحث:

- 1/ ما درجة ممارسة مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص لمهامهم الإدارية والفنية قبل بداية العام الدراسي بمحلية أم درمان؟
- 2/ إلى أي مدى يهتم مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص بممارسة مهامهم الإدارية والفنية أثناء العام الدراسي بمحلية أم درمان؟
- 3/ ما درجة ممارسة مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص لمهامهم الإدارية والفنية في نهاية العام الدراسي بمحلية أم درمان؟

أهداف البحث:

- 1/ التعرف على درجة ممارسة مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص لمهامهم الإدارية والفنية قبل بداية العام الدراسي بمحلية أم درمان.
- 2/ التعرف على درجة ممارسة مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص لمهامهم الإدارية والفنية أثناء العام الدراسي بمحلية أم درمان.
- 3/ التعرف على درجة ممارسة مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص لمهامهم الإدارية والفنية في نهاية العام الدراسي بمحلية أم درمان.

أهمية البحث:

- 1/ تمليك المسؤولين عن أمر التعليم الخاص بمحلية أم درمان أهم نقاط القوة والضعف لدى مديري مدارس الأساس بالمحلية.
- 2/ قد يشجع القائمين على أمر التعليم بالمحلية والولاية بصورة عامة على الاهتمام بتدريب المديرين وتمليكهم المهارات الإدارية والفنية اللازمة.
- 3/ يمكن أن يفيد الباحثين من طلاب الدراسات العليا وكذلك أساتذة الإدارة التربوية بالجامعات في الحصول على بعض المعلومات المهمة.

حدود البحث:

- 1/ الحدود البشرية: مديري ومديرات مدارس الأساس للتعليم الخاص بوحدة أبو سعد الإدارية بمحلية أم درمان.
- 2/ الحدود المكانية: وحدة أبو سعد الإدارية بمحلية أم درمان – ولاية الخرطوم.
- 3/ الحدود الزمانية: العام الدراسي 2019م.

مصطلحات البحث:

1/ مدير المدرسة:

هو الشخص الذي توكل إليه مهمة إدارة العمل داخل المدرسة من تخطيط وتنظيم وتوجيه ورقابة، ويقصد به الباحث هنا (مدير مدرسة الأساس للتعليم الخاص بوحدة أبو سعد الإدارية بمحلية أم درمان).

2/ مدرسة الأساس:

هي المرحلة الأولى من التعليم العام بالسودان حيث تتكون من ثمانية فصول، ويقصد بها الباحث هنا (مدارس الأساس للتعليم الخاص بوحدة أبو سعد الإدارية بمحلية أم درمان).

3/ التعليم الخاص:

هو أي مؤسسة تعليمية غير حكومية مرخصة من وزارة التربية والتعليم، يؤسسها أو يديرها أو ينفق عليها فرداً أو أفراد أو جمعيات، وتقوم بتدريس المنهج المدرسي المتبع في المدارس الحكومية.¹

4/ المهام الإدارية والفنية:

هي كل ما يقوم به المدير من عمل داخل المدرسة، ويقصد بها الباحث هنا (كل ما يقوم به المدير من عمل قبل بداية العام الدراسي وأثناء العام الدراسي وفي نهايته).

الإطار النظري :

أولاً: مدخل عام عن الإدارة المدرسية:

تعريف الإدارة المدرسية:

للإدارة المدرسية عدة تعريفات يمكن ذكر بعضها كما جاء في كتابات كبار التربويين العرب كما يلي:²

1/ أحمد إبراهيم أحمد:

هي الجهود المنسقة التي يقوم بها فريق من العاملين في الحقل التعليمي "المدرسة" إدرين وفنيين بغية تحقيق الأهداف التربوية داخل المدرسة تحقيقاً يتماشى مع ما تهدف إليه الدولة من تربية أبناءها تربية صحيحة على أسس سليمة.

2/ إبراهيم عصمت مطاوع:

هي الوحدة القائمة بتنفيذ السياسة التعليمية ويقوم على رأسها ناظر أو مدير مسؤوليته الرئيسة هي توجيه المدرسة نحو أداء رسالتها وتنفيذ اللوائح والقوانين التعليمية التي تصدر من الوزارة.

3/ عرفات عبد العزيز:

هي الكيفية التي يدار بها النظام المدرسي حتى يمكن تحقيق أهدافه من أجل إعداد أجيال ناشئة نافعة لأنفسها ومجتمعها.

1- ناجي حسين ناجي الشريف، "مدى ممارسة مديري مدارس التعليم العام بمنطقة نجران للكفايات الإدارية والفنية في مجال الإدارة المدرسية"، مجلة جامعة طيبة للعلوم التربوية، المجلد 10، العدد 2، ص 159 - 177، 2015م.

2- أحمد إبراهيم أحمد، "الإدارة المدرسية في الألفية الثالثة"، مكتبة المعارف الحديثة، الإسكندرية، مصر، 2006م.

4/ محمد منير مرسي:

هي كل نشاط منظم مقصود وهادف تتحقق من ورائه الأهداف التربوية المنشودة من المدرسة، والإدارة المدرسية ليست غاية في حد ذاتها وإنما وسيلة لتحقيق الأهداف العلمية التعليمية.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الإدارة المدرسية لها أهميتها لكل تلميذ أو طالب في المدرسة لأنها تعمل على تحقيق الأهداف التربوية والتعليمية التي يتطلع إليها المجتمع ويراقبها بدقة، هذا بجانب الكثير من الاتجاهات الحديثة في التربية التي تعمل الإدارة المدرسية الحديثة على غرسها في نفوس الصغار داخل المدرسة.

أهمية الإدارة المدرسية:

تعتبر الإدارة المدرسية عنصر مهم من عناصر العملية، حيث تعمل على حفز عناصر العملية التربوية المادية والبشرية وتنشيطها، وتكمن أهميتها فيما يلي:¹

1/ الإدارة المدرسية ضرورية لكل مرحلة تعليمية.

2/ الاستخدام الأمثل للموارد البشرية والمادية.

3/ الإشباع الكامل للحاجات والرغبات.

4/ تسيير شؤون المدرسة.

5/ توفير الظروف الملائمة لنجاح العمل والإبداع.

أهداف الإدارة المدرسية:

تسعى الإدارة المدرسية إلى تحقيق الأسس العامة للتعليم وغايته وأهدافه المتمثلة فيما يلي:²

1/ بناء شخصية الطالب بناءً متكاملًا علمياً وجسدياً واجتماعياً ونفسياً.

2/ تنظيم وتنسيق الأعمال الفنية والإدارية في المدرسة بقصد تحسين العلاقات بين العاملين في المدرسة.

3/ تطبيق ومراعاة ومراقبة الأنظمة والقوانين التي تصدر من الإدارات العليا المسئولة عن التعليم، ووضع خطط التطور والنمو اللازم للمدرسة في المستقبل.

4/ الإشراف التام على تنفيذ مشاريع المدرسة حاضراً ومستقبلاً والعمل على إيجاد العلاقات الحسنة بين المدرسة والبيئة الخارجية.

5/ تهيئة الجو المناسب في المدرسة والبيئة المحيطة مع التعاون في حل المشكلات.

6/ التخطيط والتنفيذ والإشراف والتقييم والتوجيه والإرشاد والمراقبة والمتابعة والتطوير لكل ما يحدث داخل المدرسة وخارجها.

1- عماد محمد عطية، "الإدارة المدرسية حاضرها ومستقبلها"، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2010م.

2- نبيل سعد خليل، "الإدارة المدرسية الحديثة في ضوء الفكر الإداري المعاصر"، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2009م.

خصائص الإدارة المدرسية:

لكي تنجح الإدارة المدرسية في عملها ينبغي أن تتصف بالخصائص والصفات الآتية:¹

1/ أن تكون المدرسة صورة مصغرة للحياة الاجتماعية الراقية، يدرّب التلاميذ فيها على تحقيق العبودية لله، وحب الوطن، وعلى التعاون الاجتماعي للمصلحة العامة.

2/ وضوح الأهداف التي تسعى الإدارة المدرسية لتحقيقها.

3/ التحديد الواضح للمسؤوليات، لتحقيق الكفاية والسرعة في تحقيق الأهداف.

4/ أن يلقى فيها الطالب الفرصة المواتية لتنمية مواهبه وميوله وتوجيهه إلى الدراسات والمهن المناسبة له، وتعنى بفرديته بين الطلاب.

5/ تسخير جميع الإمكانيات لخدمة العملية التربوية.

6/ وجود نظام جيد للاتصال داخل المدرسة وخارجها.

7/ أن تنمي عند المعلم صفات المواطن الصالح والمسلم الواعي ليقوم بواجبه ابتغاء لمرضاة الله.

8/ أن يسود المدرسة مبدأ الشورى.

9/ أن تكون المدرسة وثيقة الصلة بالمنزل، قوية الاتصال بالمجتمع والأحداث الجارية.

10/ تشاركية المسؤولية، فالقائد ليس المسئول الوحيد بل الكل مسئول.

11/ أن تكون المدرسة قدوة حسنة في القول والعمل والسلوك الإسلامي.

12/ تفويض السلطات والصلاحيات.

ثانياً: مدير المدرسة:

مدير المدرسة هو المسؤول الأول عن حسن سير العمل في مدرسته التي تشكل الوحدة التعليمية في النظام التعليمي، وبشخصيته واستعداداته وقدراته يستطيع مواجهة المشكلات التي تعترض العمل المدرسي ما دامت أهداف المدرسة ماثلة أمامه وما دام يأمل في تحقيق الأهداف التربوية المسؤولة عنها مدرسته، ويستطيع مدير المدرسة أن يبث روح العمل والنشاط في مدرسيه وتلاميذه ويكون رأياً عاماً مستنيراً يدعم الحياة الاجتماعية التي تشمل كل أسرة المدرسة وبيئتها، وكل ذلك يتوقف بالدرجة الأولى على اتجاهاته وشخصيته وإدراكه للأهداف البعيدة والقريبة التي يحققها التعليم لمجتمعه.²

ورجل الإدارة المدرسية لا يمكنه العمل في المدرسة دون أن يكون لديه إطلاع وإلمام واسع بنظريات الإدارة بصفة عامة والإدارة المدرسية بصفة خاصة، وكذلك الإطلاع على مختلف نظريات وفلسفات التربية للأمة التي ينتهي إليها مما يهيئ لمدير المدرسة الفرصة

¹- عباس بلة محمد أحمد، "مبادئ الإدارة المدرسية، وظائفها - مجالاتها - مهاراتها - تطبيقاتها"، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2010م.

²- صلاح عبد الحميد مصطفى، "الإدارة المدرسية الحديثة - المفاهيم والتطبيقات"، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2011م.

لبناء خلفية نظرية أو فلسفة نظرية إدارية خاصة به على الأقل تبين له المدى والمجال والطريقة التي يتعامل بها مع المدرسين والطلاب والآباء والعاملين والمجتمع المحلي، الأمر الذي يزيد بعد نظره ويساعده على التفهم العميق للسلوك الإنساني ودوافعه وحاجات الأفراد واختلافها وكيفية إشباعها، بطريقة تحقق هدف المدرسة وهدف الأفراد في وقت واحد في توازن واعتدال.¹

السمات الشخصية لمدير المدرسة الناجح:

لمدير المدرسة الناجح عدة سمات وخصائص تميزه عن غيره من المديرين يمكن تلخيص أهمها فيما يلي:²

1/ أن يؤمن بعمله وأن يكون راغباً فيه ومؤهلاً له.

2/ أن يكون قدوة حسنة في مظهره وسلوكه العام.

3/ أن يطلع باستمرار على ما يستجد في مجال عمله.

4/ الدقة والأمانة والتزاهة.

5/ تقبل النقد بصدر رحب.

6/ أن يعتمد أسلوب المشاركة في العمل.

7/ الصبر والتأني في معالجة المشكلات المتعلقة بالمدرسة.

8/ عادل وموضوعي.

9/ واثق من نفسه.

10/ القدرة على اتخاذ القرار.

11/ الحزم والجدية وعدم التهاون مع المسيئين.

12/ الاتزان الشخصي والانفعالي والقدرة على ضبط الذات.

خصائص مدير المدرسة الناجح:

لكي يتمكن مدير المدرسة من القيام بواجباته ومسئولياته لا بد من توافر الكثير من الخصائص والسمات الشخصية لديه، علماً بأن توافر هذه الخصائص لا يتم مصادفة ولا يحدث بسهولة، بل يحتاج إلى تدريب وتعلم مستمرين وخبرات عملية وصفات شخصية، ومن هذه الخصائص ما يلي:³

1/ التعرف على المناهج الدراسية من حيث أهدافها وأساليبها وأنشطتها وطرق تقويمها.

2/ التعرف على مستوى المعلمين وإمكاناتهم التربوية والتعليمية.

¹- عبد الفتاح محمد الخوجا، "تطوير الإدارة المدرسية والقيادة الإدارية"، دار الثقافة، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، 2009م.

²- جودت عزت عطوي، "الإدارة المدرسية الحديثة"، دار الثقافة، الطبعة الثامنة، عمان، الأردن، 2014م.

³- عبد الفتاح محمد الخوجا، "تطوير الإدارة المدرسية والقيادة الإدارية"، دار الثقافة، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، 2009م.

3/ التعاون مع المشرفين التربويين في المدرسة.

4/ إعداد الخطة الإدارية السنوية للمدرسة.

5/ الإطلاع على التشريعات التربوية المدرسية وتنفيذها.

6/ إدارة الشؤون المالية للمدرسة وإعداد موازنتها.

7/ متابعة دوام العاملين بالمدرسة.

8/ عقد اجتماعات دورية مع كل العاملين بالمدرسة.

9/ التعرف على حاجات المتعلمين ومشكلاتهم الأكاديمية والاجتماعية.

10/ التعرف على الحالة الصحية للمتعلمين.

11/ تنمية العلاقات الإنسانية بين المعلمين والمتعلمين وبين المتعلمين مع بعضهم البعض.

12/ الحرص على حضور الطابور الصباحي وتدوين الملاحظات.

13/ الإشراف على قبول المتعلمين وإعداد الشعب وتوزيع الفصول داخل المدرسة.

14/ المساهمة في النشاط الثقافي والاجتماعي والرياضي بالمدرسة.

15/ المشاركة في الرحلات العلمية والترفيهية.

مسؤوليات (مهام) مدير المدرسة:

يعتبر مدير المدرسة مسؤولاً عن عدة أعمال فنية وإدارية ومالية وأمنية، وهي أعمال ليست بالسهلة والبسيطة ولكنها عمليات ديناميكية متشابكة ينبغي الحرص على التنسيق بينها، ويمكن تحديد بعض هذه المسؤوليات في الجوانب التالية:

أولاً: المسؤوليات الفنية:

تركز هذه المسؤوليات حول كل ما من شأنه تحسين العملية التربوية والارتقاء بمستواها، ومن أبرز هذه المسؤوليات ما يلي:¹

1/ وضع الخطة السنوية للمدرسة.

2/ توفير أكبر عدد من الخدمات التربوية الاجتماعية والنفسية لطلاب المدرسة.

3/ زيارة الفصول الدراسية بهدف تقويم المعلمين والطلاب.

4/ تخطيط وتنظيم الاختبارات المدرسية والإشراف على تنفيذها وفق اللوائح المنظمة لذلك ودراسة نتائجها بغرض الاستفادة منها، مع إرسال تقارير لأولياء الأمور عن نتائج التحصيل الدراسي لأبنائهم.

5/ تقديم التقارير الفنية والإدارية إلى السلطات العليا للتعليم في المناطق التعليمية.

¹- صلاح عبد الحميد مصطفى وفدوى فاروق، "مقدمة في الإدارة والتخطيط التربوي"، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2003م.

- 6/ تقويم الأداء الوظيفي للعاملين بالمدرسة وفقاً للتعليمات المنظمة لذلك.
- 7/ تفعيل المجالس واللجان المدرسية وتنظيم الاجتماعات مع هيئة العاملين بالمدرسة لمناقشة الجوانب الإدارية والتنظيمية.
- 8/ تهيئة وكيل المدرسة للقيام بعمل مدير المدرسة عند الحاجة.
- 9/ مساعدة المعلمين الجدد وتقديم العناية الخاصة بهم وتزويدهم بالتعاميم والقرارات واللوائح والتعليمات المنظمة للعمل المدرسي.
- 10/ التعاون مع المشرفين التربويين وغيرهم ممن تقتضي طبيعة عملهم زيارة المدرسة وتسهيل مهماتهم ومتابعة تنفيذ توجيهاتهم وتوصياتهم والمبادرة في دعوة المشرف التربوي المختص عند الحاجة.
- ثانياً: المسؤوليات الإدارية والمالية:
- هنالك مسؤوليات إدارية عديدة يتوجب على مدير المدرسة القيام بها، ويمكن حصر بعضها فيما يلي:¹
- 1/ تنفيذ القوانين والنظم واللوائح والتعاميم التي تصدرها الوزارة.
- 2/ قبول الطلاب الجدد والمحولين من مدارس أخرى وإعادة قيدهم في حدود اللوائح والتعليمات المنظمة لذلك.
- 3/ توزيع الطلاب على الفصول الدراسية في بداية كل عام دراسي.
- 4/ توزيع أعمال المدرسة خلال العطلة الصيفية على وكلاء المدرسة ومدرسيها.
- 5/ تفقد منشآت المدرسة وتجهيزاتها والتأكد من نظافتها وسلامتها وحسن مظهرها.
- 6/ إطلاع أعضاء هيئة التدريس والإداريين على التعاميم والتوجيهات واللوائح الصادرة من السلطات التعليمية الأعلى ومناقشتها معهم لتفهم مضامينها والعمل بموجبها.
- 7/ الإلمام الكامل بأهداف المرحلة الدراسية التي يعمل فيها وفقاً لما جاء في سياسة التعليم، والتعرف على خصائص الطلاب في هذه المرحلة.
- 8/ اعتماد الوثائق والشهادات الصادرة عن المدرسة.
- 9/ تكوين اللجان الخاصة بشؤون التوريدات والعهد.
- 10/ إعداد الجدول قبل بداية العام الدراسي وتوزيع الإشراف اليومي على معلمي المدرسة.
- 11/ حصر احتياجات المدرسة من قوى بشرية ومادية، ورفعها للإدارة التعليمية.
- 12/ وضع نظام جيد للسجلات المدرسية.

1- صلاح عبد الحميد مصطفى وفدوى فاروق، "مقدمة في الإدارة والتخطيط التربوي"، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2003م.

الإجراءات الميدانية للبحث:

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الوصفي لإجراء البحث.

مجتمع البحث:

تكون مجتمع البحث من معلمي ومعلمات مدارس الأساس للتعليم الخاص بوحدة أبو سعد الإدارية بمحلية أم درمان والبالغ عددهم حوالي 721 معلماً ومعلمة.

عينة البحث:

تم اختيار عينة عشوائية بسيطة من مجتمع البحث بلغ عددها 100 معلماً ومعلمة يعملون بوحدة أبو سعد الإدارية.

وصف العينة:

جدول (1): توزيع أفراد العينة حسب متغيرات الدراسة

المتغير	نوع المتغير	عدد العينة	النسبة المئوية
الجنس	ذكر	27	%27
	انثى	73	%73
	المجموع	100	%100
المؤهل العلمي	بكالوريوس	85	%85
	دبلوم عالي	6	%6
	ماجستير	9	%9
	دكتوراه	0	0
	المجموع	100	%100
المؤهل المهني	تربوي	89	%89
	غير تربوي	11	%11
	المجموع	100	%100
سنوات الخبرة	أقل من 5	38	%38
	5 – 10	35	%35
	أكثر من 10	27	%27
	المجموع	100	%100
التدريب	دورة واحدة	32	%32
	دورتان	20	%20
	أكثر من دورتين	48	%48
	المجموع	100	%100

أدوات البحث: استخدم الباحث أداة الاستبانة لجمع المعلومات المطلوبة.

تصميم الاستبانة: تكونت من ثلاثة محاور رئيسة ضمت داخلها 30 عبارة بمعدل 10 عبارات لكل محور غطت جميع جوانب المشكلة، حيث عرض الباحث الاستبانة على المحكمين التربويين المختصين في هذا المجال، ومن ثم قام بعمل التعديلات المطلوبة. ثبات الاستبانة: قصد به قدرة الأداة على إعطاء نفس النتائج في حال تطبيقها في مجتمع مماثل وفي ظروف مماثلة بعد فترة قصيرة ولقياس الثبات استخدم الباحث معامل (α) ألفا كرونباخ والذي بلغت نسبته (0.96).

المعالجة الإحصائية للبيانات: لمعالجة البيانات الخاصة بالدراسة استخدم الباحث الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية (SPSS). عرض البيانات ومناقشة نتائج محاور البحث:

للإجابة عن أسئلة الاستبانة، استخدم الباحث اختبار (χ^2) ومقارنة كل نتيجة لقيمة (χ^2) المحسوبة بقيمة (χ^2) المقروءة من الجداول الإحصائية أمام درجة حرية (4) وتحت مستوى دلالة 0.05 والتي تساوي (9.488) لعينة الدراسة لجميع المحاور كما في الجداول أدناه.

المحور الأول:

جدول (2): يوضح التكرارات التي حصل عليها الباحث من استجابات أفراد العينة حول (أدوار مدير المدرسة قبل بداية العام الدراسي).

الرقم	العبارة	موافق بشدة	موافق	محايد	غير موافق	غير موافق بشدة
1	يتأكد من توفر المعلمين في كافة التخصصات.	72	22	4	1	1
2	يهتم بتواجد الفنيين والعمال.	49	47	1	2	1
3	يهتم بتوفير العدد الكافي من الكتب المدرسية.	74	20	2	2	2
4	يهتم بتوفير الزي المدرسي.	70	24	3	2	1
5	يشرف على تسجيل الطلاب الجدد.	55	34	3	4	4
6	يحرص على وجود كافة الأجهزة والوسائل التعليمية.	63	28	6	1	2
7	يتفقد سلامة البناء المدرسي.	70	21	3	4	2
8	يهتم بوضع جدول الحصص.	64	30	1	4	1
9	يوفر السجلات المدرسية.	48	40	8	2	2
10	يجتمع بأسرة المدرسة قبل بداية العام الدراسي.	62	28	5	1	4

جدول (3): يوضح التكرارات وقيمة كا² المحسوبة وقيمة كا² المقروءة والتفسير والنتيجة التي حصل عليها الباحث من استجابات أفراد العينة حول (أدوار مدير المدرسة قبل بداية العام الدراسي).

النتيجة	التفسير	قيمة كا ² المقروءة	درجة الحرية	قيمة كا ² المحسوبة	التكرارات					الرقم
					غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة	
موافق بشدة	دالة	9.488	4	79.280	1	1	4	22	72	1
موافق بشدة	دالة غير	9.488	4	0.040	1	2	1	47	49	2
موافق بشدة	دالة	9.488	4	36.000	2	2	2	20	74	3
موافق بشدة	دالة	9.488	4	74.540	1	2	3	24	70	4
موافق بشدة	دالة	9.488	4	50.480	4	4	3	34	55	5
موافق بشدة	دالة	9.488	4	48.980	2	1	6	28	63	6
موافق بشدة	دالة	9.488	4	82.460	2	4	3	21	70	7
موافق بشدة	دالة	9.488	4	56.060	1	4	1	30	64	8
موافق بشدة	دالة	9.488	4	29.840	2	2	8	40	48	9
موافق بشدة	دالة	9.488	4	87.200	4	1	5	28	62	10

يتضح من الجدول رقم (3) أعلاه أن قيمة "كا²" المحسوبة أكبر من "كا²" المقروءة من الجداول الإحصائية أمام درجة حرية 4 وتحت مستوى دلالة 0.05 في جميع العبارات ما عدا العبارة رقم 2 وبالرجوع إلى الجدول رقم (2) نلاحظ أن هنالك دلالة إحصائية لصالح التكرار الأكبر (موافق بشدة)، أي أن أفراد العينة قد كانت إجاباتهم بالموافقة بشدة على أن ما ذكر من عبارات يبين أبرز الأدوار الفنية والإدارية قبل بداية العام الدراسي لمديري مدارس الأساس للتعليم الخاص بمحلية أم درمان، ويمكن مناقشة هذه العبارات بصورة تفصيلية كما يلي:

جميع العبارات حصلت على درجة الموافقة بشدة، فنجد أن أعلى درجة موافقة لأفراد العينة كانت عبارات: يهتم بتوفير العدد الكافي من الكتب المدرسية، يتأكد من توفر المعلمين في كافة التخصصات، يهتم بتوفير الزي المدرسي، يتفقد سلامة البناء المدرسي، يهتم بوضع جدول الحصص.

ويرى الباحث من خلال إجابات المفحوصين على عبارات المحور الأول من الاستبانة أن هنالك إجماعاً كبيراً على أداء المديرين لمهامهم الفنية والإدارية وبدرجة عالية داخل المدارس، ويمكن تفسير هذا الأداء الكبير بالخبرة الكبيرة التي يمتلكها معظم المديرين ومعرفتهم الكبيرة للأدوار والمهام الواجب القيام بها قبل بداية العام الدراسي.

المحور الثاني:

جدول (4): يوضح التكرارات التي حصل عليها الباحث من استجابات أفراد العينة حول (أدوار مدير المدرسة أثناء العام الدراسي).

الرقم	العبارة	موافق بشدة	موافق	محايد	غير موافق	غير موافق بشدة
1	ينظم الاجتماعات داخل المدرسة.	62	31	2	2	3
2	يراقب حضور وغياب أفراد المجتمع المدرسي.	63	30	1	4	2
3	يتابع أداء المعلمين داخل الفصول.	66	24	4	2	4
4	يشرف على نظافة البيئة المدرسية.	60	29	5	4	2
5	يهتم بصيانة البناء المدرسي ومرافقه.	56	31	4	8	1
6	يواجه المشكلات الطارئة.	71	23	1	3	2
7	يهتم بتنظيم الأنشطة المدرسية.	53	36	5	2	4
8	يتعاون مع الموجهين التربويين.	68	25	2	3	2
9	يتعاون مع أولياء أمور الطلاب.	56	34	4	3	3
10	على صلة بالإدارة التعليمية العليا.	52	36	2	8	2

جدول (5): يوضح التكرارات وقيمة كا² المحسوبة وقيمة كا² المقروءة والتفسير والنتيجة التي حصل عليها الباحث من استجابات أفراد العينة حول (أدوار مدير المدرسة أثناء العام الدراسي).

الرقم	التكرارات					قيمة كا ² المحسوبة	درجة الحرية	قيمة كا ² المقروءة	التفسير	النتيجة
	موافق بشدة	موافق	محايد	غير موافق	غير موافق بشدة					
1	62	31	2	2	3	10.240	4	9.488	دالة	موافق بشدة
2	63	30	1	4	2	54.080	4	9.488	دالة	موافق بشدة
3	66	24	4	2	4	109.280	4	9.488	دالة	موافق بشدة
4	60	29	5	4	2	89.040	4	9.488	دالة	موافق بشدة
5	56	31	4	8	1	69.600	4	9.488	دالة	موافق بشدة
6	71	23	1	3	2	76.220	4	9.488	دالة	موافق بشدة
7	53	36	5	2	4	107.500	4	9.488	دالة	موافق بشدة
8	68	25	2	3	2	16.000	4	9.488	دالة	موافق بشدة
9	56	34	4	3	3	45.980	4	9.488	دالة	موافق بشدة
10	52	36	2	8	2	71.200	4	9.488	دالة	موافق بشدة

يتضح من الجدول رقم (5) أعلاه أن قيمة "كا²" المحسوبة أكبر من "كا²" المقروءة من الجداول الإحصائية أمام درجة حرية 4 وتحت مستوى دلالة 0.05 في جميع العبارات، وبالرجوع إلى الجدول رقم (4) نلاحظ أن هنالك دلالة إحصائية لصالح التكرار الأكبر (موافق بشدة)، أي أن أفراد العينة قد كانت إجاباتهم بالموافقة بشدة على أن ما ذكر من عبارات يبين أبرز الأدوار الفنية والإدارية أثناء العام الدراسي لمديري مدارس الأساس للتعليم الخاص بمحلية أم درمان، ويمكن مناقشة هذه العبارات بصورة تفصيلية كما يلي:

جميع العبارات حصلت على درجة الموافقة بشدة، فنجد أن أعلى درجة موافقة لأفراد العينة كانت عبارات: يواجه المشكلات الطارئة، يتعاون مع الموجهين التربويين، يتابع أداء المعلمين داخل الفصول، يراقب حضور وغياب أفراد المجتمع المدرسي، ينظم الاجتماعات داخل المدرسة.

ويرى الباحث من خلال إجابات المفحوصين على عبارات المحور الثاني من الاستبانة أن هنالك إجماعاً كبيراً على أداء المديرين لمهامهم الفنية والإدارية وبدرجة عالية داخل المدارس، ويمكن تفسير هذا الأداء الكبير بالخبرة الكبيرة التي يمتلكها معظم المديرين ومعرفتهم الكبيرة للأدوار والمهام الواجب القيام بها أثناء العام الدراسي.

المحور الثالث:

جدول (6): يوضح التكرارات التي حصل عليها الباحث من استجابات أفراد العينة حول (أدوار مدير المدرسة في نهاية العام الدراسي).

الرقم	العبارات	موافق بشدة	موافق	محايد	غير موافق	غير موافق بشدة
1	يتأكد من تدريس كل المقررات الدراسية.	78	15	3	2	2
2	يهتم بإعداد الامتحانات وتنفيذها.	67	23	1	8	1
3	يراقب سير الامتحانات.	70	24	2	3	1
4	يشرف على التصحيح ورصد الدرجات.	62	26	8	2	2
5	يشرف على النتائج وكتابة الشهادات.	61	29	4	2	4
6	يتسلم اللوازم والأجهزة من المعلمين.	44	34	14	4	4
7	يهتم بجرد الكتب المدرسية.	46	26	20	4	4
8	يتسلم السجلات من المعلمين والإداريين.	50	40	7	2	1
9	يكتب تقرير شامل عن العام الدراسي.	66	24	5	2	3
10	يضع خطته للعام الدراسي المقبل.	45	45	6	2	2

جدول (7): يوضح التكرارات وقيمة كا² المحسوبة وقيمة كا² المقروءة والتفسير والنتيجة التي حصل عليها الباحث من استجابات أفراد العينة حول (أدوار مدير المدرسة في نهاية العام الدراسي).

النتيجة	التفسير	قيمة كا ² المقروءة	درجة الحرية	قيمة كا ² المحسوبة	التكرارات					الرقم
					غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة	
موافق بشدة	دالة	9.488	4	43.560	2	2	3	15	78	1
موافق بشدة	دالة	9.488	4	60.620	1	8	1	23	67	2
موافق بشدة	دالة	9.488	4	25.000	1	3	2	24	70	3
موافق بشدة	دالة	9.488	4	48.320	2	2	8	26	62	4
موافق بشدة	دالة	9.488	4	52.220	4	2	4	29	61	5
موافق بشدة	دالة	9.488	4	66.000	4	4	14	34	44	6
موافق بشدة	دالة	9.488	4	61.200	4	4	20	26	46	7
موافق بشدة	دالة	9.488	4	70.160	1	2	7	40	50	8
موافق بشدة	دالة	9.488	4	61.340	3	2	5	24	66	9
موافق بشدة	دالة	9.488	4	33.620	2	2	6	45	45	10

يتضح من الجدول رقم (7) أعلاه أن قيمة "كا²" المحسوبة أكبر من "كا²" المقروءة من الجداول الإحصائية أمام درجة حرية 4 وتحت مستوى دلالة 0.05 في جميع العبارات، وبالرجوع إلى الجدول رقم (6) نلاحظ أن هنالك دلالة إحصائية لصالح التكرار الأكبر (موافق بشدة)، أي أن كل أفراد العينة كانت إجاباتهم بالموافقة بشدة على أن ما ذكر من عبارات يبين أبرز الأدوار الفنية والإدارية في نهاية العام الدراسي لمديري مدارس الأساس للتعليم الخاص بمحلية أم درمان، ويمكن مناقشة هذه العبارات بصورة تفصيلية كما يلي:

جميع العبارات حصلت على درجة الموافقة بشدة، فنجد أن أعلى درجة موافقة لأفراد العينة كانت عبارات: يتأكد من تدريس كل المقررات الدراسية، يراقب سير الامتحانات، يهتم بإعداد الامتحانات وتنفيذها، يكتب تقرير شامل عن العام الدراسي، يشرف على التصحيح ورصد الدرجات.

ويرى الباحث من خلال إجابات المفحوصين على عبارات المحور الثالث من الاستبانة أن هنالك إجماعاً كبيراً على أداء المديرين لمهامهم الفنية والإدارية وبدرجة عالية داخل المدارس في نهاية العام الدراسي، ويمكن تفسير هذا الأداء الكبير بالخبرة الكبيرة التي يمتلكها معظم المديرين ومعرفتهم الكبيرة للأدوار والمهام الواجب القيام بها في نهاية العام الدراسي.

خاتمة:

أولاً: نتائج البحث:

أ/ من خلال نتائج البحث الميدانية اتضح أن مديري مدارس الأساس للتعليم الخاص بوحدة أبو سعد الإدارية في محلية أم درمان يؤدون أدوارهم الفنية والإدارية (قبل بداية العام الدراسي وأثناء العام وفي نهايته) بدرجة عالية، وأبرز هذه الأدوار ما يلي:

- 1- يهتم مدير المدرسة بتوافر المعلمين في كافة التخصصات قبل بداية العام الدراسي.
 - 2- يتفقد مدير المدرسة سلامة البناء المدرسي قبل بداية العام الدراسي.
 - 3- يواجه مدير المدرسة المشكلات الطارئة التي تحدث أثناء العام الدراسي.
 - 4- يتأكد مدير المدرسة من تدريس كل المقررات الدراسية قبل نهاية العام الدراسي.
 - 5- يراقب مدير المدرسة سير الامتحانات وما يتعلق بها من تصحيح وإعداد النتائج.
- ب/ معظم مديري المدارس يهتمون بالأدوار والمهام الفنية أكثر من اهتمامهم بالأدوار الإدارية.
- ج/ اهتمام مديري المدارس بالعمل في نهاية العام الدراسي أقل منه في بداية العام الدراسي.

ثانياً: توصيات البحث:

أ/ هنالك أدوار نالت درجات موافقة متدنية من قبل أفراد عينة الدراسة، لذلك يوصي الباحث مديري المدارس إعطائها مزيداً من الاهتمام، وهي:

- 1- الاهتمام بإعداد السجلات المدرسية وتوفيرها.
 - 2- الاهتمام بتسلم اللوازم والأجهزة من المعلمين في نهاية العام الدراسي.
 - 3- اهتمام مدير المدرسة بوضع خطته للعام الدراسي الجديد قبل وقت كافي.
- ب/ يجب على مديري المدارس إعطاء المهام الإدارية مزيد من الاهتمام أسوة بالمهام الفنية.
- ج/ يجب على مديري المدارس الاهتمام بتجويد العمل في نهاية العام الدراسي.

قائمة المراجع:

- 1/ أحمد إبراهيم أحمد: "الإدارة المدرسية في الألفية الثالثة"، مكتبة المعارف الحديثة، الإسكندرية، مصر، 2006م.
- 2/ جودت عزت عطوي: "الإدارة المدرسية الحديثة"، دار الثقافة، الطبعة الثامنة، عمان، الأردن، 2014م.
- 3/ حسن أحمد الطعاني: "درجة ممارسة مديري المدارس لمهامهم الإشرافية من وجهة نظر المعلمين في الأردن"، مجلة جامعة دمشق، المجلد 28، العدد الثاني، 2012م.
- 4/ خالد بن عبد الله بن دهب: "الإدارة والتخطيط التربوي"، دار الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، 2005م.
- 5/ رقية الطيب أحمد يعقوب: "مدى تطبيق مهام الوظائف الإدارية لدى مديري ومديرات مدارس مرحلة الأساس بولاية غرب دارفور"، رسالة دكتوراه، كلية التربية، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، 2015م.

- 6/ صلاح عبد الحميد مصطفى: "الإدارة المدرسية الحديثة – المفاهيم والتطبيقات"، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2011م.
- 7/ صلاح عبد الحميد مصطفى وفدوى فاروق: "مقدمة في الإدارة والتخطيط التربوي"، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2003م.
- 8/ عارف إبراهيم أبو حامد: "تقييم أداء المدير كقائد تعليمي من وجهة نظر معلمي المدارس الأساسية في مدينة القدس"، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بيرزيت، فلسطين، 2013م.
- 9/ عباس بلة محمد أحمد: "مبادئ الإدارة المدرسية، وظائفها – مجالاتها – مهاراتها – تطبيقاتها"، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2010م.
- 10/ عبد الفتاح محمد الخوaja: "تطوير الإدارة المدرسية والقيادة الإدارية"، دار الثقافة، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، 2009م.
- 11/ عماد محمد عطية: "الإدارة المدرسية حاضرها ومستقبلها"، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2010م.
- 12/ ناجي حسين ناجي الشريف: "مدى ممارسة مديري مدارس التعليم العام بمنطقة نجران للكفايات الإدارية والفنية في مجال الإدارة المدرسية"، مجلة جامعة طيبة للعلوم التربوية، المجلد 10، العدد 2، ص 159 – 177، 2015م.
- 13/ نبيل سعد خليل: "الإدارة المدرسية الحديثة في ضوء الفكر الإداري المعاصر"، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2009م.

الجنـدر: إشكالية تماثل الأدوار في المجتمع الجزائري

Gender : Problematic of Roles similarity in the Algerian Community

الباحث عبد الرؤوف مشري/مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية CRASC، وهران، الجزائر

ملخص:

إن البحث في البنية الدلالية لمفهوم الجنـدر يدعو إلى مراجعة توزيع الفرص و الأدوار بين الرجل و المرأة في كثير من المجالات، فالسواة الجنـدرية لا تعترف بالفروق الجنسية، أو تلك الفروق التي صنعها بنو البشر في مجتمعاتهم وعبر تاريخهم الطويل. من هنا يفرض المجتمع نفسه صاحب الكلمة الفصل في تحديد أدوار كلا الجنسين مستندا في ذلك إلى عاداته، قيمة ودينه؛ فالدعوة لتجاوز الفروق تطرح إشكالية توافق أو تنافي سمات المجتمع مع النظرية الجنـدرية. وستحاول من خلال هذا المقال تبين دور المجتمع في تحديد وتوزيع الوظائف بين الجنسين من خلال طرح إشكالية تبني فلسفة الجنـدر في المجتمع الجزائري.

الكلمات المفتاحية:الجنـدر، الجنس، الأسرة.

Abstract:

The Research in the semantic structure of the gender concept requires a revision of the distribution of opportunities and roles between man and woman in various fields. The gender equality doesn't recognize the differences of sex or all other differences created by human in society throughout history.

By this, we understand that human establishes himself as the master of delimitation of responsibilities of the two gender based on traditions, principles and religion, so the call to overcome these differences poses the problematic of consent or incompatibility of the characteristics of society with the gender theory.

In this article, we tried to prescribe the society role in the delimitation and distribution of roles between the two genders through the problematic that deals with the adoption of gender philosophy by the Algerian society.

Key words: gender, sex, family.

مقدمة:

إن بنية المجتمع الجزائري القائمة في تكوينها على النظام الأبوي تفرض على أبنائها الالتزام بأدوار محددة تمارس تبعاً لنوع الجنس و تنشئهم على قيم الامتثال والطاعة والابتعاد عن كل صور الرفض والتمرد؛ وبالتالي يتحدد دور المرأة أو جنس الأنثى في مرتبة أدنى من جنس الذكر على السلم الاجتماعي.

وفي محاولة لإلغاء تلك الفروق الجنسية والمطالبة بالمساواة الوظيفية وكسر هيمنة الرجل على المرأة ظهر مفهوم (الجندر) لأول مرة؛ يدعو إلى مراجعة تلك الأدوار المنوطة بالرجل و المرأة ومساواتها باستبعاد كل مفاهيم القوة والصراع.

فمحاولة إيجاد معنى صريح لكلمة (جندر) يؤسس لإشكالية مصطلح في اللغة العربية، وعلى الرغم من ثرائها وقدرتها على استيعاب اللغات الأخرى يمكن القول بأنها فشلت في إيجاد معنى صريح لهذا المصطلح فحتى ترجمته بالنوع الاجتماعي أثارت الكثير من اللبس والغموض؛ فهو لا يحمل في طياته معنى اللفظ بقدر ما يعبر عن فلسفة متكاملة من القيم والتي قد تبدو غير مألوفة في مجتمع محافظ، فهي تهدف إلى إلغاء كافة الفروق بين الرجل والمرأة، حتى الفروق الطبيعية والتشريحية والبيولوجية.

كذلك هو الشأن بالنسبة للمجتمع الجزائري الذي نجده قد يتناقض مع كثير من بنود فلسفة الجندر، وهو ما سنحاول طرحه والإحاطة بمختلف جوانبه من خلال هذا المقال الذي يتناول مشكلة تماثل الأدوار بين الجنسين في المجتمع الجزائري.

1- ضبط المفاهيم:

1-1- الجندر (النوع الاجتماعي):

يُعرّف الجندر بأنه ((الوجه الاجتماعي الثقافي للانتماء لواحد من الجنسين البيولوجيين. وهو ينطوي على إسباغ صفات نهائية لا تاريخية أو ظرفية على ذلك الانتماء... ويتحقق ذلك الانتماء بالتنشئة أساساً، لكن لا يلبث أن يصبح عملية من التدبير الذاتي تجري عبرها مراقبة الذات والآخرين))⁽¹⁾ وهو أيضاً ((التشكيل الثقافي الاجتماعي الذي يخضع له الفرد ليكتسب صفات تدرجه في خانة الذكور أو الإناث))⁽²⁾ ويقوم المنظور الجندري على ضرورة التمييز بين الانتماء البيولوجي (الجنس)، والهوية الاجتماعية الثقافية (الجندر) التي تتشكل وفق محددات ثقافية، واجتماعية تتدخل في توزيع الأدوار بين الجنسين، وتنظيم العلاقات بينهما، وكذلك في وعي كل من الرجل والمرأة بذاته. والملاحظ أنّ هذه المحددات الجندرية متحركة في الزمن، وتتغير بحسب الطبقة، والسن، والعنصر، والدين، وغيرها من العوامل.

وجاء تعريف صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة (UNIFEM) للنوع الاجتماعي (الجندر) بأنه: ((الأدوار المحددة اجتماعياً لكل من الذكر والأنثى، وهذه الأدوار التي تحتسب بالتعليم تتغير بمرور الزمن وتباين تبايناً شاسعاً داخل الثقافة الواحدة ومن ثقافة إلى أخرى.))

ويشير هذا المصطلح إلى الأدوات والمسؤوليات التي يحددها المجتمع للمرأة والرجل.

(1) بيضون، عزة شرارة (2012)، الجندر ماذا تقولين...؟ الشائع والواقع في أحوال النساء، بيروت، دار الساقي، ص 27.

(2) قرامي، آمال (2007)، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية: مقارنة جندرية، بيروت، دار المدار الإسلامي، ص 14.

ويعني الجندر الصورة التي ينظر لها المجتمع إلينا كنساء ورجال، والأسلوب الذي يتوقعه في تفكيرنا و تصرفاتنا ويرجع ذلك إلى أسلوب تنظيم المجتمع، وليس إلى الاختلافات البيولوجية (الجنسية) بين الرجل والمرأة⁽³⁾.

1-2-الجنس:

يحتوي المعنى الواسع لكلمة جنس و جنسانية على مجموع الطبائع الجسمية والفسولوجية الخاصة بالذكور (الجنس الذكر) والإناث (الجنس الأنثوي)، ويحدد الجنس بصفة أدق بما يلي:

- من الجانب التشريحي: أي التركيب الداخلي للأعضاء التناسلية، وبخاصة مميزات الأولية الجنسية التي يمكن تشخيصها منذ الولادة.
 - من الجانب الفسيولوجي: أي ذلك الذي يخص وظائف هذه الأعضاء ومن ضمنها يمكن ذكر القدرة الجنسية والإنسانية أي المميزات الجنسية الثانوية.
 - من الجانب الإحيائي: أي الغدد الصماء التي تسمح بتنشيط هذه الأعضاء وتطويرها منذ ظهور المميزات الجنسية والثانوية وتشغيلها حتى آخر الحياة عبر المراحل المختلفة التي يمر بها الإنسان والتي تتمثل في الولادة، البلوغ، العجز.
- خلاصة القول أن التخلق الجنسي يتم على مستوى الصبغيات والخلايا الجنسية، والأعضاء والأفراد، وبالتالي فإن الجنس يعني تواجد مجموع مميزات الجنسية الأولية والثانوية، وكذلك الوظائف⁽¹⁾

1. 3. الفرق بين الجنس والنوع:

الجنس: تواجد مجموع المميزات الجنسية الأولية والثانوية وكذلك الوظائف بين الذكر و الأنثى .

النوع: إنتاج التنظيم الاجتماعي للجنسين في فئتين مميزتين مختلفين ورجالاً ونساءً، فالعلاقات بين الرجال والنساء إذاً ليست تلقائية، وإنما هي منظمة حسب الثقافات المختلفة، وعليه فهي بهذا المعنى قابلة للتغير حسب تغير المفاهيم والثقافة السائدين في زمن معين وفي بلد معين، هذا النظر للنوع على أنه ليس عملية طبيعية مثل مفهوم الجنس يجعلنا نستطيع أن نفكر في التغير الذي يمكن إحداثه من أجل تنمية شاملة في المجتمع للمرأة والرجل⁽²⁾.

في هذا التعريف للنوع يتبين نقطتين مهمتين :

(1) النوع ليس الجنس .

(2) النوع ليس المرأة .

فالتكلم عن النوع لا يعني الأنثى ولكن المرأة مقابل الرجل معاً .

⁽³⁾ صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة (2001)، مسرد مفاهيم ومصطلحات النوع الاجتماعي، المكتب الإقليمي للأمم المتحدة، الطبعة الرابعة، ص. 4.

⁽⁴⁾ المبادرة الفلسطينية لتعميق الحوار العالمي والديمقراطية (مفتاح) (2006)، مسرد مفاهيم ومصطلحات النوع الاجتماعي، فلسطين، منشورات مفتاح بالتعاون مع صندوق الأمم المتحدة للإسكان، الطبعة الأولى، ص. 9.

⁽²⁾ صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة (2001)، مفهوم النوع الاجتماعي، المكتب الإقليمي للدول العربية، الطبعة الرابعة، ص. 3.

1-4- الأسرة:

عرفها "محمد عاطف غيث" بأنها: ((جماعة اجتماعية بيولوجية نظامية تتكون من رجل وامرأة يقوم بينهما رابطة زوجية مقررة وأبنائهما))⁽¹⁾، كما يعرفها "برجس لوك" بأنها: ((جماعة من الأشخاص يرتبطون بروابط الزواج والدم أو التبني ويعيشون معيشة واحدة ويتفاعلون كل مع الآخر في حدود أدوار الزوج والزوجة، الأم والأب والأخ والأخت ويشكلون ثقافة مشتركة))⁽²⁾، كما يعرفها كونت بأنها: ((الخلية الأولى في جسم المجتمع، وأنها النقطة الأولى التي يبا منها التطور وأنها الوسط الطبيعي الاجتماعي الذي يترعرع فيه الفرد))⁽³⁾، كما يعرفها أو برن بأنها: ((رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما، وبدون أطفال أو من زوج بمفرده مع أطفاله، وزوجة بمفردها مع أطفالها))⁽⁴⁾

2. فهم خصائص المجتمع من خلال دراسة الأسرة:

إن البحث في خصائص أي مجتمع يقتضي دراسة النواة الأساسية لتكوينه ألا وهي الأسرة فهو الكل المركب لسمايتها والذي يعكس صفاتها، فالأسرة هي المؤسسة الأولى للتنشئة الاجتماعية تتشكل فيها شخصية الفرد أين يتلقى فيها الإرث البيولوجي والثقافي فتكون بذلك أساسا لقيام أخلاقه، قيمه وخبراته بل وحتى تسهم في تدريبه وتلقينه مهارات إشباع حاجياته المادية والمعنوية بطريقة تسير فيها المعايير الاجتماعية والقيم الخلقية والدينية لها ومن خلال مختلف تلك الدراسات التي عنيت بموضوع الأسرة الجزائرية يمكن إيجاز خصائصها فيما يلي:

-أما أسرة موسعة حيث تعيش في أحضانها عدة عائلات زواجية تحت سقف واحد (الدار الكبرى) عند الحضر و(الخيمة الكبرى) عند البدو، إذ نجد من 20 إلى 60 شخصا يعيشون سويا.

-هي أسرة بطرقية الأب والجد هو القائد الروحي للجماعة الأسرية، وينظم فيها التسيير التراث الجماعي، وله مرتبة خاصة تسمح له بالحفاظ وغالبا بنظام محكم على تماسك الجماعة المنزلية.

-هي عائلة أكناتية النسب، وأنها جماعة عصبية توجد بذكور يملكون ويرثون ويمثلون السلطة. بهم تنشأ الأسرة وإلهم تنتهي كل ما يتعلق بها من تنظيم أو تسيير أو قرار، وانتماء المرأة (الأم) يبقى لأبيها، وينتقل الميراث من الأب إلى الابن الأكبر عادة.

-كما أنها أسرة غير منقسمة، أي أن الأب له مهنة ومسؤولية على الأبناء (البنات يتركن المنزل عند الزواج)، والأبناء المنحدرون من أبنائه وأبناء أبنائه فالخلف الذكور يترك الدار الكبيرة، ويكون عددا من الخلايا مقابلا لعدد الأزواج، وبعد الاستقلال احتفظت الأسرة بشكلها الواسع القائم على أساس الروابط الدموية.

-الزواج المفضل هو الزواج الداخلي.

-الأسرة الجزائرية أسرة سلالية فالاعتقاد السائد هو أن وجود الإنسان لأجل الإنجاب والمحافظة على العرق.

(1) غيث، عاطف (1979)، قاموس علم الاجتماع، مصر، الهيئة المصرية للكتاب، ص. 176.

(2) المرجع نفسه، ص. 177.

(3) عبد العاطي، السيد، ومجموعة من الأساتذة، (2002)، الأسرة والمجتمع، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، ص. 7.

(4) الرشدان، عبد الله (1999)، علم اجتماع التربية، بيروت، دار الشروق، ص. 116.

-العلاقات الأسرية داخلها علاقات أخوية، فالجماعة تمحي كل الأحاسيس السلبية وتعزز الشعور بالأخوة والألفة⁽¹⁾.

ومن مظاهر التطورات التي عرفتها في ظل التغيرات والتي مست مختلف الميادين هي:

- أنها أسرة متغيرة تتصف بقلّة عدد أفرادها، بمعنى تقلص حجمها فأصبحت أسرة نووية، إضافة إلى تراجع سلطة الأب.

-تتسم بتنوع نشاطاتها فكل فرد فيها له نشاطاته وأعماله التي يرغب في ممارستها(تقسيم العمل).

-ضعف الروابط الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة حيث أنه لا يوجد مجال للتعاون، كما أن العلاقات بين الآباء والأبناء أصبحت تتسم بالمرونة وحرية التعبير.

3- الأسرة من المؤسسة إلى العولمة:

تعتبر الأسرة أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية والتي تعني في أبسط تعريفاتها: العملية التي يكتسب الفرد من خلالها أنماط محددة من الخبرات والسلوك الاجتماعي أثناء تفاعله مع الآخرين، وتتضمن عملية التنشئة الاجتماعية ثلاث مهام رئيسية أولها ضمان انتقال الثقافة بين الأجيال، وثانيها اكتساب الأفراد القدرة على التحكم في اندفاعاتهم (التكييف الاجتماعي)، وثالثها تدريبهم على القيام بالدور.

إن الأسرة الحالية لم تعد نفسها أسرة العصور السابقة أين كانت الأسرة ممتدة وهو ذلك النوع من الأسر الذي يضم جيلين (الآباء والأبناء) وأحيانا ثلاثة وأربعة أجيال، بينما حاليا يسود شكل الأسرة النواة (جيلين فقط) مما أدى إلى اختلال في الأدوار وتحولات وظيفية على مستوى الأسرة، فقد كانت الأسرة قديما تقوم بإشباع معظم حاجات أفرادها الصحية والاجتماعية والثقافية والدينية والعسكرية لكن مع استمرار تطور المجتمع وظهور المبدد والجيش المنظم والحكومة والمدرسة وغيرها أخذت العديد من الأدوار التي كانت تقوم بها الأسرة فتحوّلت الأسرة من كونها مؤسسة اجتماعية إلى خلية اجتماعية مصغرة.

إن صفة المؤسسة تعني أن الأسرة تقوم بالوظائف الجوهرية للفرد والمجتمع معا، فهي تحول الكائن البشري إلى كائن مؤنس متطبع بطباع مجتمعه، أما عندما نقول أن الأسرة خلية أو نواة المجتمع فذلك يعني عند علماء الاجتماع أنه لا يوجد مجتمع إنساني بدون أسرة؛ لأنها تغذي المجتمع بالأعضاء الجدد وتنقل تراثه الثقافي والمعرفي من جيل إلى آخر لكونها تقوم بهذه الوظيفة منفردة⁽¹⁾.

إن أهم ما يميز الأسرة كمؤسسة هو تعدد الوظائف إذ تقوم الأسرة بالإنجاب وتربية الأطفال وتعليمهم التعاليم الدينية فضلا عن تدريبهم القيام بأعمال منتجة تقوم بصناعتها وتدافع عنهم، وتحرص على ترفيهم، فكل هذه الواجبات كانت أساسية إلا أنه مع تطور الحياة الاجتماعية وظهور المخترعات العلمية والتقنية باتت هذه المهام من واجبات مؤسسات أخرى داخل الهيكل المجتمعي. وهذا التحول الوظيفي لم يحصل بسبب ضعف في أداء المؤسسة الأسرية أو لأن المؤسسات الأخرى تقوم بإنجازها بشكل أفضل من الأسرة بل إن حقيقة تطور المجتمع تزيد من تمدنه وتحضره وعلمنته وإبعاده عن المرحلة التقليدية، فتندثر وظائف أسرية كانت جوهرية في حياتها لصالح مؤسسات أخرى لها علاقة بالوظائف الأسرية.

لكن رغم هذه الأريحية المادية إلا أن روح المحبة والتضحية بين أفراد الأسرة ضعفت والأخطر من ذلك عوضتها سلوكيات عنيفة وتفاعلات قمعية سماها علماء الاجتماع العنف المنزلي، هذه الوضعية المزرية أحسن ما يعبر عنها الأسرة الغربية الحالية التي

⁽¹⁾ بوتنفوشت، مصطفى (1984)، العائلة الجزائرية، التطور والخصائص الحديثة، ترجمة: دمري أحمد، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص. 66.

⁽²⁾ سالم الأحمر، أحمد (2004)، علم اجتماع الأسرة بين التنظير والواقع المتغير، ليبيا، دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى، ص. 16-17.

أصبحت مهددة في وجودها ووجود المجتمع الغربي من الأساس وذلك من خلال ظواهر شاذة كالزنا كطريقة للحياة، وانخفاض معدلات الزواج، وارتفاع معدلات الأطفال قبل الزواج، والأسر بدون آباء وغيرها، وأين هذا من الأسرة التقليدية التي تضمن الرعاية في مختلف المجالات وتعزز مشاعر الحب والتماسك.

4- نظرية الجندر: من النشأة إلى الصياغة

مع بدايات إقحام النظام العالمي الجديد نفسه في مجال الشؤون الاجتماعية بدأت الأمم المتحدة من خلال وكالاتها المتخصصة سواء (اليونسكو) أو شؤون المرأة (اليونيفم) أو الطفولة (اليونيسيف) في أن تتجاوز حدود عملها، وهو تقديم مساعدات المالية والخدمات الفنية للدول المحتاجة، واتجهت إلى مجال تنظير وسن القوانين الاجتماعية عن طريق إصدار وثائق دورية في شتى المجالات الاجتماعية، وهي ملزمة للدول الأعضاء بقوة المعونات، وهي تحاول من خلال هذه الوثائق توحيد النظم الأخلاقية والاجتماعية للعالم بأسره على منظومة واحدة.

وكانت بوادر تجسيد هذه المواثيق في مؤتمر السكان والتنمية الذي كان بمثابة صدمة حضارية أخرجت الشرق من براءته الموروثة، حيث ورد مصطلح (جندر) في حوالي خمسين موضعا بديلا عن كلمة (الجنسين)، ولكن كان استخدامه في إطار المناقشة بإلغاء الفروق واللامساواة بين الرجال والنساء، فمصطلح (gender discrimination) تمت ترجمته على أنه "إزالة التمييز بين الجنسين" وترجم (gender equality) على أنها المساواة بين الجنسين وانتهى الأمر، ولكن لم يكن مؤتمر القاهرة إلا مرحلة من مراحل التقديم التدريجي للمصطلح، حيث كانت الرسالة هي أن هناك مفهوما ما يتم تعريفه.

بعد عام عقد في بكين المؤتمر التالي المعروف بـ (مؤتمر المرأة)، والذي كان شعاره كما ورد في وثيقة (إعادة صياغة المجتمع عن طريق العالم من خلال عيون النساء)، وفي وثيقة هذا المؤتمر وردت كلمة (جندر) 233 مرة، ولوحظ أنها تأتي لتعبر عن أكثر من معنى فهي تارة تشير إلى (الجنسين) تارة وتارة تشير إلى (المرأة) فقط، وتارة للتعبير عن الأدوار المنوطة بالجنسين.

وهكذا توسع المعنى وتمدد ليشمل معاني كلها تحتشد تحت لواء لفظة (gender) وتمت بالتبعية ترجمتها في الإصدار العربي للوثيقة على أنها (الجنسين) مما أفقدها منطقية السياق في كثير من المواضع⁽¹⁾.

لقد شهدت سبعينيات القرن العشرين ظهور ما اصطلح عليه بـ (الحركات التحررية النسوية) وهي عبارة عن تحالفات نسوية في أوروبا و الولايات المتحدة الأمريكية اتخذت موقف الرفض خلال تلك الفترة لكل أنواع القهر والخضوع التي تعانيها المرأة، وهي كما تبدو تبنت نفس مطالب تلك الحركات التي ظهرت في القرن الثامن عشر بأوروبا وتحديدا فرنسا بشأن تحرر المرأة العاملة، وقد تجلت هذه الحركات في موجتين أساسيتين:

(1) بركات، حلیم، المجتمع العربي المعاصر بحث استطلاعي اجتماعي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص.7.

أ-الموجة الأولى: تجلت أساسا في:

أ- 1- الحركة النسوية الليبرالية:

ب- تقوم على اعتبار جميع الناس قد خلقوا متساويين ولا ينبغي حرمانهم من المساواة بسبب نوع الجنس، فهي تركز على تلك المعتقدات التي جاء بها عصر التنوير والتي تنادي بالإيمان بالعقلانية وأن المرأة والرجل يتمتعان بنفس الملكات العقلية الرشيدة⁽²⁾.

أ- 2- الحركة النسوية الراديكالية:

ظهرت خلال فترة الستينيات وبداية السبعينيات نتيجة لإدراك حجم ذلك القهر الذي تتعرض له النساء، فهو جاء كرد فعل تجاه نظريات التنظيم ويطالب ليس فقط بمكانة متساوية للمرأة مع الرجل بل باعتبار المرأة إحدى الأولويات السامية في المجتمع⁽¹⁾.

الموجة الثانية:

يتفق عديد المهتمين بدراسات المرأة أن بداية الموجة الثانية من الحركات النسوية التحررية ارتبطت أساسا بصور كتاب "كيت ميليت" (السياسة الجنسية) والذي تطرقت فيه لضرورة تحرر المرأة والتخلص من التبعية والهيمنة الذكورية متبعة بذلك ما ذهبت إليه كل من "سيمون دي بوفوار" في كتابها (الجنس الآخر) وكتاب "بيتي فريدان" (الغموض الأنثوي) لتتوالى بعد ذلك كتابات مجموعة من المؤلفين أمثال "آن اوكلي" (الجنس والنوع والمجتمع) سنة 1972، "أغانسنسكي" (سياسة الجنسين) سنة 1996، "بيار بورديو" (الهيمنة الذكرية) سنة 1998.

من خلال هذه الكتابات وغيرها طفا إلى السطح مصطلح (الجندر أو النوع الاجتماعي) والذي يشير كما تطرقنا سابقا إلى تلك العلاقات والفروقات بين الرجل والمرأة، والتي ترجع أساسا إلى التباين في ثقافات ومعتقدات المجتمعات التي هي عرضة للتغيير المستمر، ولاشك أن هذا المفهوم تباينت فيه الآراء واحتدمت فيه النقاشات على مدى عديد السنوات الماضية، وهو ما أسهم في بلورة تصور فكري لمفهوم (الجندر) وصياغة نظريته التي تقوم أساسا على:

أ-تمكين المرأة:

((هذا المفهوم يعتبر على قسط من الأهمية باعتباره عنصرا حيويا لا يمكن تجاهله في عملية التنمية، فعملية التمكين تعني بصورة خاصة: العمل الجماعي في المجموعات المقهورة أو المضطهدة لتخطي العقبات وأوجه التمايز التي تقلل من أوضاعهم، أو تسلب حقوقهم ومواجهتها والتغلب عليها، إن مفهوم التمكين والتقوية يعتبر هدفا أساسيا لتقدم المرأة وتمكينها في اتخاذ القرار والمطالبة بالحصول على الحقوق والخدمات.)) فهذا المفهوم بهذا المعنى يعبر عن مبدأ نبيل، ولكن هل المعنى الانكليزي الوارد في وثائق (الجندر) يحمل المعنى نفسه؟ فكلمة تمكين في العربية هي مرادف enabling في الانكليزية، أما كلمة empowerment فهي تعني التقوية والتسلط والتسويد.

(2) احمد علي، فانت، عرض تحليلي للاتجاهات الحديثة في دراسة المرأة صورة المرأة المصرية بين الدراسات النسوية والواقع الاجتماعي، ضمن كتاب المرأة وقضايا

المجتمع، كتاب الكتروني www.kotobarabia.com، ص.38.

(1) المرجع السابق، ص.41.

إن تمكين المرأة في ثقافة (الجندر) لا يتم من خلال دفعها وإعطائها الكفاءة اللازمة للوصول إلى ما تطمح إليه بالأدوات الطبيعية للمنافسة من خبرة وكفاءة بقدر ما يتم من خلال تطبيق (الحصص النسبية) تحت شعار النصف بالنصف 50/50 في كل مجالات العمل، وبهذا يكون العد الإحصائي هو الهمم الشاغل لمفكري (الجندر)، وبالتالي لا يكون على مستوى الخبرة والكفاءة والمطامح⁽¹⁾

ب. المثلية الجنسية:

يقول "فاليري ريموند": ((من خلال عدسة الجندر يصبح تحدينا أكبر بتنوع وضع المرأة بما فيه ميولها الجنسية))، فكلمة الميول الجنسية تعني أن هناك أكثر من هوية جنسية، فالأمر غير محدود بالميل الطبيعي بين الرجل والمرأة، ولكن هناك هويات أخرى مما يفتح الباب لشرعة المثلية الجنسية، لمن لا تتبع ميولهم لا الذكورة ولا الأنوثة، ولذلك فتأمين هذا المطلب واعتباره حقا من حقوق الإنسان هو قمة هرم الأولويات لمفهوم (الجندر)، ولعل التأثير القوي لهذا التيار في أروقة الأمم المتحدة جعل من مطلب الاعتراف بالشواذ بندا ثابتا في كل وثيقة تصدرها الأمم المتحدة، فوثيقة المرأة (بكين+5) انتزعت هذا الحق في البند الستين، أما وثيقة مؤتمر الطفل (عالم جديد بالأطفال) فانترعت هذا الحق في البند الخامس عشر عندما أكدت أن الأسرة هي المحضن الطبيعي للطفل مع الأخذ بعين الاعتبار أن الأسرة تأخذ أشكالاً متعددة⁽²⁾

فالمتابع لمواقع (الجندر) على الأنترنت يجد مدى التعاطف الذي تكنه فلسفة (الجندر) مع هؤلاء المثليين، والاحتجاج على احتكار مفهوم (الطبيعي) على العلاقات السوية بين الرجل والمرأة، فالأشكال الأخرى كلها طبيعية في رأيهم.

ج- التماثل:

هو القول بتماثل المرأة والرجل وهو التعبير الذي ينقل إلينا في العربية على أنه المساواة، إلا أن الفرق كبير بين المفهومين، فالمساواة هي الإنصاف في الحقوق والواجبات وفرص الحياة من تعليم وخدمات ووظائف تصل إلى مراكز اتخاذ القرار، أما القول بالتماثل فهو نتاج نظرية (الجندر) وهي إلغاء كل الفروق الطبيعية أو المختصة بالأدوار الحياتية بين الرجال والنساء، والادعاء بأن أي اختلاف في الخصائص والأدوار هو نتاج وصنع المجتمع، ومن هنا تم اختيار مصطلح (الجندر) ليحل محل الجنس، مصطلح محايد لا يثير أي تداعيات في الذهن لكائنين بشريين بينهما اختلافات.

ويسعى منظور (الجندر) إلى الإتيان بكل دليل على عدم وجود عنصر الطبيعة عامل تمييز بين المرأة والرجل، تقول "شولاميت فايرستون": ((لكي نتأكد جيدا من إلغاء الطبقة الجنسية لابد وأن تقوم الطبقة الدنيا (المرأة) بالثورة وذلك عن طريق تحكم المرأة الكامل للمسألة الإيجابية وامتلاكها الكامل أيضا لحقها في جسدها، إن هذه الثورة النسوية لابد وأن تعمل ليس فقط على محو مكانة المميّزة للذكر على حد قول الحركات النسوية القديمة ولكن أيضا على إلغاء أي قول بالتمييز القائم على الجنس فالفارق البيولوجي القائم على العوامل الطبيعية لن يعد ذا أهمية بعد الآن))

أما الناشطة "بيلا أبزوج" فتذهب إلى أكثر من هذا فتقول في المحاضرة التي ألقته في الجلسة التحضيرية في المؤتمر يوم 3 أبريل 1995: ((لن نعود بالمرأة إلى الوراثة لتقبل الأدوار الهامشية والدنيا)) -إشارة إلى دور الأمومة - إن فكرة الطبيعي لا تعبر عن قيمة إنسانية ذات بال، لأن الإنسانية بدأت في تخطي الطبيعة، فلن نحتاج بعد اليوم إلى تبرير التمييز الطبقي بين الجنسين على أساس

⁽¹⁾عريف، عبد الرزاق وميدني، شايب دراع (2013)، الجندر: (جدلية العلاقة بين المرأة والرجل في ظل تحولات الأسرة الجزائرية "مطرقة الاحتواء أن سندان

الاستبعاد"، الملتقى الوطني الثاني حول: الاتصال وجودة الحياة في الأسرة، جامعة قاصدي مرباح. ورقلة. الجزائر، قسم العلوم الاجتماعية، ص. 16-17.

⁽²⁾المرجع نفسه، ص. 13-14.

طبيعي ، فيجب علينا لأسباب براجماتية أن نتخلص من مفهوم الطبيعة هذا))، وهذا اعتراف بإقصاء الطبيعة ليس لكونها غير موجودة وإنما لأسباب براجماتية⁽¹⁾.

5 – إشكالية تماثل الأدوار في المجتمع الجزائري:

لقد ساد على مدى قرون في المجتمع الجزائري بأن التمايزات الاجتماعية والأدوار المختلفة لكل من الرجل و المرأة هي اختلافات طبيعية لا تتغير، وأن الفروق البيولوجية هي المحدد الوحيد لتلك الأدوار؛ فهذه التمايزات تضمنت أفكار وقيم فيما يخص الذكر والأنثى وساهمت في تكوين صورة نمطية لمواقف وسلوكيات كليهما، فالمجتمع الجزائري في صورته التقليدية عمل على تحديد أدوار كلا الجنسين بنوع من الإلزامية، فمجرد ميلاد الفرد وتجلي جنسه تكون الأدوار المنوطة به قد حددت فهو لا يستطيع بذلك تغييرها أو الخروج عنها، فمهمة المرأة مثلا لا تتجاوز الإنجاب و القيام بمختلف أشغال البيت والرجل بذلك لا يستطيع مشاركة المرأة في أدوارها فهو يعمل جاهدا على توفير القوت وتأمين المسكن.

لكن المجتمع الجزائري وعلى غرار باقي المجتمعات التي تعيش عصر العولمة والانفتاح على العالم الآخر؛ عرف تغيرات طرأت على نظم بناءه تجلت أساسا في التغيير الوظيفي لدور المرأة ومشاركتها أدوار الرجل، فالمرأة اليوم نجدها فاعلة في مختلف الساحات كالسياسة و الأمن والتعليم وهي بالأمس القريب كانت بمعزل عن هكذا أدوار، فانفتاح المرأة على العالم الخارجي ومشاركتها أدوار الرجل بات واضحا لا يمكن إنكاره؛ لكن هذا التحول الوظيفي لا يعني ضعفا في أداء الأسرة أو المؤسسة المجتمعية بقدر ما هو مرحلة تطويرية من شأنها أن تزيد من تمدن وتحضر المجتمع، فتمكين المرأة وتفعيل دورها في المجتمع بات ضروريا لكل مجتمع يطمح لتحقيق مفهوم التنمية الشاملة و الاستخدام الأمثل لموارده البشرية.

إن الإيمان بضرورة مراجعة تلك الأدوار التقليدية لكل من الرجل والمرأة لا يعني بالضرورة قبول فلسفة (الجنود) والسير وراء أهوائها، فالمجتمع الجزائري حتى وإنه لا يرفض فكرة مراجعة بعض الأدوار إلا أنه لا يقبل فكرة المساواة المطلقة بين الجنسين التي تشير في عمقها إلى تبني فكرة المثلية الجنسية والاعتراف بالجنس الثالث الذي يتنافى مع الفطرة و تعاليم الدين الإسلامي، فكل ما يتنافى مع الدين وفطرة الخالق يرفضه أي مجتمع مسلم محافظ وهو شأن المجتمع الجزائري هنا فهو في نظره لدور الجنسين لا ينكر الفطرة التي خلق الله عليها الإنسان، ومرتكز على تلك العقيدة التي تؤمن بأن الله خلق ابن آدم من زوجين اثنين آدم وحواء، جزء من الثنائية المتناغمة في هذا الكون والتي يحقق بها التوازن، الثبات و الأعمار فهذه حقيقة أقرها الله في شريعته وأنزلها على أنبيائه الذين علموها لبني البشر قال عز وجل: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) [النساء 34]، فهم قوامون على النساء بضوابط وضعها الشرع، فالدين أقر أمر الاختلاف ليس تفضيلا للرجل على المرأة؛ لكن تفضيل لكل منهما على الآخر في كل مجال من مجالات الاختلاف، قال تعالى: (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) [النساء 32].

فبنية المجتمع الجزائري وكما أشرنا سابقا قائمة في تكوينها على النظام الأبوي تفرض على أبنائها الالتزام بأدوار محددة تمارس تبعا لنوع الجنس وتنشئهم على قيم الامتثال والطاعة والابتعاد عن كل صور التمرد، وبالتالي يتحدد دور المرأة أو جنس الأنثى في مرتبة أدنى من مرتبة الذكر على السلم الاجتماعي يستطيع من خلالها الذكر امتلاك قوة اجتماعية يمارسها على المرأة.

(1) المرجع السابق، ص. 16.

خلاصة :

الجنندر ليس مجرد كلمة، وإنما هو منظومة فلسفية متكاملة من القيم الغربية على مجتمعاتنا، تهدف إلى إلغاء كافة الفروق بين الرجل والمرأة وحتى وظائف الأعضاء والهرمونات لم تعد ذات قيمة، وأنه يمكن تخطيها ولما لا استبدالها وهو ما يرفضه المجتمع الجزائري جملة؛ فدور الرجل قبل أن يحدده المجتمع شرع الله عز وجل وعززته الفطرة السليمة، فكل ما يرمي إلى إلغاء الامتثال للشرع واعتباره حاجزا على طريق تحقيق العدالة بين الرجل والمرأة لا يمكن الامتثال له في مجتمع دينه الإسلام.

غير أن المساواة الجندرية التي تعتمد على تساوي الفرص والحقوق وعدالة التعامل مع الجنسين بناء على الاحترام الكامل لاحتياجاتهم لا ضرر في تبنيها والأخذ ببنودها، كونها لا تتعارض مع أحكام الدين وقيم المجتمع.

قائمة المراجع:

1. أحمد علي، فاتن، عرض تحليلي للاتجاهات الحديثة في دراسة المرأة صورة المرأة المصرية بين الدراسات النسوية والواقع الاجتماعي، ضمن كتاب المرأة وقضايا المجتمع، كتاب الكتروني www.kotobarabia.com
2. المبادرة الفلسطينية لتعميق الحوار العالمي والديمقراطية (مفتاح) (2006)، مسرد مفاهيم ومصطلحات النوع الاجتماعي، فلسطين، منشورات مفتاح بالتعاون مع صندوق الأمم المتحدة للإسكان، الطبعة الأولى.
3. الرشدان، عبد الله (1999)، علم اجتماع التربية، بيروت، دار الشروق.
4. بركات، حليم، المجتمع العربي المعاصر بحث استطلاعي اجتماعي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
5. بوتنفوشت، مصطفى (1984)، العائلة الجزائرية، التطور والخصائص الحديثة، ترجمة: دمري أحمد، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
6. بيضون، عزة شرارة (2012)، الجنندر ماذا تقولين...؟ الشائع والواقع في أحوال النساء، بيروت، دار الساق.
7. قرامي، أمال (2007)، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية: مقارنة جندرية، بيروت، دار المدار الإسلامي.
8. صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة (2001)، مسرد مفاهيم ومصطلحات النوع الاجتماعي، المكتب الإقليمي للأمم المتحدة، الطبعة الرابعة.
9. صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة (2001)، مفهوم النوع الاجتماعي، المكتب الإقليمي للدول العربية، الطبعة الرابعة.
10. عبد العاطي، السيد، ومجموعة من الأساتذة، (2002)، الأسرة والمجتمع، القاهرة، دار المعرفة الجامعية.
11. عريف، عبد الرزاق وميدني، شايب دراع (2013)، الجنندر: جدلية العلاقة بين المرأة والرجل في ظل تحولات الأسرة الجزائرية "مطرقة الاحتواء أن سندان الاستعباد"، الملتقى الوطني الثاني حول: الاتصال وجودة الحياة في الأسرة، جامعة قاصدي مرباح. ورقلة، الجزائر، قسم العلوم الاجتماعية.
12. سالم الأحمر، أحمد (2004)، علم اجتماع الأسرة بين التنظير والواقع المتغير، ليبيا، دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى.
13. غيث، عاطف (1979)، قاموس علم الاجتماع، مصر، الهيئة المصرية للكتاب.

سؤال الدين في السياقين الحداثي والإسلامي : دوركايم وطه عبد الرحمن نموذجاً

Question of religion in the modern and Islamic contexts :

Dorkaim and Taha Abdel Rahman model

الباحث حامد رجب عباس/جامعة القاهرة، مصر

ملخص :

تهدف هذه الورقة الوقوف على سؤال الدين في السياقين الحداثي والإسلامي ، والتعرف على كيفية أشكلته لدى أنموذجين مَثَل أحدهما السياق الحداثي ، وهو (دوركايم) في حين مَثَل الآخر (طه عبد الرحمن) السياق الإسلامي ، وحاولت الورقة مقارنة سؤال الدين لدى كلا الأنموذجين بالتوقف على أشكلتهما لمصدريته (أى مصدر الدين) وفعاليتها أو حضوره في المجتمع وسلوكيات أفرادها (التدين) . فبينما أعتبر "دوركايم" أن مصدر الدين "الضمير الجمعي" أى المجتمع ذاته ، واعتبر أن دوره في المجتمع وظائفي بما يكفله للمجتمع من تحقيق الانسجام داخله كضرورة لفاعليته. اعتبر "طه" أن مصدر الدين هو "الفطرة" أى "فطرة الدين" فيستجيب الإنسان بصوره لا شعورية لذاكرته الأصلية والميثاق الذى قطعه الإنسان مع خالقه والذى شهد فيه قبل الخلق في عالم الغيب بربوبية خالقه وألوهيته ، والتدين كذلك يأتى كسلوك فطرى وليس كسبي بحيث يتم فيه تنزيل أو تشهيد ما استقر في ذاكرته الأصلية في عالم الغيب على عالم الشهادة.

الكلمات المفتاحية: سؤال الدين ، الحداثة ، الإسلام ، دوركايم ، طه عبد الرحمن.

Abstract:

This paper aims to identify the question of religion in both modern and Islamic contexts, and to learn how it is shaped by two models, one of which is the modernist context (Durkheim) and the other (Taha Abdel Rahman). The paper attempted to approach the question of religion in both models (Source of religion), its effectiveness or its presence in the society and the behavior of its members (religiosity). While Durkheim considers the source of religion to be "collective conscience" ie society itself, and considered that its role in society and my functions in order to ensure the community to achieve harmony within it as a necessity for its effectiveness. Taha considered the source of religion to be the "instinct" of the religion. In which the download or martyrdom of what has settled in the original memory in the world of the unseen on the world of martyrdom.

key words : Question religion, modernity, Islam, Durkheim, Taha Abdul Rahman

تمهيد:

يعد سؤال الدين واحداً من أكثر الأسئلة التي طرحت بزخم لا سيما مع موجة الحداثة وما بعدها ، حيث غلبت الفلسفات التنويرية والمادية و إلهيات اتجاهات العلمنة ، وهو ما أثار حفيظة عدد من مفكري الحداثة لمناقشة قضايا وإشكالات من قبيل: حضور الدين داخل الذات الفردية والاجتماع العام ، عودة المقدس أو الأصوليات ، والحالة الإيمانية والغوص في التدين، وتنازع المركزية (مركزية الإنسان/العقل ومركزية الإله/الإيمان) ، وفكرة المواجهة بين اللاهوت والعلم ، وجدل اللاهوت والسياسة ، وغيرها من القضايا والإشكالات التي أثارها سؤال الدين في سياق الحداثة ، الأمر الذي يجعل ثمة مشروعية لمناقشة سؤال الدين وجدليته إن في السياق الحداثي المتحلل من الدين كلية أو المندوت له (من تدويته للدين وخصخصته وجعله شأنًا ذاتي) ، أو في السياق الإسلامي الذي ينحو إلى أسلمة الحداثة كما المعرفة . لكن مناقشة سؤال كهذا إن في سياق الحداثة على سيولتها وتعدد تياراتها أو في السياق الإسلامي على تنوعاته الفكرية والمذهبية والطائفية ، يعد أمراً محالاً إن لم يكن ضرباً من الجنون وخوضاً في سياق اللاممكن ومن ثم يفضي إلى اللامعنى ، ومن هذا المنطلق لا مناص من حصر مناقشة سؤال الدين في أنموذج بعينه ، وقد وقع الاختيار على أنموذجين أحدهما يمثل فلسفة الحداثة "دوركايم" والآخر "طه عبد الرحمن" يمثل أنموذج في السياق الإسلامي ، وتقع جل طروحاته في إطار مقلوب الحداثة إن صح التعبير ، أو روح الحداثة بتعبير صاحبها (أي طه) ، وكلاهما اشتركا في مناقشة سؤال الدين ومقارنته وإن بطرائق مختلفة. ويمكن مقارنة أشكلكهما لسؤال الدين على النحو التالي هل يعد الدين مكون أصيل في بنية الإنسان وذاكرته الأصلية ومن ثم يأتي التدين كسلوك فطري أم يعد الدين فعالية مكتسبه ومن ثم يكون التدين سلوك كسبي؟

وعليه فإن هذه الورقة ستوزع على ثلاثة عناصر على النحو التالي:

أولاً: إشكال الحداثة مع الدين.

ثانياً: مقارنة دوركايم لسؤال الدين.

ثالثاً: مقارنة طه لسؤال الدين.

أولاً: إشكال الحداثة مع الدين:

الحداثة والتنوير والعلمنة ثلاثية تتلازم وتُستدعى في آن (على الأقل في مقارنة سؤال الديني) بحيث يتم الربط دراماتيكيًا وأحياناً المرادفة بين الحداثة والتنوير والعلمنة ، حيث الأقول التدريجي للطابع الطقوسي الجماعي والمؤسسي للدين، وعمليات فصله إرادياً وبوعي عن توجيهه وتأطير الفعل السياسي والمؤسسة السياسية، وتحرير الثقافة وتطعيمها (تزيدها ومزجها) برؤى وتحليلات مستمدة من العلوم الإنسانية والاجتماعية ركزت على دور الحتميات الطبيعية والتاريخية من جهة وعلى دور الفعالية البشرية من جهة أخرى.

كما تتعدد وتتوزع آليات مقارنة الحداثيين لسؤال الدين بحسب زوايا النظر التي توطر مقاربتهم ، ومن ثم تنوع سرديات استشكال الدين والديني في سياق الحداثة لسيولتها وتعددتها والنسبية المطلقة التي لازمت مقارباتها ، فما يقدمه السوسيولوجي لمقاربة سؤال الدين يغير ما يقدمه الأنثروبولوجي ، إن على مستوى المفاهيم النظرية أو الطرائق المنهجية في دراسة المعتقدات الدينية والممارسات المرتبطة بها . بل أن مقارنة الديني واستشكاله تختلف وتباين بين الأنثروبولوجيين أنفسهم وكذا بين السوسيولوجيين ، ففكرة دوركايم عن افتقاد المعايير والمعاني الموجهة ، تختلف عما قدمه ماركيز عن الاستلاب والألينة ، وكذلك

تختلف فكرة ماكس فيبر عن افتقاد العالم الحديث لطابعه السحري عما قدمه مارسيل غوشيه عن علاقة التحديث والديمقراطية بالخروج من دائرة العنصر الديني بالمعنى الضيق للكلمة.

لكن هذا التفاوت والتباين في المقاربات لا يعنى أنه ليس ثمة نقاط صلبة ، ومشاركات قارة تنطلق منها مقاربات الحدائين لسؤال الدين ، من مثل: إعلاء الإنسان في مقابل الإلهي ، والعقل في مقابل الإيمان ، والحياة في مقابل الموت ، وفردنة الاعتقاد في مقابل الطابع الطقوسي الجماعي ، والعلم في مقابل اللاهوت ، وقد أراح "فيورباخ" الستار عن هذه النقاط في حفرياته عن "أصل الدين" ، يقول : " كان شغلي دائماً قبل أي شيء آخر أن أنير المناطق المظلمة للدين بمصباح العقل حتى يمكن للإنسان في النهاية ألا يكون ضحية للقوى المعادية التي ستستفيد من غموض الدين لكي تقهر الجنس البشري وكان هدفي هو أن أبرهن أن القوى التي ينحني أمامها الإنسان خاضعاً متدلاً هي مخلوقات من عقله المحدود الجبان الذي تعوزه الثقافة ... ، والغرض من كتاباتي هو أن أجعل الناس أنثروبولوجيين بدلاً من أن يكونوا لاهوتيين . أن يحبوا الإنسان بدلاً من أن يحبوا الله ، أن يكونوا طلاباً لهذا العالم بدلاً من أن يكونوا طلاباً للعالم الآخر . أن يكونوا مواطنين معتمدين على أنفسهم في هذه الأرض بدلاً من أن يكونوا كهنة مراوغين خاضعين لحكومة كهنوتية وأرضية وعلى هذا فإن هدفي ممكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون سلبياً هادماً فهو هدف ايجابي فأنا أنكر لكي أثبت . أنكر أوهام اللاهوت والدين حتى يمكنني أن أؤكد الكيان الجوهرى للإنسان".

فالإنساني والعقل والفردانية والحياة والنفعية ... ، كلها صيحات أطلقها الحدائيون في مواجهة الديني وطقوساته ، وإن تنوعت توظيفاتهم لهذه المفردات على صورتين ، إحداها قالت بنهاية الدين وضرورة القطع مع كل مقدس ، الثانية قالت بخصصته لإحداث أفول تدريجي للمتعالى - بتعبير نيتشه - لكن ليس في اتجاه اختفائه بل في اتجاه ذوبانه وتفثيته والحد من تجلياته المؤسسية والطقوسية مع تذويب الجانب الأخلاقي منه في القانون والتنظيم المؤسسي ، ونقله من الضمير إلى القانون. لتصبح العلمانية لا تعبر بالضرورة عن اختفاء للديني وإزاحته بالكلية عن المجال العمومي بقدر ما تعبر عن تراجع سلطة الكنيسة مع حفظ حرية المعتقدات الشخصية أو تذويت الإيمان كما هو لدي ستيف بروس.² وموت الإله الذي بشر به نيتشه لم يكن موتاً للدين واختفاءً للدين بالكلية وإنما كان موتاً لشكل من أشكال التدين المسيحي ، لفظته الحدائنة ورفضته ، وكانت محاولة للتخلص من ميتافيزيقيا مقدس كَبَلِ إرادة الإنسان بالكلية وتمدد في أفق ما هو إنساني وسري في أدق تفصيلاته ، ومن ثم كانت الصيحة النيتشويه تنشد أفق منفتح ، لكنه في حقيقته لم يكن أقل تطرفاً من نظيره (أى المنغلق على المقدس) فجاء ليؤسس لإنسان متفوق أو أعلى le sur-homme أو بالأحرى إنسان عديم يتحلل من كل إرادة تعلقه وتفارق كينونته ، بحيث يصبح الدين محاولة استهيامية للخروج من دائرة الحياة عبر "وهم ميتافيزيقي" بتعبير نيتشه³ ، أو النظر إليه كـ "مجرد جواب خادع عن سؤال الموت" كما يدعي ميشيل أونفري في كتابه عن "نفي اللاهوت: فيزياء الميتافيزيقيا"⁴ ، أو باعتباره "أفيون الشعوب" وعنصر إيديولوجيا ذا بعد تخديري أو احتجاجي أو تعبيراً عن حالة استلابية إنسانية عامة ، كما نجد ذلك في كتابات كارل ماركس⁵.

¹ فيورباخ ، أصل الدين ، ترجمة : أحمد عبد الحليم عطية ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 1991 ، ص ص 38-39.

² نشر ستيف بروس مقاله عن "العلمانية" ضمن كتاب "دليل بلاكويل الجديد إلى سوسولوجيا الدين"

2010 Blackwell Publishing Ltd The new Blackwell companion to the sociology of religion"

³ محمد نور نمر ، "نيتشه وتقويض الميتافيزيقيا في الفلسفة المعاصرة" ، مجلة نقد وتنوير ، العدد الرابع (مارس) 2016 ، ص 284.

⁴ ميشال أونفري ، نفي اللاهوت: فيزياء الميتافيزيقيا ، ترجمة: مبارك العروسي ، بغداد ، منشورات الجمل ، 2012.

⁵ Marx, K. 1976. Introduction to A Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Right. Collected Works, v. 3. New York.

ثانياً : مقارنة دوركايم لسؤال الدين:

مقاربة دوركايم لسؤال الدين تخرج من رحم الحداثة ، فالدين لدي دوركايم كما لدي معظم الحداثيين يعد بمثابة سلطة داخل المجتمع أو أحد التمثلات التي تعبر عن جوانب أخلاقية ومشاعر جمعية شأن مؤسسات أخرى مثل (القانون والعلم) . لكن ما ميز مقاربة دوركايم لسؤال الدين عن غيرها من المقاربات التي سبقته ، أنطلاقتها من بعد أنثربولوجي حفري وسؤاله عن مصدر الدين ، فكانت مقاربتة للدين تدور حول سؤال: (من أين أتى الدين البدائي والحديث؟ وما علة وجوده؟) ، وكان دوركايم قد راهن في حفرياته عن مصدر الدين على أننا إذا نجحنا في اكتشاف أصل الطوطمية* سيكون بإمكاننا اكتشاف الأسباب التي تؤدي إلى نشوء المشاعر الدينية لدى الإنسان ، وبمعنى آخر إذا تمكنا وفق التصور الدوركايمي من توضيح كيف أن العشييرة هي مصدر الطوطمية يكون بإمكاننا إثبات أن المجتمع هو مصدر الدين. وهذا ما حدا بـ "دوركايم" إلى استشكال سؤال الدين على محك ثنائية مقدس/دنيوي ، ورأى أن ثمة ظواهر معينة ينتقها أعضاء المجتمع ويعتبرونها مقدسة وأخرى دنيوية أو مدنسة. وتلك الجوانب من الواقع الاجتماعي التي تعرّف على أنها مقدسة يتم عزلها وتعتبر من المحرمات تكوّن أساس الدين. وما تبقى يعتبر مدنساً، ويتعامل أعضاء المجتمع مع ما هو مقدس بسلوك يحتوى على التقديس، الاحترام، الغموض، الرهبة والشرف.¹

كما تنبني المقاربة الدوركايمية لسؤال الدين على ثلاثية معتقدات/طقوس/كنيسة ، كضرورة لتطور الدين ، فالمعتقدات بما هي تمثلات تعبر عن طبيعة الأشياء المقدسة وعلاقتها مع بعضها البعض أو مع الأشياء المدنسة . والطقوس تمثل قوانين السلوك التي تصف كيف يلائم الإنسان نفسه في وجود الأشياء المقدسة ، وأخيراً تأتي الكنيسة أو المجتمع الأخلاقي كبيئة حاضنة وإطار لممارسة المعتقدات والطقوس والشعائر. وهذا التداخل بين المقدس، المعتقدات، الطقوس والكنيسة قاد دوركايم إلى تعريف الدين بأنه " نسق موحد من المعتقدات والممارسات المرتبطة بأشياء مقدّسة، ومنفصلة، ومحرمّة. إنّها عقائد وممارسات تتوحد في مجتمع أخلاقي واحد يعرف بالكنيسة وكل الذين ينتمون إليها"².

مقاربة دوركايم للدين وفقاً لهذا التصور ، جعلت من الدين شيء اجتماعي بشكل محايث ، ما دامت التمثلات الدينية تمثلات اجتماعية تعبر عن وقائع جماعية؛ ومن ثم فهي وإن كانت لا تقول نظرياً بنهاية الدين، لكنها تقود عملياً إلى تفكيكه والتعاطي معه كأمر عادي دنيوي ينتمي إلى عالم مدنس. فالضمير الجمعي هو مصدر الدين كما يري دوركايم ، والدين بنظره إنما ينشأ من الانفعال الجمعي ، يقول: " إنه وسط هذه البيئات الاجتماعية المنفعلة ومن هذا الانفعال نفسه يبدو أن الدين يولد"³.

مقاربة دوركايم كذلك لسؤال الدين جاءت لتؤكد على البعد الوظيفي للدين ففي الوقت الذي رفض فيهدوركايم فكرة أسطورية الدين واعتبره ظاهرة عالمية ، اعتبره في الوقت نفسه يمثل ضرورة سيكولوجية للأفراد وحاجية أو وظائفية للمجتمعات البشرية ، ومن بين وظائفه بنظر دوركايم العمل على توحيد الناس وخلق روح التضامن الاجتماعي بينهم عن طريق القيم الثقافية والاعتقادات الدينية التي يدعو إليها الدين (أيّاً كان هذا الدين) ومن ثم تحقيق الانسجام داخل المجتمع كضرورة لفاعليته ، وربما تتوافق رؤية دوركايم - في شأن وظائفية الدين - مع رؤية "ماكس فيبر" الذي اعتبر الدين أساس لزيادة الإنتاجية ، وذلك في مؤلفه

*الطوطمية : هي ديانة مركبة من الأفكار والرموز والطقوس تعتمد على العلاقة بين جماعة إنسانية وموضوع طبيعي يسمى الطوطم، والطوطم يمكن أن يكون طائراً أو حيواناً أو نباتاً أو ظاهرة طبيعية أو مظهراً طبيعياً مع اعتقاد الجماعة بالارتباط به روحياً. وقد حاول "دوركايم" في مؤلفه "الأشكال الأولية للحياة الدينية" دراسة الطوطمية وسط الأرونتا في أستراليا باعتبارها الشكل الأكثر بدائية وبساطة للدين ، وذلك لفهم طبيعة الدين ومصدريته .

¹Émile Durkheim, LES FORMES ÉLÉMENTAIRES DE LA VIE RELIGIEUSE, landan, Allen & Unwin, 1915, pp.50-51.

² ibid, p. 65

³ ibid, p.77.

"الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، وهو كذلك – أى الدين - قادر على إنتاج التجديد والتغير الاجتماعي بما يحققه من تضامن عبر شعائر وطقوس لها تأثيرات كبيرة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للفرد والجماعة.¹ والفكرة ذاتها - أى وظيفية الدين - تكررت لدى بارسونز الذي انتهى بعد مقارنته لسؤال الدين وفعالته في المنظومة الاجتماعية إلى أن الدين لن يعرف الزوال، وأن التحولات مهما وقعت، سوف لن تؤدي سوى إلى تغيير مضامينه الاجتماعية. إذ أن الدين بنظر بارسونز، كما هو لدى دوركايم وفيير يقوم بإشباع حاجيات توازن المنظومة في جميع مظاهرها، بما يلعبه من دور محوري وحاسم في منح المنظومة الاجتماعية مورداً للشحنة الفعالة التي لا ترقى أية منظومة أخلاقية أخرى لأن تمنحها.²

ثالثاً : سؤال الدين لدي طه عبد الرحمن :

على خلاف مقاربة الحدائين لسؤال الدين يأتي الطرح الطاهاني انطلاقاً من رؤيته الائتمانية وفلسفته التكاملية التي اشتغلت على رآب كل فصل أقامته الرؤية الحدائية ووصل كل قطع أحدثته الرؤية العلمانية . فعمدت الرؤية الطاهانية إلى الوصل بين الروح والجسد في الكيان الإنساني ، والوصل بين الغيب والشهادة في الوجود الكوني والإنساني، والوصل كذلك بين الوجود المرئي للإنسان ووجوده غير المرئي/الغيبي ، للتحرك في وجود أرحب مما ضيقه العلمانيين بعد أن نسو الوجود غير المرئي للإنسان وأطلقوا مقولات اختزلته وضيقته.

فالإنسان بنظر طه ينوجد في العالم اللامرئي (الغيبي) بروحه كما ينوجد بجسده في العالم المرئي أو عالم الشهادة ولا يني يرتحل من أحدهما إلى الآخر موسعاً وجوده ومستديعاً ذاكرته الأصلية التي فُطِرَ عليها ، والتي تحمل أصل الدين ومعاني الألوهية والوحدانية.³

فالدين بما هو نهجٌ روحي وأخلاقي أو أفقٌ في رؤية العالم وتدييره ، إنما يتحقق باشتغال الإنسان بتنزله من عالم الغيب على عالم الشهادة أو العالم المرئي ، وهو ما يعني التشهيد أو التدين ، وهو لدي طه حقيقة فطرية مركوزة في الإنسان. إذ أنه كائن حي ذو طبيعة مزدوجة ومتعدية لا قاصرة، بحيث يحيا في عالم المرئيات وينوجد فيه ببدنه وروحه ، ويحيا كذلك في عالم المغيبات ويتواجد فيه بروحه ، ومن ثم يجد هذا الإنسان نفسه موصولاً بالغيبي صلته بالمرئي في كل سلوك وفعل يأتيه.⁴

والمقاربة الطاهانية لسؤال الدين والتدين تنهض على ما أسماه بـ "مبدأ الفطرة" ، ومقتضي هذا المبدأ أن " قدرة الإنسان على التشهيد – تحقيق التدين – تأتي من كونه خُلق ، أول ما خُلق ، على هيئة تحفظ سابق صلته بعالم الغيب ، بحيث تحمّل روحه

على خلاف ما قال به "ماركس" ، فالدين بنظر "فيير" قادر على إنتاج نظاماً اقتصادياً، وكان لسيادة المسيحية البروتستانتية (Huber et Mauss: 1899)¹ الإصلاحية وبخاصة الكالفينية، التي شجعت على الزهد مع الدأب بالعمل وطلب الخلاص الأخروي بالإنجازات المادية، كان لها دورا كبير بنظر "فيير" في ظهور النظام الرأسمالي الحديث والتقدم الصناعي.

² تعرض بارسونز لسؤال الدين ضمن أبحاثه السوسولوجية واشتغاله على آليات تحقق التوازن للمنظومة الاجتماعية و الإمكانيات التي ينبغي أن تتوفر للمنظومة الاجتماعية للاشتغال المنظم رغم تعقدها. وكان ذلك في كتابين أساسيين لبارسونز: الأول هو Le système sociale سنة 1951، والثاني هو Théorie de l'action et condition humaine سنة 1978.

³ طه عبد الرحمن ، روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، 2012 ، ص 25.

⁴ المرجع السابق ، ص ص 39 – 41.

قوة خاصة أشبه بذاكرة سابقة على ذاكرته التي يملكها في العالم المرئي ، وهذه القوة الروحية التي تحفظ ذكريات عالم الغيب – أو قل هذه الذاكرة الغيبية أو الأصلية – اختصت في الإسلام بمصطلح الفطرة¹.

فالدين وفقاً لهذه المقاربة إنما هو استجابة لاشعورية لذاكرة أصلية تحمل في روح الإنسان ذكريات عن حقائق غيبية يسعى دوماً لتبين وجوه حضورها في عالم الشهادة . ولهذا لا يمكن للدين – وفقاً لمقاربة طه – أن يكون أمر طارئاً يعرض للإنسان متى توافرت الإرادة وتمهيات الأسباب شأن العادة المكتسبة ، بل لابد أن يكون حقيقة ملازمة له لا يقدر على الانفكاك عنها ، فكما لا يُتصوّر وجود الإنسان بلا ذاكرة أصلية أو بلا فطرة فكذلك لا يُتصوّر وجوده بلا دين أو بلا تشييد ، ومن ثم يأتي التدين وفقاً لمقاربة طه كسلوك فطري غير كسبي ، فسلوكيات الإنسان وتصرفاته إنما تصدر عن ذاكرته الأصلية أو الغيبية وإن تباينت في تحقيق التشييد تبعاً لتباين أنماط التدين².

ولما كان الإنسان المعاصر – بنظر طه – قد ابتعد عن ذلك الميثاق الذي شهدته قبل الخلق وعن الفطرة "فطرة الدين" ، فإنه أصبح بلا قلب حي ومن كان بلا قلب حي كان معدوداً من الأموات ، فإذا الإنسان المعاصر الذي ليس له نور من الدين عبارة عن إنسان ميت³. وحياة هذا الإنسان بنظر طه تكون باستبدال الحالة العقدية التي بنيت على التعاقد الاجتماعي في الرؤية الغربية لإخراج الإنسان من "حالة الطبيعة" إلى الحالة المدنية ، بصرف النظر عن تباين تحديد منظري العقد الاجتماعي لـ "حالة الطبيعة" ، إذ أن بعضهم يري أنها حالة محاربة للجميع وللجميع ومن ثم جاء التعاقد لنقل الإنسان من تلك الحالة إلى حالة الأمن والسلام ، وبعضهم يري أن تلك الحالة – أي حالة الطبيعة – كانت حالة حقوق طبيعية معرضة للهضم والانتهاك ، ومن ثم يكون التعاقد قد أخرج الإنسان إلى الحالة التي يظفر فيها بضمانات لتلك الحقوق ، والبعض الآخر يري أنها كانت حالة الحياد القيمي للإنسان فلا هو بخير ولا بشير ، فيكون هذا التعاقد قد نقله إلى الحالة التي يكتسب فيها القيم المدنية. كل هذه النظريات والتفسيرات التي قررها منظري العقد الاجتماعي ، والتي خرجت من أفق يقصر الوجود الإنساني على العالم المادي لا يمكن قبولها في النظر الطاهائي الائتماني الذي ينبنى على ازدواجية الوجود الإنساني ، بمعنى أنه ينوجد في "عالم الملك" بجسده ، وكذا ينوجد في "عالم الملكوت" بروحه ، فإن حياة الإنسان أو إحيائه في النظر الطاهائي مرهون بتجاوز "النظرية العقدية" إلى ما يسميه طه بـ "النظرية الميثاقية" والتي ترى بأن ثمة موثقة حصلت في عالم الملكوت بين الإنسان وخالقه وليس بين الإنسان والإنسان كما هو في "النظرية العقدية" ومن ثم فهي موثقة روحية ، كانت على هيئة ميثاقين ، أولهما "ميثاق الإلهاد" الذي أقر فيه الإنسان بربوبية خالقه لما تجلى له بأسمائه الحسني ، وثانيهما "ميثاق الائتمان" الذي حمل بموجبه أمانة القيم التي تجلت بها هذه الأسماء . ومن ثم فالحياة التي تقترحها النظرية الميثاقية الطاهائية إنما هي في حقيقتها عودة للحالة الأصلية حالة الفطرة "فطرة الدين" بعد أن نكث الإنسان المعاصر "إنسان الحدائث" في ميثاقه وقصر وجوده على "عالم الملك"⁴.

¹ المرجع السابق ، ص ص 51-52.

² المرجع السابق ، ص ص 51-53.

³ طه عبد الرحمن ، دين الحياء: من الفقه الائتماني إلى الفقه الائتماني ، ج1 ، بيروت ، المؤسسة العربية للفكر والإبداع ، 2017 ، ص 14.

⁴ المرجع السابق ، ص ص 14-19.

خاتمة:

ختاماً ، وبعد طرح سؤال الدين واستشكاله في السياق الحداثي والإسلامي لدي نموذجي "دوركايم" و"عبد الرحمن" يمكن إجمال عدد من النقاط:

أولاً: طُرح سؤال الديني كسؤال محوري في سياق الحداثة ، لارتباطه بأسس ومبادئ الحداثة نفسها ، فالعقلانية كأساس ناظم للحداثة والتي تعند بالعقل وحده كسلطان داخلي يملكه الإنسان للحكم على جميع الأشياء كيفما كانت، وللعمل وفق هذا الحكم، هذه العقلانية تتنافى مع ما هو غيبي أو غير مرئي ، ومن ثم مع الوحي، ومع الرسالة، بمعنى أن السلطان الذي ينبغي للإنسان أن يأخذ به في حكمه على الأشياء هو العقل وحده، وليست الرسالات، وليس الوحي. والأمر نفسه يمكن ملاحظته في شأن مبدأ العلمنة كأحد الأسس التي نظمت حركة الحداثة ورافقت سيرورتها ، فالعلمنة التي تقوم في أبسط صورها بفصل السياسة عن الدين أو فصل قطاعات الحياة عن الدين . ومن ثم كان استشكال الدين في سياق الحداثة ضرورة معرفية لدي منظري الحداثة.

ثانياً : قطع الحداثة مع الدين لم يكن قطعاً مع مبدأ الدين بقدر ما كان قطعاً مع التدين (أو بالأحرى نمط معين للتدين) ، فالحداثة حاولت في بادئ الأمر الانفصال عن سلطة الكنيسة الكاثوليكية (عن سلطة الكنيسة) مع حفظ الصلة بالدين المسيحي، فكانت ثورة الإصلاح الديني في حقيقتها محاولة للانفصال عن الكنيسة لصالح العودة إلى الدين. ثم جاءت المحاولة التالية للانفصال عن الدين المسيحي مع حفظ الصلة بمبدأ الدين، وهو ما يعني أنهم يقطعون مع الدين المسيحي، ولكن لا يقطعون مع الدين، بدليل أنهم أرادوا وضع أديان من عندهم فوضع (روسو) ديناً أسماه بالدين المدني، ووضع "كانط" الدين الوضعي .

ثالثاً: مقارنة دوركايم لسؤال الدين خرجت من رحم الحداثة وحاولت استشكال الدين باستثمار علوم الإنسان والإنثربولوجيا فعمد دوركايم للحفر الإنثربولوجي والسؤال عن مصدرية الدين ، وانتهى إلى أنه نتاج قرارات الضمير الجمعي لما هو مقدس وشرعنة طقوس يمارسها الإنسان ليلائم نفسه مع ما صار مقدساً في إطار بيئة حاضنة أو مجتمع أخلاقي "الكنيسة" ، ومصدرية هذا الدين هو المجتمع نفسه أو الضمير الجمعي ومن ثم فهو خارجاً من المجتمع لا يأتي من خارجه والدور الذي يلعبه الدين في المجتمع وفق مقارنة دوركايم دور وظائفه يكفل للمجتمع تحقيق الانسجام داخله كضرورة لفاعليته.

رابعاً : مقارنة طه عبد الرحمن لسؤال الدين مثلت الرد الإسلامي عن سؤال الدين الذي طرحته الحداثة واستشكلكته ، وجاء كذلك ليقرر أن ثمة حالة من الاختيان (من الخيانة) للإنسان المعاصر ، إنسان الحداثة (وبصرف النظر عن كون هذا الإنسان مسلم أو غير مسلم) للميثاق الذي قطعه الإنسان مع خالقه والذي شهد فيه قبل الخلق في عالم الغيب بربوبية خالقه وألوهيته ، ومن ثم فالدين وفقاً للمقاربة الطاهائية إنما هو استجابة لاشعورية للذاكرة الأصلية للإنسان وفطرته التي فطره الله عليها "فطرة الدين" ، والتدين كذلك سلوك فطري وليس كسبي يتم فيه تنزيل أو تشهيد ما استقر في ذاكرته الأصلية في عالم الغيب على عالم الشهادة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. طه عبد الرحمن ، دين الحياء: من الفقه الاتتماري إلى الفقه الاتتماني ، ج1، بيروت ، المؤسسة العربية للفكر والإبداع ، 2017.
2. طه عبد الرحمن ، روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الاتتمانية ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، 2012 .
3. فيورباخ ، أصل الدين ، ترجمة: أحمد عبد الحليم عطية ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 1991.

4. محمد نور نمر ، "نيتشه وتقويض الميتافيزيقيا في الفلسفة المعاصرة" ، مجلة نقد وتنوير ، العدد الرابع (مارس) 2016.
5. ميشل أونفري ، نفي اللاهوت: فيزياء الميتافيزيقيا ، ترجمة: مبارك العروسي ، بغداد ، منشورات الجمل ، 2012.
- 6.Émile Durkheim, LES FORMES ÉLÉMENTAIRES DE LA VIE RELIGIEUSE,landan,Allen & Unwin,1915, pp.50-51.
- 7.Marx, K. 1976. Introduction to A Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Right. Collected Works, v. 3. New York.

البحث الكولونيالي الإسباني حول مجتمع إفريقيا (الصحراء الأطلنتية نموذجاً): محاولة في التعريف والتركيب

Spanish colonial research about African society (atlantic Sahara model):
an attempt at definition and composition

د. عادل جاهل/جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب

ملخص:

يتناول هذا المقال، بالتحليل والدراسة، التعريف بأهم الكتابات التاريخية الإسبانية، المتعلقة بمجال الصحراء الأطلنتية، منذ أواسط القرن التاسع عشر إلى النصف الأول من القرن العشرين، محاولين جمعها، ورصدها، وتصنيفها، حتى يتسنى لنا دراستها دراسة تركيبية، هادفين من وراءها، إبراز الجوانب الإيجابية والسلبية فيها، قصد استخلاص الجيد، والاستفادة منه، وطرح الرديء، والتخلص منه، كما نروم من خلال هذه العملية، أيضاً، نفض الغبار عن هذه الكتابات؛ لأنها ظلت لسنوات، إن لم نقل لعقود، منسية، ومجهولة، ومغمورة، وغير مستثمرة، لأسباب مختلفة ومتعددة، منها: مشكل اللغة، وصعوبة الوصول إليها.

وهكذا، يتضمن هذا الإرث الكولونيالي الإسباني، معلومات نادرة ومتنوعة، ومعطيات مهمة ودقيقة، وعليه، لا يجب أن نغض الطرف عن هذا الإرث، ولا يجب أيضاً نبذه، بدعوى أنه تحصيل حاصل، لا يقدم ولا يؤخر، ومن هنا، يُعتبر التعريف به، عملية إيجابية، يقتضيها البحث التاريخي المعاصر، حتى تكتمل الصورة، وتتضح الرؤية، حول بعض الزوايا المعتمدة من تاريخنا الوطني بشكل عام، والصحراوي على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: الكتابات الإسبانية، الصحراء الأطلنتية، الصورولوجيا، الخطاب الكولونيالي.

Abstract :

In this article, we aim to present the most important Spanish historical writings related to the field of the Atlantic desert from the mid-19th century to the first half of the 20th century, in an effort to collect, monitor and classify them so that we can study them to shed light on the positive and negative aspects of them. For years, if not transferred for decades, it has been forgotten for many different reasons, including: the problem of language and the difficulty of accessing it.

Keywords: Spanish Writings, the Atlantic Desert, Imagology, Colonial Discourse.

تقديم:

تندرج الكتابات التاريخية الإسبانية، التي قام بتأليفها أبرز الباحثين والمستكشفين الإسبان، منذ أواسط القرن التاسع عشر، حول مجال الصحراء الأطلنتية، الممتدة ما بين (وادي نون والساقية الحمراء ووادي الذهب)، في إطار سياق تاريخي، تميّز باشتداد التنافس الإمبريالي الغربي، حول المنطقة الصحراوية وما ورائها. وهكذا، استهوت تلك العوالم الصحراوية المجهولة، خيال هؤلاء الباحثين والمستكشفين الإسبان، وسيطرت على عقولهم، ونتيجة ذلك، حاولوا القيام بمسح شامل للمجال الجغرافي الصحراوي، من حيث: البنية، والتضاريس، والمناخ، والسكان، فجاءت كتاباتهم، محتوية على معلومات وفيرة، ومعطيات نادرة، ذات أهمية بالغة. بيد أن أهم ما يميّز هذه الكتابات الإسبانية عن غيرها، هي أنها عبارة عن تحريات وأبحاث ميدانية دقيقة، في عين المكان، كما استغلت أيضا، مجمل الروايات الشفوية المتواترة، ممّن لهم خبرة وتجربة بالمجال والميدان والإنسان الصحراوي، أجنب كانوا أم من الأهالي، الشيء الذي جعل من كتاباتهم، عبارة عن تسجيلات وثائقية، تصوّر بدقة متناهية، ما يثير الملاحظة حقا؛ بحيث قلما نجد لها نظيرا في باقي مصادر التاريخ الأخرى. ورغم المخاطر المهولة، والصعوبات الجمة، التي واجهت المستكشفين والباحثين الإسبان، أثناء أبحاثهم وتحرياتهم الميدانية في منطقة الصحراء الأطلنتية وما ورائها، مثل: الموت، والأسر، والاختطاف، والسرقة، والجوع، والعطش، والحرارة، والمرض، والتهديدات البشرية، وتباين الألسنة، واختلاف العادات، وآلام الغربة، ومخاطر الطريق، وطول مسافة السفر، وتقلبات الطقس، ومصاعب المناخ، كلها عقبات ومطبات، لم تؤثر على عزيمة هؤلاء الإسبان، في إنجاز ما جاءوا إليه، وهو استكشاف المجال المراد "احتلاله" و"استغلاله".

لكن، رغم أهمية هذه الكتابات الإسبانية، في التأريخ لمجتمع الصحراء الأطلنتية وما يلها، إلا أنها ظلت منسية وغير مستثمرة، لأسباب مختلفة ومتداخلة؛ بيد أن القصور اللغوي، وعدم إتقان اللغة الإسبانية، حال دون استفادة الباحثين والدارسين ممّا تزخر به تلك الكتابات، من بيانات وإيماءات، تعتبر بحق، جديرة وثمينة، وقلّما تلتفت إليها المصادر المحلية، المكتوبة باللغة العربية، أو بسبب موقف مسبق من الإنتاج الكولونيالي، الذي يُشار إليه في الغالب الأعم، بكون غايته الأساس تتجلى فقط في خدمة أجنحة "الاحتلال" و"الاستغلال"، متناسين أنه بإمكان هذا الإنتاج الكولونيالي الإسباني المتنوع، الذي ينطوي على رصيد هائل من الأخبار والمشاهد الغزيرة، أن يساعدنا على كشف العديد من الجوانب التاريخية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والدينية، والثقافية، والتراثية، للمنطقة الصحراوية.

وبإمكانه أيضا، فتح موضوعات وقضايا بحثية جديدة، ومن وجهات ومشارب علمية متنوعة. كيف لا؟ والباحثون والمستكشفون الإسبان قدّموا تفصيلات تشمل كل أطوار تشكل مجتمع الصحراء الأطلنتية، بدءاً من المرحلة القديمة إلى تاريخ وصولهم للمنطقة، كما عملوا على دراسة الحياة اليومية والمعيشية للسكان المحلية، مثل: اللباس، والسكن، والاستهلاك، كما وصفوا أشكال المعاش، والعادات، والتقاليد، والفنون، والمعتقدات، والطقوس، والمتخيل، بل ودرسوا حتى اللهجات المحلية، وظواهر اجتماعية أخرى متنوعة، مثل: الاسترقاق، والحرابة، والأسر، والهجرة، والترحال، والجنس، واللهو، والجريمة، والدين، والحرب، والفقر، والعنف، والعرف، والتمثلات، والذهنيات، وعناصر الثقافة المادية واللامادية.

وهكذا، حاول هؤلاء الباحثين والمستكشفين الإسبان، مهما تفاوتت درجاتهم العلمية، أو تباينت مشاربهم المعرفية، أو اختلفت مذاهبهم الفكرية، في أن يدرسوا هذا المجال الصحراوي، بالحفر في قعره العميق، من أجل تكوين مادة معرفية دقيقة، تهم بالأساس الميادين الدينية والاجتماعية والاقتصادية، لدوائر الحركة الاستعمارية الإسبانية، وهو المجال، الذي وصفوه في مجمل كتاباتهم وتصانيفهم المختلفة والمتنوعة، بالمجال: "المجهول" و"الغرائبي"، و"المغلق".

أولاً: خصائص الكتابات التاريخية الإسبانية حول مجال الصحراء الأطلنتية

1: السياق التاريخي

إن إلقاء نظرة فاحصة وسريعة في مضامين الأصول التاريخية والشواهد المصدرية الإسبانية، المتعلقة بمجال الصحراء الأطلنتية وما يليها، في الفترة ما بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، يتبين لنا بجلاء تام، أن سياقها لا يخرج عن ثلاثة سياقات رئيسة ومتميزة، وهي:

أ: سياق البحث عن المغامرة وارتياح المجهول

إن أول ملاحظة تستأثر بالانتباه في هذا الصدد، هي أن أغلب الرحالين والمستكشفين الإسبان، الذين جابوا مجاهل الصحراء الأطلنتية، على الأقل منذ منتصف القرن التاسع عشر، كانت المغامرة، وارتياح المجهول، واكتشاف العجيب والغريب، والتنقيب عن الطريف والمدهش، والخروج على المألوف، والبحث عن الثراء السريع، والرغبة في الحصول على جائزة خاصة، من الغايات الرئيسة والأساسية، التي دفعتهم إلى التنقل إلى عين المكان، متجشمين عناء السفر في البر والبحر، ومخاطرين بأرواحهم وأجسادهم، أملاً منهم في تحقيق بعض المكاسب المادية والمعنوية والرمزية.

وعلى هذا الأساس، وانطلاقاً من تلك الدواعي، وصل إلى الصحراء الأطلنتية، التي تكتسي في مخيلة الأوروبيين بشكل عام طابعاً غرائبياً، عدد كبير من المغامرين والمدننين الإسبان، الذين ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم، ومنهم أيضاً، المستكشفين والرحالين المحترفين، الذين تعودوا على الرحلة، وركوب الأمواج، ومنهم رجال الدين، الذين رغبوا في القيام بعملية التمسيح والتبشير، ومنهم رجال العلم، الذين استهوتهم الأبحاث عن الغريب في الطبيعة والإنسان. ونجد من بين هؤلاء المستكشفين الإسبان، أيضاً، الضباط العسكريين، الذين عملوا على إعداد معرفة جغرافية، ورصد أحوال المنطقة والسكان، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والبيانات، مهما بدت صغيرة وتافهة، تمهيداً لغزو قد يأتي لا محالة، ومنهم المستكشف بالصدفة، الذي وصل إلى المنطقة، بكيفية أو بأخرى، فاستهوته مجاهل الصحراء الأطلنتية، صحراء "العجائب"، و"الغرائب"، و"الخوارق"، و"الإثارة"، فحرّز على إثرها، ارتسامات وخواطر وانطباعات، مرتبطة بالمجال والإنسان الصحراوي.

علاوة على ما تقدّم، نجد أن أغلب هؤلاء الرحالين والمستكشفين الإسبان، قبل أن تطأ أقدامهم الصحراء الأطلنتية، والمناطق القريبة منها، كوّنوا خلفية تاريخية، وجغرافية، ودينية وحضارية حول المنطقة¹؛ حيث درسوا اللغة العربية²، والثقافة الإسلامية³، بل أكثر من هذا، تعلموا اللهجة الحسانية⁴ والأمازيغية⁵؛ وذلك كله، من أجل تسهيل مأموريتهم، والنجاح في مهمتهم. وانطلاقاً من

¹- Dos Oficiales del Ejército, **Posesiones Españolas en el África Occidental**, Imprenta y Litografía del Depósito de la Guerra, Madrid, 1900, p.70.

²-Pablo Ignacio de Dalmases y de Olabarría, **El Sáhara Occidental en el Bibliografía Española y el Discurso Colonial**, Tesis Doctoral Sin publicar, Barcelona, Universidad Autónoma de Barcelona, Departamento de Historia Moderna y Contemporánea, 2012-2013, p.151.

³-Emilio Bonelli, "Nuevos Territorios", op.cit., p.26.

⁴- Coronel de Oro, **Algo Sobre el Hasania o Dialecto Árabe que se Habla en el Sahara Atlántico**, Tánger: Editorial F. Erola, Alta Comisaria de España en Marruecos, Delegación de Asuntos Indígenas, 1940.

⁵-EduardHernández-Pachecoy Otros, **el Sahara Español: Estudio Geológico, Geográfico y Botánico**, Instituto de Estudios Africanos, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1949, p.151.

ذلك، تمكّن هؤلاء الرحالين والمستكشفين الإسبان، اللذين أطلقت عليهم الساكنة المحلية لقب "الكفار" (Infieles)¹، من جمع كم هائل ومهم من الأخبار، والمعلومات، والمعطيات، والبيانات القيّمة عن: الوضعية السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والقبلية، للصحراء الأطلنتية، كما كانوا شهود عيان على الكثير من التفاصيل الدقيقة، عن أوضاع هذه المنطقة، وجغرافيتها، ومسالكها، وحياة قاطنيها، ومثلهم الأخلاقية، خلال طيلة الشهور والسنوات التي قضوها فيها؛ قصد التقصي والاستخبار، عن جزء مهم واستراتيجي من بلاد المغرب.

في المقابل، واجه هؤلاء المستكشفين والرحالين الإسبان، أثناء تسلّمهم للمنطقة الصحراوية، صعوبات وعراقيل جمة²، حيث إن بعضهم تعرض للأسر، والاختطاف، والإغارة، والسرقية، ومنهم أيضاً، من واجه الحرارة المفرطة، وضربات الشمس الحارقة، والزوابع الرملية والغبارية، والرياح الجافة والحارة، والجوع، والعطش، والمرض، والأوبئة، والاضطهاد، وأعباء السفر، وبعد الشقة، وعدم وضوح معالم الطريق، ولسعات العقارب المميّنة، ولدغات الحيات والأفاعي السامة. في هذا الجانب، يقول الضابط والمهندس خوليو سيريرا بابيرا (Julio Cervera Baviera): "في دوار بنسيع اختطفنا وبقينا ستة أيام نكافح بشكل مستمر، من أجل السماح لنا بالخروج للسير نحو دواخل الصحراء"³. ويضيف نفس الرحالة السابق الذكر: "إنها ذكريات لا تزال ترعبي، الجوع والعطش، والحرارة التي لا تطاق، والاضطهاد والتهديدات، والمياه الموحلة، ولحوم الغزال النيئة، والتعب والنوم القصير وغير المستقر على الرمال، الممتلئة بالحشرات القذرة، والبؤس، والأوساخ، والأمراض غير المرحة. إنها الصحراء، وفوق كل ذلك، طاعون من العُرب المرهقين والمثيرين للاشمئزاز"⁴.

وفي ذات الإطار، يحتفظ لنا الرحالة والمستكشف الإسباني أنطونيو دي سان مارتين (Antonio de San Martín)، بمعطيات تاريخية مهمة حول الصعوبات والمشاق والمخاطر، التي تواجه أي رحلة أو تاجر أو مسافر، يريد اجتياز هذه الفيافي الصحراوية، التي وصفها بـ "الأماكن المروعة والرهيبة"⁵، ومنها على وجه الخصوص، المخاطر المرتبطة باللصوصية، وقطع الطريق، وعمليات النهب، والاختطاف، خاصة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث كان بإمكان هذه المعلومات، أن يطويها الزمن، وتحشر في غياهب النسيان، لولا أنه اختزنها في ذاكرته، ودوّنها في رحلته، وحتى نستشف بجلاء، مدى حجم هذه المخاطر، وهذه الصعاب، يقول رحالتنا: "لا وجود هناك لطرق أو ممرات، ولا لأي شيء يدل على الطريق الذي ينبغي اتباعه، غير عظام المسافرين والجمال الذين ماتوا من جراء الجوع والعطش، في تلك الأماكن المروعة"⁶.

¹- José Carlos López Pozas Lanuza, **África Occidental Española: la Cuestión de la Soberanía y la Retirada del Sahara**, Tesis Doctoral Sin publicar, Madrid: Instituto Universitario General Gutiérrez Mellado, 2015, p.56.

²-Francisco Rio del Joan, **África Occidental Española (Sahara y Guinea)**, Imprenta de la Revista Técnica de Infantería y Caballería, Ministerio de Estado-Sección Colonial, Madrid, 1915, p.258.

- Emilio Bonelli, **el Sahara: Descripción Geográfica, Comercial y Agrícola Desde Cabo Bojador a Cabo Blanco, Viajes al Interior, Habitantes del Desierto y Consideraciones Generales**, Tipolitografía de L. Péant é Hijos, Ministerio de Fomento, Edición oficial, Madrid, 1887, p.4.

³- Julio Cervera Baviera, **Viaje de Exploración Por el Sahara Occidental: Estudios Geográficos**, Boletín de la Sociedad Geografía de Madrid, Madrid, 1887, p.10.

⁴- Julio Cervera Baviera, "Expedición al Sahara de Rio de Oro a Iyil", **Revista de Geografía Comercial**, Núm.25-30, Año II, Julio-Septiembre de 1886, p.6.

⁵-Antonio de San Martín, **la Ciudad del Sueño: Viaje al Interior de Marruecos**, Imprenta de Santos Larié, Editor Urbano Manini, Madrid, 1870, p.264.

⁶-Ibidem.

وفي السياق نفسه، يقول الرحالة والمستعرب الإسباني خواكين كاتيل إي فولتش (Joaquín Gatell y Folch)، متحدثاً عن تجربته ومعاناته الشخصية، في فيافي الصحراء الأطلنتية، وتحديدًا في منطقة وادي نون وأحوازها: "ليس لدي من الوقت ما يكفي لأحكي كل ما عانيته خلال هذا السير، من جلاء الحرارة والتعب والعطش على وجه الخصوص، عبر هذه السهول وهذه الرمال الصعبة جدًا، على الرجال والدواب"¹. وحسب نفس الرحالة، فإنه بمجرد أن علم أفراد من قبيلة أولاد اسكارنة بكونه نصراني الديانة، حاولوا قتله، بل أكثر من هذا، يذكر أن أحدهم خصّص لكل من يأتي برأسه، مكافأة كبيرة، كانت عبارة عن ناقتين وبنديقية من النوع الرفيع².

وكيفما كان الحال، ورغم الصعوبات، والمشاق، والعقبات، الطبيعية والسوسيو ثقافية، الكثيرة والمتنوعة، التي اعترضت هؤلاء الرحالين والمستكشفين الإسبان، أثناء تسللهم للمنطقة الصحراوية، أو أثناء أبحاثهم وتحرياتهم الميدانية فيها³، إلا أنهم تمكنوا جميعهم، من تقديم مادة معرفية أولية، عمّا شاهدوه وسمعوه وعينوه، عن شؤون وأوضاع هذه المنطقة الصحراوية المجهولة وغير المعروفة لديهم⁴، سكانا وقبائل وشيوخا، خاصة وأن هذا المجال، يعتبر من المجالات التي لم يتيسر للرواد والمستكشفين الإسبان الأوائل، زيارتها ومعرفة تفاصيل أحوالها وشؤونها عن قرب⁵.

ب: سياق إفريقياني

تعود نشأة الأفكار الاستعمارية الإسبانية حول الصحراء الأطلنتية إلى منتصف القرن التاسع عشر، وهي التي تشكلت منها بعد حوالي عقد من الزمن، أفكار "التيار الأفريقياني" (el Africanismo)⁶ بزعامة خواكين كوستا إي مارتينيث (Joaquín Costa y Martínez). وهو تيار، ضم مستكشفين ومغامرين ومثقفين، كانوا يستشفون مستقبلًا في احتلال المغرب، هذا التيار، انكب على فهم أولي للمجتمع المغربي، واستكشاف خصائصه الجغرافية، والإثنية، والسكانية، والاقتصادية⁷.

¹-Joachim Gatell, "L'Ouad-Noun et le Tekna à la Côte Occidentale du Maroc", *Bulletin de la Société Géographie de Paris*, Cinquième Série, T.XVIII, Année 1869, Juillet-Décembre, p.286.

²-Joachim Gatell, "L'Ouad-Noun", op.cit., p.286.

³- Jerónimo Becker, *Historia de Marruecos: Apuntes para la Historia de la Penetración Europea, y Principalmente de la Española, en el Norte de África*, Establecimiento Tipográfico de Jaime Ratés, Madrid, 1915, p.321.

⁴- Julio Caro Baroja, *Estudios Saharianos*, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 1955, pp.XI-XVII.

- Jesús Martínez Milán, *España en el Sáhara Occidental y en la Zona Sur del Protectorado en Marruecos, 1885-1945*, Editorial Universidad Nacional de Educación a Distancia, Madrid, 2003, p.127.

⁵-Pablo Ignacio de Dalmas y de Olabarría, *El Sáhara Occidental*, op.cit., p.136.

⁶- التيار الأفريقياني (el Africanismo): يُحيل هذا المصطلح على مجموع المقولات والمواقف، التي تندرج في سياق مذهب سياسي، مركز على رؤية تبلورت بإسبانيا في القرن التاسع عشر، بمهدف اكتساب موقع لدى اتخاذ قرار بشأن المغرب، في فترة كانت القوى الأوروبية العظمى متحفزة لاحتلال المغرب أو اقتسامه، ضمن مسلسل اكتساح أوروبا لبلدان الجنوب. هذا التيار أضحى منذ أواسط القرن التاسع عشر يمثل أولوية رئيسية في السياسة الخارجية لإسبانيا، ينبي على تصور سلمي في الظاهر، وفي عمقه يستهدف ترسيخ أدوات جديدة تمكنه من السيطرة على مناطق جغرافية في إفريقيا ومنها المغرب، ويمكن أن نعتبر هنا أن الأمر يتعلق بتيار فكري كان يهدف إلى تحديد الأفق الاستراتيجي للإيديولوجية الاستعمارية الإسبانية بالمغرب، والتي تطورت بشكل واضح مع نهاية القرن 19م، وازدهرت لاحقًا مع بداية القرن الموالي، حيث تم الاقتناع بأن طرق السيطرة تتأني من خلال فهم ومعرفة جغرافية المنطقة وأشكال التنظيم بها، مما أعطى تطورًا لمفهوم "غزو البلد وتطوير البحث فيه"، وكان هذا الاهتمام يتم تحت إشراف مؤسسات ذات طابع معرّف. وقد تبنى تيار الأفريقياني هذا المفهوم، ووجه عمليات استكشاف مكثفة إلى المغرب. للمزيد من التفاصيل، انظر:

- محمد العربي المساري، "الأفريقيانية الإسبانية في صيغتها الجديدة"، *مجلة دراسات*، أكادير، العدد 15، 2012، ص.13.

⁷- للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر:

وهكذا، عمل "التيار الأفريقي"، بعد أن استوعب جيدا محدودية المؤهلات الاستعمارية لإسبانيا، والمشاكل الداخلية العديدة التي تعيشها، كما أدرك ضعف السياسة الإسبانية الخارجية، ومدى قوة الأطراف الاستعمارية المنافسة لها، خاصة بريطانيا وفرنسا. لكل هذا، ركز مجهوداته من أجل الانفراد بالمغرب؛ لأسباب ادعى أنها تاريخية وجغرافية وحضارية وغيرها، كما ورد في تقاريره ونشراته المتنوعة¹. أبعد من هذا، فقد شكّل فقدان إسبانيا لمستعمراتها في أمريكا اللاتينية ومناطق أخرى، سببا مباشرا في قيام أصحاب "الفكر الأفريقي"، على البحث عن البديل، وقد وجدوه في الجار القريب (المغرب)، الذي يعتبر في نظر أصحاب ذلك الخطاب بمثابة "الأخ" لإسبانيا. وبالتالي، فهو بحاجة ماسة إلى الحماية الإسبانية للحفاظ على استقلاله وكيانه أمام أي تهديد خارجي، ومن أجل ذلك، يجب إقناع المغاربة بالرسالة النبيلة لإسبانيا، وتوضيح مرامهما. فإسبانيا إذا، ليس لها أي طمع في التراب المغربي، وتطمع فقط في إخراجه من "التخلف"، حتى يتمكن الشعبان من العيش في إخاء وتعاون!

في هذا الإطار، أسس الأفريقيون الإسبان، عدة جمعيات جغرافية، قام أعضاؤها بتنظيم وتمويل مجموعة من الرحلات الاستكشافية إلى الصحراء الأطلنتية وما وراءها، بغية تكثيف البحث عن هذه المنطقة، التي وصفوها في مختلف كتاباتهم بالمنطقة "المجهولة". وفي نفس السياق، قام "الأفريقيون" الإسبان، بتأسيس مجموعة من المجلات الجغرافية والعلمية، اقتناعا منهم بأن طرق السيطرة تتأتى من خلال فهم ومعرفة جغرافية المنطقة، وأشكال التنظيم الإثني بها²، مما أعطى تطورا لمفهوم غزو البلد وتطوير البحث حوله. وكان من أبرز هذه المجلات العلمية، مجلة "الجغرافيا التجارية" (Revista de Geografía Comercial)، و"نشرة جمعية الجغرافيا المدريدية" (Boletín de la Sociedad Geografía de Madrid)، الذين ركّزوا بشكل كبير على منطقة الصحراء الأطلنتية، في كثير من الأعداد، حيث حاولوا البحث في المنطقة، بالحفر في قعرها العميق، من خلال تفكيك بنيات هذا المجتمع، وتفسير حركيته في المجال والزمان، والتأصيل لمختلف الظواهر والقضايا المرتبطة به، وذلك كله، وفق نظرة الآخر الأجنبي، البعيد عن الصراعات والتدافعات القبلية المستشرية عصرئذ.

بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه أعلاه، فقد أسهم "التيار الأفريقي"، بمختلف تلاوينه، في تقريب الصورة عن الصحراء الأطلنتية لمؤسسات الاستعمار الإسبانية، كما أسهم بشكل كبير، في إقناع الحكومة الإسبانية بضرورة احتلال المنطقة، للتعويض عن الخسائر الفادحة التي تكبدها الإسبان، بعد فقدانهم مجموعة من المستعمرات، سواء في أمريكا اللاتينية، أو في الكاريبي، أو في الشرق الأقصى.

ج: سياق استعماري

نود الإشارة في البداية، إلى أن هذا السياق الاستعماري، يكمل السياق السابق، ويتقاطع معه، فهو سياق استعماري أوروبي يبحث عن مجالات حيوية لأسواقها، ومصالحها المتنامية، خاصة منذ أن ظهر في أوروبا في القرن الثامن عشر ما يسمى بـ "الثورة الصناعية"، التي كان من أبرز نتائجها نمو حركة الاستعمار وتصاعدها، بفعل الحاجة إلى المواد الأولية والأسواق، وإلى استثمار الأرباح خارج أوروبا الغربية. وهكذا، أضى المغرب هدف إسبانيا، رغم أنها كانت تعاني الأمرين في مستعمراتها بأميركا اللاتينية

1- عبد العزيز السعود، الاستعمار الإسباني في المغرب: المقاومة المسلحة والنضال الإصلاحي والسياسي الوطني، ج.1، مطبعة تطوان، منشورات مؤسسة الشهيد أحمد محمد بن عبود، تطوان، ط.1، 2016، ص.13.

2- علي بولريج، "الخطاب الاستعماري الإسباني حول شمال المغرب (1850-1956): إشكالات أولية"، مجلة المناهل، الرباط، العدد 89-90، 2011، ص.90.

3- انظر: عبد الرحيم برادة، إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1931-1956، جزءان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط.1، 2007، ج.1، ص.19.

4- Emilio Bonelli, el Sahara, op.cit., p.56.

والفلبين طيلة القرن التاسع عشر¹. بل وكانت تعاني كثيرا من جراء صعوبات في عقر دارها، من حيث التلكؤ في إصلاح أحوالها الداخلية، وكانت تتطلع بأمل إلى ألا تفقد مقعدا في حظيرة الدول الأوروبية المتنافسة على أن تكون لها الكلمة العليا في مصير أوروبا².

وعليه، سعت إسبانيا باكرا إلى منح تجارتها موطن قدم مضمون ومريح في شمال إفريقيا، وذلك عن طريق الاستيلاء على المراسي والشواطئ المغربية. وفي خضم هذه الأحداث، عملت حكومة مدريد على تشجيع إنشاء مجموعة من المؤسسات، كان هدفها هو إشعار الرأي العام الإسباني، بأهمية الاستثمار التجاري والصناعي في الأراضي المغربية³. إن إلحاح مؤسسات الجيش الإسباني، وبعض القطاعات الاقتصادية المتحالفة معه، على الاستقرار في المغرب، على الرغم من المعارضة الشديدة للمشروع الاستعماري الجديد، التي كانت مؤشرات لا تبعث على الاطمئنان، فاليسار الإسباني (الأحزاب والنقابات والمثقفون). وعلى الرغم من ارتباطه بالطبقة البورجوازية، فإنه في هذه المرحلة، عارض المشاريع الاستعمارية في المغرب، وعارضت الطبقة العاملة بشدة الحرب الاستعمارية، التي كانت تشنها إسبانيا في المغرب. وفي الطرف المقابل، كان أنصار "التيار الأفريقي"، يرفعون أصواتهم من أجل التأسيس والدفاع عن المصالح الاستعمارية في إفريقيا وخاصة في المغرب⁴. وكيفما كان الحال، لم تكتف إسبانيا بالطرف المعارض، حيث أعلنت تمسكها بالاستحواذ على شمال وجنوب المغرب، وهو ما تم فعلا، حيث أعلنت الحكومة الإسبانية في 26 دجنبر 1886م حمايتها على المنطقة الواقعة بين رأس بوجدور والرأس الأبيض⁵.

2: الأهداف

انطلاقا من نصوص الكتابات والشواهد التاريخية الإسبانية، التي تيسر الاطلاع عليها، يتضح بجلاء تام، أنها كُتبت لأهداف ومرامي استعمارية كولونيالية محضة لا غبار عليها، أي خدمة أجندة "الاحتلال" و"الاستغلال"، أو بعبارة أخرى "العلم في خدمة السلطة". وهكذا، عمل أصحاب هذه الكتابات، على دراسة مجال الصحراء الأطلنتية من مختلف الحقول المعرفية؛ بغية تقديم مادة علمية ذات قيمة عالية لمؤسسات الاستعمار الإسبانية، من أجل تكوين صورة واضحة وجليّة، حول المجال المراد الانقضاء والسيطرة عليه. وهذا، ما عبّر عنه المؤرخ والضابط الإسباني بيدرو غوميث مورينو (Pedro Gómez Moreno) بصراحة تامة، عندما قال: "يتعين إطلاع أغلبهم على خصائص الصحراء [الأطلنتية] وتقريبها إليهم"⁶.

وفي هذا الصدد، يُبين الأنثروبولوجي حسن رشيق إلى أنه قد أعيد النظر، نهاية القرن التاسع عشر، في الفكرة الكولونيالية القائمة على ضم مستعمرات جديدة عن طريق العنف، حيث دفعت الثقة في نجاح النزعة الوضعية في العلوم الاجتماعية، إلى

1- Antonio Martínez, "un Viaje a Ninguna Parte: Visiones Políticas, Proyectos Sanitarios y Discursos Científicos de los Médicos Españoles en Marruecos (1878-1913)", in *Hesperis-Tamuda*, Vol. XVIII, 2008, p.25.

2- انظر: محمد العربي المساري، "الأفريقية الإسبانية"، م.س، ص 14.

3- للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر:

- عبد العزيز السعود، *الاستعمار الإسباني*، م.س، ص 5.

- يوسف أكمر، "الخطابات التاريخية الإسبانية المتخصصة في شمال المغرب ما بين 1860-1956: خصوصيتها ومميزاتها"، ضمن ندوة بعنوان: من الحماية إلى الاستقلال: إشكالية الزمن الراهن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 133، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1، 2006، ص.12.

4- انظر: عبد الرحيم براءة، *إسبانيا والمنطقة الشمالية*، م.س، ص 27.

5- Julio Cervera Baviera, *Viaje de Exploración*, op.cit., p.11.

- Dos Oficiales del Ejército, *Posesiones Españolas en el África Occidental*, Imprenta y Litografía del Depósito de la Guerra, Madrid, 1900, p.72.

6- بيدرو غوميز مورينو، *آبار الصحراء*، ترجمة أحمد صابر، وتقديم خوصي كلايريا برينافيتا، إدكّل للطباعة والنشر، الرباط، ط.1، 2018، ص.36.

استشراف فكرة التوغل السلمي، وكولونبالية قائمة على أساس علمي، أي مؤسسة على المعرفة المنهجية للمجتمعات المراد السيطرة عليها¹، وهو ما أسماه الملازم والمستفرك الإسباني إيميليو إيرناندو بونيلي (Emilio Hernando Bonelli)، بـ "الغزو أو التغلغل السلمي"².

وهكذا، قام مجموعة من المستكشفين والرحالين الإسبان، بإيعاز من السلطات الإسبانية أو بمبادرة شخصية منهم³، بتأليف مؤلفات وكتب عديدة حول المجال المذكور، حيث انصبَّ اهتمامهم حول دراسة القبائل الصحراوية، وعاداتها، وتقاليدها، وبنياتها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والدينية⁴. وذلك كله، من أجل تكوين فكرة شاملة حول المجال والإنسان الصحراوي، وهو ما يمكن أن نطلق عليه "مرحلة التأسيس للغزو، وتعبيد الطريق أمامه".

وقد استندت الحكومة الإسبانية، بشكل كبير على هذه الكتابات، خاصة التي تمَّ تأليفها في بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي في المقام الأول دراسات وصفية أنجزت من قبل مصالحي الجيش الإسباني⁵، وذلك لتفريدها بالاطلاع على ما كان يجري في الصحراء الأطلنتية برمتها، حيث مكنتهذه الكتابات المؤسسة الاستعمارية الإسبانية، من معرفة إمكانات المجال المستهدف، وما يزخر به من خيرات وموارد، سواء التجارية، أو البحرية، أو المعدنية، أو الفلاحية، وغيرها، لخدمة ولرفاهية شعبيها ولتلبية احتياجات الميتروبول الإسباني الكثيرة⁶.

3: الأسلوب

إن قراءة أولية في هذه الكتابات التاريخية الإسبانية، المتعلقة بالصحراء الأطلنتية، بمختلف تلاوينها وأشكالها، انطلاقاً من أواسط القرن التاسع عشر إلى النصف الأول من القرن العشرين، نلاحظ أو يتبيأ لنا من الوهلة الأولى، أنها تفتقر إلى أسلوب علمي واضح، حيث طغى عليها الجانب "الغرائبي"، كما غلب عليها روح "المغامرة" و"الإثارة"، الشيء الذي جعل أسلوبها العلمي واللغوي، عبارة عن أسلوب أدبي، أقرب إلى "الحكي" و"الرواية". ومن جهة أخرى، طغت على هذه الكتابات، "النزعة الذاتية" و"الخلفية الإيديولوجية"، الشيء الذي جعل عناصرها الإخبارية، تفتقد في بعض الأحيان إلى الدقة والموضوعية، صحيح ليس كلها، وهكذا، سيطرت على مجملها، "أحكام القيمة" و"الطابع الاستعلائي"، و"الاستهزاء" و"السخرية"، المبني على أوهام "المركزية الأوروبية المتحضرة"، حيث صوّرت المجال والإنسان والأشياء كمجرد "وسائل" و"أدوات"، وفي بعض الأحيان، كـ "وحوش همجية"⁷، و"حيوانات مفترسة"⁸!

¹ - حسن رشيق، القريب والبعيد: قرن من الأنثروبولوجيا بالمغرب، تعريب وتقديم حسن الطالب، المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط.1، 2018، صص.101-102.

² - Emilio Bonelli, *el Sahara*, op.cit., p.56.

³ - Julio Caro Baroja, *Estudios Saharianos*, op.cit., p.VII.

⁴ - Jerónimo Becker, *Historia de Marruecos*, op.cit., p.292.

⁵ - Jesús Martínez Milán, *España en el Sáhara Occidental*, op.cit., pp.80-81.

⁶ - Julio (Caro Baroja), *Estudios Saharianos*, op.cit., pp.VIII-IX.

- Aniceto Ramos Charco-Villaseñor, *Del Sáhara Español: Río de Oro*, Talleres Tipográficos de la Asociación de Huérfanos de Infantería, Toledo, 1935, p.17.

- Francisco Lorenzo Díaz Del Ribero, *el Sahara Occidental: Pasado y Presente*, GISA Ediciones, S. A., Madrid, 1975, p.5.

⁷ - Emilio Bonelli, *Nuevos Territorios*, op.cit., pp.22-23.

- Lorenzo Rubio, "Conferencia Sobre Río de Oro", *Revista de Geografía Comercial de Madrid*, Núm.18, Año II, 15 de Marzo de 1886, p.262.

⁸ - Francisco Bens Argandoña, *España en el Sahara Occidental*, Tipografía San Justo, Las Palmas, 1907, p.50.

أبعد من هذا، نجد أن أسلوب هذه الكتابات، المتنوعة المقاصد والأهداف، قد زاوجت بين "المتخيل" و"الواقعي"، الشيء الذي جعلها تسقط في كثير من التناقضات والمزالق العلمية، وهكذا، سيطر أسلوب "الدهشة" و"الغرائبية" على كثير من تلك النصوص، حيث لم يخفي أصحابها ذلك، بل عمقوا تلك "النظرة الغرائبية" الممزوجة بطابع "النزعة الأوروبية الاستعمارية"، التي تحاول احتقار الآخر والتنقيص من شأنه وقيمه. وفي نفس المنحى، يُعتبر أسلوب هذه الكتابات، متواضع من الناحيتين العلمية والمنهجية والتحليل الأكاديمي، وذلك كله، راجع إلى تأخر البحث العلمي آنذاك في إسبانيا، وكذا إلى نوعية الكُتاب الذين أَلَّفوا حول الصحراء الأطلنتية، باستثناء كل من خوليو كارو باروخا (Julio Caro Baroja)، الذي قام بدراسة ميدانية حاول فيها القيام بتحليل بنيوي لطبيعة المجتمع الصحراوي¹، ومانويل موليرو كليمينتي (Manuel Mulero Clemente) الذي قام بدراسة جد هامة، حاول فيها أيضا معالجة قضايا: تاريخية، واجتماعية، وأثروبولوجية، يعتبر السبّاق إلى دراستها، بأسلوب علمي رصين، وقد نوّه بنتائجها وأهميتها خوليو كارو باروخا (Julio Caro Baroja) السالف الذكر.

ثانيا: طبيعة الكتابات الإسبانية حول مجال الصحراء الأطلنتية

تتميز الكتابات التاريخية الإسبانية، حول مجال الصحراء الأطلنتية، بالتعدد والتنوع والكثرة، كما تتميز أيضا، باختلاف من حيث زمن تأليفها، حيث يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحل كبرى، وكل مرحلة من هذه المراحل، لها خصائصها وأهدافها ومميزاتها.

أ: المرحلة الأولى: "مرحلة الاستطلاع والاستكشاف" ما بين 1864م و1934م

تميزت هذه المرحلة الأولى، الممتدة من سنة 1864م إلى حدود سنة 1934م، والتي يُمكن أن نطلق عليها اسم "المرحلة المؤسسة للخطاب الكولونيالي الإسباني حول الصحراء الأطلنتية" أو "مرحلة التأسيس للغزو"، بمجموعة من الخصائص والمميزات. وقد شكلت رحلة المستعرب والمستكشف خواكين كاتيل إي فولتش (Joaquín Gatell y Folch) الاستكشافية، إلى وادي نون وتكنة، ما بين يوليو 1864م ومارس 1865م، بداية تشكل المعرفة الإسبانية حول الصحراء الأطلنتية؛ بحيث فتحت تقاريره المتعددة عن المنطقة، الباب أمام الحكومة الإسبانية، المتلهفة آنذاك لاحتلالها.

وقد شجعت هاته التقارير أيضا، مجموعة من الشخصيات العلمية والتجارية الإسبانية، على تأسيس جمعيات جغرافية يكون هدفها الأساسي، دراسة المنطقة الصحراوية من كل النواحي. ولهذا الأساس، تم إنشاء الجمعية الجغرافية المدريدية (la Sociedad Geográfica de Madrid) سنة 1876م²؛ بهدف تعميق البحث حول المنطقة المذكورة، وقد جعلت هذه الجمعية من أولى أولوياتها البحث عن الحصن اللغز "Santa Cruz de Mar Pequeña" أي (الصليب المقدس للبحر الصغير)³. وإلى جانب دراسة المنطقة، خصّصت هذه الجمعية حيّزا لمناقشة مدى امكانية الدخول في صفوفات تجارية مع ساكنة وشيوخ منطقة الساقية الحمراء ووادي

¹ - محمد دحمان، "الكتابات التاريخية الإسبانية حول منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب: قراءة سوسيو-تاريخية"، مجلة المناهل، الرباط، العدد 89-90، 2011، ص.82.

² - José Luis Villanova, "la Sociedad Geográfica de Madrid y el Colonialismo en Marruecos Entre 1876 y 1912 a Través de las Actas de Reuniones de Consejo de Administración", Artículo en un Libro Colectivo Titulado: **Agadir en Torno a 1911: Aproximaciones Historiográficas Hispano-Marroquíes al Agadir del Siglo XIX y Principios del XX**, Imprenta Souss, Edición Facultad de Letras y Ciencias Humanas Ibn Zohr, Agadir, Primera Edición, 2014, p.137.

³ - سانتا كروث دي مار بيكينيا (Santa Cruz de Mar Pequeña): معناه في اللغة العربية "الصليب المقدس للبحر الصغير"، وهو عبارة عن حصن على شكل كوخ مشيد بالخشب، بناه حاكم جزر كناريا ديبغو غارسيا دي إيريرا إي أيلالا (Diego García de Herrera y Ayala) سنة 1478م، أي أثناء حملته العسكرية على أقاليم المغرب الجنوبية، في المكان المسمى بورتو كانسادو (Puerto Cansado) الواقع في أختيفيس شمال مدينة طرفاية، وانطلاقا من هذا الحصن، قام الإسبان بشن حملات عسكرية على مختلف أرجاء المنطقة الصحراوية ونواحيها. للمزيد من التفاصيل، انظر:

- Pelayo Alcalá Galiano, **Memoria Sobre Santa Cruz de Mar Pequeña y las Pesquerías en la Costa Suroeste de África**, Imprenta de Fortanet, Madrid, 1879, pp.9-79.

الذهب، خاصة وأن أغلبية أعضاء الجمعية هم رجال أعمال. وهكذا، قامت الجمعية السابقة الذكر، بإرسال مجموعة من البعثات العلمية بدعم وتمويل من الحكومة الإسبانية، بغاية تحقيق جملة من المكاسب العلمية والاقتصادية والسياسية، ونمثلها في بعثة كل من خوسي ألباريث بيريث (José Álvarez Pérez) إلى سواحل الساقية الحمراء، ما بين مارس وأبريل 1886م، ثم بعثة خوليو سيريرا بابييرا (Julio Cervera Baviera) إلى الصحراء الأطلنتية ما بين مايو وأبريل 1886م.

وتجدر الإشارة، إلى أن تلك البعثات العلمية الإسبانية، خلّفت مجموعة من المقالات والمؤلفات، تُعد بالعشرات حول منطقة الصحراء الأطلنتية، قدّمت من خلالها معلومات ثمينة عن المنطقة، وتتميز هذه المعطيات، بوجودها ودقتها المعرفية، وما يزيد من قيمتها، هي كونها تحريات ميدانية استخباراتية في عين المكان، الشيء الذي يُمكن أن نطمئن لتناجها. إلى جانب ما سبق، شكلت الكتابات الرحلية التي أنتجها عدد من العسكريين أمثال: إيميليو إيرناندو بونيلي (Emilio Hernando Bonelli)، لورينثو روبيو (Lorenzo Rubio)، فرانسيسكو بينس أرغاندونيا (Francisco Bens Argandoña)، توماس غارسيا فيغيراس (Tomás García Figueras) وآخرون، إضافة نوعية إلى سابقاتها من الكتابات الرحلية التي أنجزت حول مجال الصحراء الأطلنتية، حيث ركزت هذه الدراسات ذات الطابع العسكري، على مختلف تفاصيل الحياة اليومية والمعيشية، لدرجة أنهم يهتمون حتى بتفاصيل الحياة البسيطة للسكان.

لكن، ما يُعاب على هذه الكتابات، هي الأحكام المسبقة، والمبالغة في الأوصاف، والشطط في الأحكام، وتلك النظرة الاستعمارية الاحتقارية، التي تنظر بها لتلك المجتمعات الصحراوية، حيث تصوّرها بصور التوحش والعنف والنهب والتخلف¹، وهي أمور كلها، أبعدت أولئك الرحالين والمستكشفين عن مقاصد التدوين والنزاهة والموضوعية، الشيء الذي جعل الباحث مصطفى الشابي يقول في حق أصحابها: "همهم الوحيد وهدفهم الأكيد ليس دراسة البلاد وأهلها من أجل المعرفة، بل الاهتداء والتمكن من الحصول على ثروات البلاد واستغلال خيراتها وسلبيها سيادتها"²، وهو الشيء الذي حصل فعلا.

ب: المرحلة الثانية: "مرحلة تركيز الاستعمار الإسباني" ما بين 1934م و1970م

شكّلت هذه المرحلة الثانية، من تطور الكتابة التاريخية الإسبانية حول الصحراء الأطلنتية، والممتدة من سنة 1934م إلى حدود سنة 1970م، مرحلة جد هامة، حيث كان هدفها تبرير مشروع الاستعمار، وهي مرحلة عرفت تجديدا ملحوظا في طريقة معالجة القضايا الصحراوية، فإلى جانب تمكن إسبانيا من بسط نفوذها على مجموع الأراضي الصحراوية، شكّل تخطيط عدة مدن نقلة نوعية في المنطقة³. الأمر الذي سهّل على المستكشفين والرحالين الإسبان، عملية البحث بكل سهولة ويُسر، كما أن الدعم المادي واللوجستيكي، الذي وفرته مؤسسات الحماية الإسبانية في المنطقة لهؤلاء الباحثين، جعلتهم يُنجزون أعمالا رائدة حول مجال الصحراء الأطلنتية. من الواضح، أن الكُتاب والرحالين الذين اهتموا بالصحراء الأطلنتية في هذه المرحلة، قد استفادوا استفادة كبيرة من التراكم الحاصل خلال المرحلة الأولى، التي انصبّ فيها الاهتمام على اكتشاف الصحراء الأطلنتية، من حيث أنظمتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، الشيء الذي مكّنهم من تطوير هذه الكتابات، بحيث عرفت تحسنا في الإنتاج وكيفا،

¹-Emilio Bonelli, *Nuevos Territorios*, op.cit., pp.22-23.

- Lorenzo Rubio, "Conferencia Sobre Río de Oro", op.cit., p.262.

- Francisco Bens Argandoña, *Por Segunda Vez en el África*, op.cit., p.26.

²- مصطفى الشابي، "أهمية المصادر الدفينة في كتابة تاريخ المغرب"، ضمن النهضة والتراكم، دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة للأستاذ محمد المنوني، دار توبقال، سلسلة المعرفة التاريخية، الدار البيضاء، ط.1، 1986، ص.347.

³- انظر: محمد دحمان، "الكتابات الإسبانية"، م.س، ص.74.

وبفعل هذه الأبحاث، التي هي في الأصل تحريات ميدانية؛ حيث بفضلها تمكنت إسبانيا من اكتشاف مادة الفوسفات، خاصة منجم بوكراع، الذي يُعد الأكبر في المنطقة.

ويُعتبر عمل الأنثروبولوجي والمؤرخ خوليو كارو باروخا (Julio Caro Baroja) الموسوم بـ (دراسات صحراوية) أهم مؤلف دونه الإسبان حول الصحراء الأطلنتية خلال هذه المرحلة، والكتاب يحمل في طياته مجهودا منهجيا ومعرفيا كبيرا، الشيء الذي أعطى لنا دراسة قيّمة، من حيث القيمة، والمضمون، والمنهج. ولا يجب أن ننسى كذلك، دراسة الضابط والمؤرخ مانويل موليرو كليمينتي (Manuel Mulero Clemente)، والموسومة بـ (الأراضي الإسبانية بالصحراء، ومجموعاتها البدوية) حيث نجده هو الآخر، قام بعمل لا يقل أهمية عن عمل خوليو كارو باروخا (Julio Caro Baroja)، حيث درس مجتمع الصحراء الأطلنتية في كل أبعاده وتجلياته.

ج: المرحلة الثالثة: "مرحلة الهيمنة الاستعمارية" ما بين 1970م و1975م

تُعتبر كتابات المرحلة الثالثة، حول الصحراء الأطلنتية ما بين 1970م و1975م، مرحلة مختلفة عن الأولى والثانية، وهي مرحلة أثرت فيها عدة عوامل، ومنها على الخصوص، ظهور فئات عمالية كبيرة في مختلف المدن الصحراوية، وتضخم سكان المراكز الحضرية، واشتداد سنوات الجفاف، الشيء جعل الباحثين الإسبان، يهتمون بالديموغرافية السكانية والهجرات، وكل ما يتعلق بتحولات المجتمع والمنطقة¹. وتجدر الإشارة، إلى أن أهم دراسة أنجزت خلال هذه الفترة، كتاب إنريكي ألونسو ديل باربو (José Enrique Alonso del Barrio) الموسوم بـ "قبائل الصحراء" (las Tribus del Sahara) الصادر سنة 1973م، وهو كتاب يُعد من أبرز المؤلفات التي أنجزت قبل الجلاء الإسباني عن المنطقة، وفيه درس إنريكي ألونسو ديل باربو (José Enrique Alonso del Barrio) مختلف القبائل الصحراوية.

هذه إذن، هي أهم مراحل تطور الخطاب الكولونيالي الإسباني حول الصحراء الأطلنتية، وهي مراحل كان الغرض منها، دراسة المنطقة تمهيدا لاحتلالها، ثم إخضاعها، وأخيرا استغلالها، خدمة للمتروبول الإسباني الاستعماري. وكما سبق أن ذكرنا أنفا، تتميز هذه الكتابات الإسبانية، بالتنوع والاختلاف، وقد تجسد ذلك بشكل كبير، في الموضوعات المتناولة، الشيء الذي أدى إلى بروز نوع من التخصص، بحيث اختص كل باحث في مجال معين، حيث نجد:

- خوليو سيريرا بابييرا (Julio Cervera Baviera)، وفرانسييسكو كيروغا (Francisco Quiroga)، قد تخصصوا في الجانب الطبوغرافي والجيولوجي.
- إيميليو إيرناندو بونيلي (Emilio Hernando Bonelli)، وإنريكي ألونسو ديل باربو (José Enrique Alonso del Barrio)، وفرانسييسكو بينس أرغاندونيا (Francisco Bens Argandoña)، وخوليو كارو باروخا (Julio Caro Baroja)، قد تخصصوا في دراسة البنيات الاجتماعية والاقتصادية للقبائل الصحراوية.
- إنريكي دالمونتي (Enrique D'Almonte)، وإدواردو إيرنانديث باتشيكو إي إستيبان (Eduardo Hernández-Pacheco y Estevan)، قد تخصصوا في الجغرافية الطبيعية والتاريخية.

¹ - نفسه، ص.77.

جدول كرونولوجي لأهم الكتابات الإسبانية حول الصحراء الأطلنتية خلال القرنين 19م و20م

عنوان المؤلف	اسم المؤلف	الاتجاه العلمي	سنة التأليف	طبيعة التأليف
وادي نون وتكنة على الساحل الغربي للمغرب	خواكين كاتيل إي فولتش (Joaquín Gatell y Folch)	مستعرب ومحامي وصحفي ومستكشف	1869م	مقالة أصلها رحلة استكشافية
رحلات عبر المغرب: سوس وادي نون وتكنة	""	""	1880م	رحلة استكشافية
الأراضي الإسبانية الجديدة في الساحل الصحراوي	إميليو إيرناندو بونيي (Emilio Hernando Bonelli)	عسكري ومستكشف ومستغرق ومترجم	1885م	""
الصحراء: وصف جغرافي، تجاري، وزراعي: من رأس بوجدور حتى الرأس الأبيض	""	""	1887م	""
مؤتمر حول وادي الذهب	لورينثو روبيو (Lorenzo Rubio)	عسكري ومستكشف	1886م	مقالة أصلها رحلة استكشافية
في الساقية الحمراء	خوسي ألباريث بيريث (José Álvarez Pérez)	دبلوماسي ومستكشف	1886م	""
بعثة إلى الصحراء من وادي الذهب إلى إيجيل	خوليو سيربيرا بابييرا (Julio Cervera Baviera)	عسكري ومهندس وجغرافي ومستكشف وعالم في مجال الاتصالات	""	""
رحلة استكشافية عبر الصحراء الغربية	""	""	1887م	رحلة استكشافية
الصحراء الغربية وسكانها	فرانسييسكو كيروغا (Francisco Quiroga)	عالم في العلوم الطبيعية والصيدلية	1886م	مقالة أصلها رحلة استكشافية
ملاحظات حول رحلة إلى الصحراء الغربية	""	""	""	""

""	""	""	""	وادي الذهب، هيكل شبه جزيرة وادي الذهب
""	""	مستعرب ودبلوماسي ومستكشف	فيلبي ريثو راميرث (Felipe Rizzo Ramírez)	الصحراء الغربية، إلحاق وحماية
دراسة ميدانية	1900م	عسكريين	مؤلفان مجهولان	الممتلكات الاسبانية في إفريقيا الغربية
""	1907م	عسكري ومستكشف	فرانسييسكو بينس أرغاندونيا (Francisco Bens Argandoña)	إسبانيا في الصحراء الغربية
""	1911م	""	""	للمرة الثانية في إفريقيا الغربية
مذكرات تاريخية	1947م	""	""	مذكراتي: 22 سنة في الصحراء
دراسة ميدانية	1914م	مهندس وطبوغرافي ومستكشف	إينريكي دالمونتي إي مورييل (Enrique D'Almonte y Muriel)	دراسة مختصرة في وصف الصحراء الإسبانية
""	1933م	عالم في اللاهوت ومستكشف	أندريس كول إي بيرث (Andrés Coll y Pérez)	مدينة الداخلة
""	1941م	عسكري ومؤرخ	توماس غارسيا فيغيراس (Tomás García Figueras)	سانتا كروث دي مار بيكينيا-إفني- الصحراء: منجزات إسبانيا في الساحل الغربي لإفريقيا
""	1945م	عسكري ومؤرخ	مانويل موليرو كليميني (Manuel Mulero Clemente)	الأراضي الإسبانية بالصحراء، ومجموعاتها البدوية
""	1946م	عسكري ومؤرخ	أنخيل دومينيثش لافوينتي (Ángel)	شيء عن وادي الذهب

			Doménech (Lafuente)	
'''	1949م	عالم في العلوم الطبيعية والجغرافية	أشرف عليه إدواردو باتشيكو (Eduardo Pacheco)	الصحراء الإسبانية: دراسة جيولوجية، جغرافية ونباتية
دراسة اجتماعية	1955م	مؤرخ وأنثروبولوجي	خوليو كارو باروخا (Julio Caro Baroja)	دراسات صحراوية
دراسة جغرافية	1959م	عسكري ومستكشف	بيدرو غوميث مورينو (Pedro Gómez Moreno)	آبار الصحراء
دراسة ميدانية	1973م	عسكري ومؤرخ	إنريكي ألونسو ديل باريو (José Enrique Alonso del Barrio)	قبائل الصحراء
دراسة جغرافية وتاريخية	1974م	عسكري وباحث في الإنسانيات وعلوم التربية	إدواردو مونيا غوميث (Eduardo Munilla Gómez)	دراسة عامة للصحراء

والخلاصة التي ننتهي إليها بهذا الشأن، هي أن الإسبان تركوا رصيذا وثائقيا متميزا حول الصحراء الأطلنتية، منذ القرن التاسع عشر، وهو رصيذ متنوع وغزير ونادر، كيف لا؟ وهو كُتب في فترة لا نجد فيها أي كتابات محلية، بتلك القيمة والحصيلة، من خلاله قدّم هؤلاء الإسبان معلومات ثمينة، ونادرة، ودقيقة، تهتم أساسا كل المجالات: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والفكرية، والدينية، وغيرها. لكن، رغم أهمية هذه الكتابات، يظل الاهتمام بها في حكم النادر، وذلك راجع بالأساس إلى صعوبة الوصول إليها، ثم عائق اللغة. إلا أن هذه المبررات كلها، لا يمكن أن تشكل أسبابا موضوعية لإهمالها من قبل الباحثين المهتمين بتاريخ الصحراء الأطلنتية بشكل خاص، والجنوب المغربي بشكل عام. ولهذا، فإن المطلوب هو الاستغلال الجيد لما تحتوي عليه من معلومات ومعطيات؛ لأنها بإمكانها أن نعول عليها في البحث عن قضايا جديدة، وفي أكثر من مجال، كما أنها يمكن اعتمادها منطلقا لمقاربة جوانب متعددة من تاريخ الصحراء الأطلنتية، على الأقل منذ أواسط القرن التاسع عشر.

ثالثا: الصحراء الأطلنتية في مرآة الكتابات التاريخية الإسبانية

إن قراءة متأنية في مضامين الكتابات التاريخية الإسبانية، المتعلقة بالصحراء الأطلنتية وتاريخها، وتحديدًا التي دُوِّنت منذ أواسط القرن التاسع عشر إلى قبيل الجلاء الإسباني عن المنطقة، أمكن لنا تحديد مجموعة من الصور، التي ارتكز عليها أصحابها، وهم يدرسون مجال وإنسان الصحراء الأطلنتية. وهي صور، حاولوا من خلالها، تكريس النظرة الاستعمارية، المبنية على التفوق الغربي، وعلى هيمنة الحضارة الغربية. ويمكن إجمالها، في أربعة صور مغايرة ومتميزة، وهي كالتالي:

1: صورة "الصحراء المتوحشة"

حاول مجموعة من الكتاب والباحثين الإسبان إبراز هذه الصورة، بل اعتبروها خاصية من خصائص مجتمع الصحراء الأطلنتية، وهكذا، اعتبروا ساكنة المنطقة مجرد وحوش متوحشة وحيوانات مفترسة، يتبين ذلك بجلاء، في مجموعة من النصوص. في هذا الصدد، يقول إيميليو إيرناندو بونيلي (Emilio Hernando Bonelli)، وهو يتحدث عن ساكنة دواخل الصحراء الأطلنتية (los Indígenas del Interior): "إنهم متجربون ومتغطرسون مثل الوحوش الهمجية"¹. أكثر من هذا، نجده يقول: "ساكن الصحراء مثل المسلمين فهم الطيب وفهم المتعصب إلى حد المبالغة، يتبين ذلك في صراعاتهم ضد أفراد من دين آخر، إنهم يتميزون بطبائع متوحشة ومتعطشة للدماء"². إذا بدلنا المصدر، وانطلقنا من شهادة فرانسيسكو بينس أرغاندونيا (Francisco Bens Argandoña)، سوف نجد نفس الشيء تقريبا، حيث يشير بكثير من الاستهزاء، وهو يتحدث عن بدو الصحراء الأطلنتية، يقول: "إن بدو الصحراء (los Moros de Desierto) وصلت بهم النهاية إلى أكل العشب، إن ما فعلوه أمامي سبَّب لي هستيرية من الضحك، إنهم يشبهون الماعز"³. بل أكثر من هذا، نجد أن حتى المجال هو الآخر، لقي نصيبا من هذه الصورة، يقول نفس المؤلف: "حزين لمن يشاهد أول مرة هذا المجال"⁴. أبعد من هذا، يقول إيميليو إيرناندو بونيلي (Emilio Hernando Bonelli): "تلك الرمال الهائلة الخالية من الغطاء النباتي، والتي تفتقر إلى شروط الوجود الأوروبي"⁵.

وانطلاقا من النصوص التي أثبتناها، نلاحظ بوضوح تام، أن صفات هذه الصورة تتلخص في القاعدة التالية: "العيش على الطبيعة"⁶، على حد تعبير الباحث سمير بوزويطة.

2: صورة "الصحراء البدائية"

عمل عدد من المؤلفين والكتاب الإسبان، وهم يدرسون منطقة الصحراء الأطلنتية، على إبراز صورة "الصحراء البدائية"، في كثير من أعمالهم ومؤلفاتهم، حيث اعتبروا نمط عيش الساكنة أكثر من بدائي. وقد توخوا من ذلك، إبراز التقدم الحضاري الأوروبي، وتكريس رسالة تفوق الإنسان الغربي، ولتقريب هذه الصورة، سنختار نماذج من بعض النصوص التي حاول أصحابها إبراز وتكريس تلك الصورة. في هذا الإطار، يقول فرانسيسكو بينس أرغاندونيا (Francisco Bens Argandoña)، وهو يتحدث عن الخيمة الصحراوية: "إن الهندسة المعمارية لهذا النوع من المساكن عبارة عن نظام الغرفة الواحدة، الشيء الوحيد الذي يعرفون، إنها [أي الخيمة] بدائية كما يمكنك أن تتخيل"⁷. وفي السياق ذاته، يشير فرانسيسكو كيروغا إي رودريغيث (Francisco Quiroga y Rodríguez) إلى أن ساكنة الصحراء الأطلنتية "يعيشون في استقلال يكاد يكون بدائيا وهمجيا تقريبا، ويعارضون جميع التطورات المعنوية والمادية"⁸. من جهة أخرى، حاول إيميليو إيرناندو بونيلي (Emilio Hernando Bonelli) إبراز نفس هذه الصورة، وهو يتحدث عن ساكنة الساحل الصحراوي، حيث اعتبر نمط عيشهم بدائي، يقول في هذا الصدد: "تعيش [ساكنة الساحل] حياة بائسة، وقليل منهم من يرتدي ملابس، غالبيتهم العظمى ترتدي مخيطات جلدية، مصنوعة من جلد الغنم

¹-Emilio Bonelli, *Nuevos Territorios*, op.cit., pp.22-23.

²- Ibid., p.20.

³- Francisco Bens Argandoña, *Por Segunda Vez en el África*, op.cit., p.50.

⁴-Emilio Bonelli, *Nuevos Territorios*, op.cit., p.24.

⁵-Ibid., pp.24-25.

⁶- سمير بوزويطة، مكر الصورة: المغرب في الكتابات الفرنسية (1832-1912)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط.1، 2007، ص.26.

⁷-Francisco Bens Argandoña, *Por Segunda Vez en el África*, op.cit., p.18.

⁸-Francisco Quiroga, "el Sáhara Occidental y Sus Moradores", *Revista de Geografía Comercial de Madrid*, Núm.25-30, Año II, Julio-Septiembre de 1886, p.71.

والبقرة والغزال والظباء وغيرها من حيوانات الصحراء (...) ساكنة هذه الفئة يقطنون في أكواخ أو أعشاش الذئب وفي المغارات¹.

يبدو من خلال النصوص التي أشرنا إليها أعلاه، أن الرحالين والمستكشفين الإسبان حاولوا انطلاقا من تلك الصورة، أن يبينوا شساعة الفرق الحضاري بين المجال الصحراوي وإسبانيا، الشيء الذي جعلهم يبررون مشروعية الغزو، بقولهم إن رسالتهم حضارية ونبيلة، تستهدف تطوير الإنسان والمجال، وليس استغلاله واستعباده!

3: صورة "الصحراء الغرائبية"

تعتبر هذه الصورة الأكثر حضورا وبروزا في هذه الكتابات الإسبانية، حيث شكّل مجال الصحراء الأطلنتية بالنسبة لهم ذلك "العالم المجهول والغرائبي"، الشيء الذي جعلهم يتوقفون عند مجموعة من الظواهر، التي اعتبروها غريبة وعجيبة وغير مألوقة، وتستحق الدراسة وتعميق البحث فيها. وانطلاقا من هذا المنظور، عمل فرانسيسكو بينس أرغاندونيا (Francisco Bens Argandoña) على إبراز عدد من الظواهر الغرائبية، التي وقف عليها في رحلاته المتعددة إلى دواخل الصحراء الأطلنتية. هذه الظواهر، تهم أساسا بعض العادات اليومية، مثل: طريقة الأكل، والنظافة، وحتى نستشف هذه الصورة بوضوح تام، سنقوم بإعطاء نماذج من تلك النصوص، حتى تتضح الرؤية، وتكتمل الصورة في هذا الإطار، يقول: "يقومون بشواء اللحم بطريقة غير كافية، حيث يبقى نيئا بعض الشيء، ثم يضعونه في صحن خشبية التي يستخدمونها، ويبدوون في الأكل عن طريق إدخال كل واحد أصابعه في نفس الصحن لسحب اللحم، وفيه يرمون العظام وبقايا اللحم. بعد ذلك ينظفون أيديهم بمسحها على الوجه والرأس والساقين، هذه العملية تعتبر بحق حماقة. بعد هذا الطبق يأتون بقدرح مليء بحليب الإبل، وصحنا من الأرز يمزجونه مع الحليب، كل هذا يأكل بأيديهم بدون أن يتدخل الماء في شيء على الإطلاق. أنا لم يكن لدي أي خيار سوى مشاركتهم في هذه القذارة، كانت معاناتي أكبر، عندما قدموا لي كوبا من حليب الإبل الحامض"². في الاتجاه نفسه، يقول: "بعضهم يعرفني مما سبب لهم الفرح، بينما أعرب آخرون عن دهشتهم، لأنهم قالوا لي إنها المرة الأولى التي يرون فيها نصرانيا"³. ويضيف قائلا: "ومن الأمور التي استرعت انتباهي طريقتهم المضحكة في تنظيف الأسلحة، وبعد أن نزع أحدهم مزلاج السلاح رأيت أنه أخذ عظما، وكان جافا، ثم التقط حجرا وكسره، واستخرج منه النخاع، ومرره على جميع القطع التي دهنها جيدا، وأخبروني أن العظم يعود إلى الغزال"⁴. في نفس السياق، نجد أن خوليو سيريرا بابييرا (Julio Cervera Baviera) حاول تعميق هذه الصورة، بل مزجها بالاستهزاء والفكاهة، ولتوضيح ذلك، نستمتع إلى ما يقول: "وفقا لسكان الصحراء، فإن بلدهم هو الأكثر جمالا وخصوبة ومتعة في العالم، وقد منحهم الرسول الأعظم محمد سهولا رملية واسعة، وغطاء نباتي غني وكثيف، مع آبار جميلة ذات ماء عذب وحلو، هذا بطبيعة الحال وفقا لهم. ولكن وفقا لنا، هي أراضي عبارة عن مستنقعات قذرة ومنتسخة ومثيرة للاشمئزاز، يرون أنهم قد منحهم محمد ماشية كبيرة من الجمال والأغنام والماعز، ومنحهم كذلك حسب رأيهم، نساء جميلات ودودات وحنونات، مكافأة لفضائلهم العالية، وكذا لإيمانهم الكبير بالله، حيث يكرسون كل الساعات للغناء والإشادة بالنبي"⁵.

¹-Emilio Bonelli, *Nuevos Territorios*, op.cit., pp.21-22.

²-Francisco Bens Argandoña, *Por Segunda Vez en el África*, op.cit., pp.30-31.

³-Ibid., p.41.

⁴- Ibid., p.22.

⁵- Julio Cervera Baviera, *Viaje de Exploración*, op.cit., p.3.

ودون الإسهاب في استعراض مجمل هذه النصوص، نستخلص أن الهدف من تلك الصورة، هو تصوير إنسان هذا المجال الصحراوي، كمتخلف، وبدائي، وغير متحضر، بحاجة ماسة إلى تجاوز الفوضى والتأخر، على ضوء الحضارة الأوروبية¹، المتقدمة والمتحضرة!

4: صورة "صحراء الأزمة والفوضى"

اعتبر عدد كبير من الرحالين والمستكشفين الإسبان، أن الصحراء الأطلنتية هي صحراء الفوضى والأزمة، صحراء لا تنالها الأحكام²، ومن الصعب أن تخضع لأحد³. وقد روجوا لهذه الصورة، على نطاق واسع، محاولين من خلالها، تبرير مشروعهم الاستعماري في المنطقة، حيث اعتبروا أن المنطقة يسكنها فقط للصوص وقطاع الطرق ومجموعة من الناهيين⁴، الشيء الذي جعلهم يدعون إلى تجاوز التأخر والفوضى في هذه الفيافي. في ضوء كل هذا، أقدمت هذه الكتابات إلى تعميق هذه الصورة، حيث نستشف ذلك بوضوح في مجموعة من النصوص. في هذا الصدد، يقول فرانسيسكو بينس أرغاندونيا (Francisco Bens Argandoña): "إن القبائل التي توجد في مناطق نفوذنا لا يوجد أمن على الإطلاق، وهذا هو السبب في انتشار عملية النهب والسرقة"⁵. وفي السياق ذاته، اعتبر إيميليو إيرناندو بونيلي (Emilio Hernando Bonelli) أن قبيلة أولاد دليم هي قبيلة النهب والسرقة بامتياز. في هذا الجانب، يقول: "تشتهر قبيلة أولاد دليم بالعدد الكبير من اللصوص، والتي يستحيل القضاء عليها بالرغم من صراعاتها المستمرة مع القبائل الأخرى"⁶. في نفس الاتجاه، يقول خوليو سيريرا بابييرا (Julio Cervera Baviera): "قبيلة أولاد دليم تتمتع بشهرة كبيرة في قطع الطرق، ومكرسة حياتها للتسكع ولسرقة القوافل التجارية الكبرى"⁷. انطلاقاً مما ذكر، نستنتج أن الرحالين والمستكشفين الإسبان حاولوا من خلال هذه الصورة، إبراز أن الصحراء الأطلنتية، هي صحراء ينعهد فيها الأمن، ينتشر فيها السرقة والنهب، تعيش حالة الفوضى، تمر بمرحلة أزمة، كل هذا من أجل شيء وحيد، هو تبرير مشروعية الغزو. لتأمل ملياً ما قاله الجنرال فرانسيسكو فرانكو (Francisco Franco)، عند زيارته للصحراء الأطلنتية سنة 1950م: "إن إخوانكم الإسبانين لم يأتوا هنا لكي يشوشوا على سلامكم وحريةكم وسيادتكم، بل جاءوا لأجل مساعدتكم ولكي يوفروا لكم ما أنجزته الحضارة من تقدم، وليوجدوا لكم المستشفيات والأطباء وكل الوسائل التي توصل إليها العلم، من أجل العناية بما تشكون منه وتعالج ألامكم"⁸.

وهكذا، نلاحظ مما سبق، أن الكتاب والباحثين الإسبان تمكنوا من تكوين صورة تقريبية عن المنطقة الصحراوية وساكنتها، صورة لم تكن واقعية، وفي نفس الوقت، لم تكن صورة متخيلة، بل صورة حاولوا من خلالها، تكريس النظرة الاستعلائية، المبنية على التفوق الغربي، وعلى هيمنة الحضارة الغربية. إنها خلفية كولونيالية استعمارية اقصائية، تحاول احتقار الآخر وإذلاله، والتنقيص من شأنه وقيمته، وسلب حقوقه وممتلكاته.

¹ - محمد سي، الصحراء بعيون إسبانية: رحلات واستكشافات 1864-1914، مطابع الرباط نت، الرباط، ط.1، 2017، صص. 179-181.

²-Francisco Quiroga, "el Sáhara Occidental", op.cit., p.71.

³-Ibidem.

⁴- Francisco Bens Argandoña, **Por Segunda Vez en el África Occidental**, op.cit., p.26.

- Emilio Bonelli, **Nuevos Territorios**, op.cit., p.23.

⁵-Francisco Bens Argandoña, **Por Segunda Vez en el África Occidental**, op.cit., p.26.

⁶-Emilio Bonelli, **Nuevos Territorios**, op.cit., p.23.

⁷-Julio Cervera Baviera, **Viaje de Exploración**, op.cit., p.9.

⁸ -Javier Ruiz, "la Tierra de los Hombres Azules Colonización del Sáhara:1860-1967", Artículo en: **Historia**, Número 16, Año IV, Extra IX, Abril 1979, p.67.

خاتمة:

يبدو من حصاد ما سلف، أن الرصيد الوثائقي الإسباني حول مجال الصحراء الأطلنتية، غزير ومتنوع، نفيس ونادر، نظرا لما يزخر به من معطيات ومعلومات قيمة في غاية من الأهمية، من شأنها، إذا ما استغلت بالكيفية المثلى، أن تساعنا لا محالة على ملأ الفراغ المعرفي الذي تشكو منه الكتابات المحلية، المتميزة بالشح والابتسار، على صعيد عناصرها الإخبارية. وعليه، فالعودة إلى هذه الكتابات الإسبانية، رغم نظرتها الاستعلائية وأحكامها المسبقة، وخطابها الذي يشرعن للغزو والهيمنة، أضحى اليوم ضرورة ملحة، يفرضها البحث التاريخي المعاصر، من أجل الاستفادة منها، خاصة في مقارنة مواضيع وقضايا جديدة، تهم أساسا: التاريخ الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والديني للصحراء الأطلنتية، على الأقل منذ أواسط القرن التاسع عشر وإلى قبيل الجلاء الإسباني عن المنطقة. صحيح أن هذه الكتابات الإسبانية، لن تمكننا أبدا من رسم صورة شاملة وكاملة وواضحة، حول تاريخ المنطقة الصحراوية وحضارتها، بيد أنها على الأقل بإمكانها أن تستكمل لنا بعض التصورات، وتسد بعض الفجوات، التي تعاني منها مصادرنا المحلية، الشيء الذي يحتم علينا التنقيب عليها وجمعها والتعريف بها، ولما لا تعريبها وتحقيقها، حتى يتحقق المراد منها، وهو كتابة تاريخ المنطقة الصحراوية، بشيء من الدقة والموضوعية.

قائمة المراجع:

1. يوسف أكمر، "الخطابات التاريخية الإسبانية المتخصصة في شمال المغرب ما بين 1860-1956: خصوصيتها ومميزاتها"، ضمن ندوة بعنوان: من الحماية إلى الاستقلال: إشكالية الزمن الراهن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 133، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1، 2006.
2. عبد الرحيم برادة، إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1931-1956، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط.1، 2007.
3. سمير بوزويتة، مكر الصورة: المغرب في الكتابات الفرنسية (1832-1912)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط.1، 2007.
4. محمد دحمان، "الكتابات التاريخية الإسبانية حول منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب: قراءة سوسيو-تاريخية"، مجلة المناهل، الرباط، العدد 89-90، 2011.
5. محمد سبي، الصحراء بعيون إسبانية: رحلات واستكشافات 1864-1914، مطابع الرباط نت، الرباط، ط.1، 2017.
6. عبد العزيز السعود، الاستعمار الإسباني في المغرب: المقاومة المسلحة والنضال الإصلاحي والسياسي الوطني، مطبعة تطوان، منشورات مؤسسة الشهيد أحمد بن عبود، تطوان، ط.1، 2016.
7. مصطفى الشابي، "أهمية المصادر الدفينة في كتابة تاريخ المغرب"، ضمن النهضة والتراكم، دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة للأستاذ محمد المنوني، دار توبقال، سلسلة المعرفة التاريخية، الدار البيضاء، ط.1، 1986.
8. بيدرو غوميز مورينو، آبار الصحراء، ترجمة أحمد صابر، وتقديم خوسي كلايريا برينافيتا، إدك للطباعة والنشر، الرباط، ط.1، 2018.
9. محمد العربي المساري، "الأفريقية الإسبانية في صيغتها المجددة"، مجلة دراسات، أكادير، العدد 15، 2012.
10. Francisco Bens Argandoña, España en el Sahara Occidental, Tipografía San Justo, Las Palmas, 1907.

11. Julio Cervera Baviera, **Viaje de Exploración Por el Sahara Occidental: Estudios Geográficos**, Boletín de la Sociedad Geografía de Madrid, Madrid, 1887.
12. Julio Cervera Baviera, "Expedición al Sahara de Rio de Oro a Iyil", **Revista de Geografía Comercial de Madrid**, Núm.25-30, Año II, Julio-Septiembre de 1886.
- 13.-Emilio Bonelli, **el Sahara: Descripción Geográfica, Comercial y Agrícola Desde Cabo Bojador a Cabo Blanco, Viajes al Interior, Habitantes del Desierto y Consideraciones Generales**, Tipolitografía de L. Péant é Hijos, Ministerio de Fomento, Edición oficial, Madrid, 1887.
14. Emilio Bonelli, **Nuevos Territorios Españoles de la Costa del Sahara**, Imprenta de Fortanet, Madrid, 1885.
15. Dos Oficiales del Ejército, **Posesiones Españoles en el África Occidental**, Imprenta y Litografía del Depósito de la Guerra, Madrid, 1900.
16. Joachim Gatell, "L'Ouad-Noun et le Tekna à la Côte Occidentale du Maroc", **Bulletin de la Société Géographie de Paris**, Cinquième Série, T.XVIII, Année 1869, Juillet-Décembre.
17. Francisco Quiroga, "el Sáhara Occidental y Sus Moradores", **Revista de Geografía Comercial**, Núm.25-30, Año II, Julio-Septiembre de 1886.
18. Francisco Rio del Joan, **África Occidental Española (Sahara y Guinea)**, Imprenta de la Revista Técnica de Infantería y Caballería, Ministerio de Estado-Sección Colonial, Madrid, 1915.
19. Antonio Martínez, "un Viaje a Ninguna Parte: Visiones Políticas, Proyectos Sanitarios y Discursos Científicos de los Médicos Españoles en Marruecos (1878-1913)", **Hesperis-Tamuda**, Vol.XVIII, 2008.
20. Pablo Ignacio de Dalmases y de Olabarría, **El Sáhara Occidental en el Bibliografía Española y el Discurso Colonial**, Tesis Doctoral Sin publicar, Barcelona, Universidad Autónoma de Barcelona, Departamento de Historia Moderna y Contemporánea, 2012-2013.
21. Eduardo Hernández-Pacheco y Otros, **el Sahara Español: Estudio Geológico, Geográfico y Botánico**, Instituto de Estudios Africanos, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1949.
22. Antonio de San Martín, **la Ciudad del Sueño: Viaje al Interior de Marruecos**, Imprenta de Santos Larié, Editor Urbano Manini, Madrid, 1870.
23. Lorenzo Rubio, "Conferencia Sobre Río de Oro", **Revista de Geografía Comercial**, Núm.18, Año II, 15 de Marzo de 1886.
24. José Luis Villanova, "la Sociedad Geográfica de Madrid y el Colonialismo en Marruecos Entre 1876 y 1912 a Través de las Actas de Reuniones de Consejo de Administración", Artículo en un Libro Colectivo Titulado: **Agadir en Torno a 1911: Aproximaciones Historiográficas Hispano-Marroquíes al Agadir del Siglo XIX y Principios del XX**, Imprenta Souss, Edición Facultad de Letras y Ciencias Humanas Ibn Zohr, Agadir, Primera Edición, 2014.

25. Aniceto Ramos Charco-Villaseñor, **Del Sáhara Español: Río de Oro**, Talleres Tipográficos de la Asociación de Huérfanos de Infantería, Toledo, 1935.
26. Francisco Lorenzo Díaz Del Ribero, **el Sahara Occidental: Pasado y Presente**, GISA Ediciones, S. A., Madrid, 1975.
27. Julio Caro Baroja, **Estudios Saharianos**, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 1955.

العوامل البيئية وعلاقتها بالإبداع الإداري :

دراسة ميدانية بشركة توزيع الكهرباء والغاز للوسط - البليدة - المدية

Environmental factors and their relation to administrative creativity

A practicing study in the company of distribution of electricity and

gas to the center - Blida - Medea

د.نصرالدين بن عودة/جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر

ملخص :

ظهر مدخل معاصر في دراسة قضايا الإدارة العامة وظواهرها يعرف بالمدخل البيئي ويهتم بدراسة العوامل الاجتماعية والنفسية والإنسانية، وإبراز العلاقة بين الإدارة وبيئتها، ويرى رواد هذا المدخل أن الأنماط الإدارية والوظيفية في كل بلد تتأثر بمؤثرات البيئة الخارجية والداخلية للمنظمة مع النظر إلى الإدارة كنظام اجتماعي مفتوح يؤثر ويتأثر بالبيئة المحيطة، و سيجادل الباحث تناول العوامل البيئية الخارجية للمنظمة (البيئة الأسرية والمدرسية) ودورها في التأثير على السلوك والتصرفات لتحقيق الإبداع الإداري.

الكلمات المفتاحية: الإبداع الإداري، الأسرة، المدرسة.

Abstract :

A contemporary approach to the study of public administration issues and their phenomena is known as the environmental approach. It is concerned with studying social, psychological and human factors. And to highlight the relation

ship between management and its environment, The pioneers of this approach see that the administrative and functional patterns in each country are influenced by the influences of the external and internal environment of the organization with regard to management as an open social system that affects and affects the surrounding environment, The researcher will try to address some of the external environmental factors of the organization (family and school environment) and its role in influencing behaviors and behaviors to achieve administrative innovation.

Keywords : administration creativity, Family, School .

مقدمة :

إن الإبداع الإداري ظاهرة مختلفة نسبيا عن الاختراع التقني و الفني الذي ينشأ بمقدرة أفراد موهوبين و متفوقين ، و لذلك فهو مجهود جماعي يستند إلى سياسة عامة تقوم بها إدارة المؤسسة. وقد يتعرض العاملون لمؤثرات من خارج بيئة العمل تؤثر على القدرات الإبداعية لديهم، ويبدأ هذا التفاعل في نطاق الأسرة التي تشكل التنشئة الاجتماعية الأولى للفرد ودورها في صياغة و تطوير شخصية الطفل ودفعه إلى تحقيق التميز السلوكي، ومما لا شك فيه أن دور الأسرة جوهري في بناء شخصية الطفل وطريقة تفكيره ونمط سلوكه واتجاهاته ومعتقداته، وخاصة في السنوات الست الأولى من حياة الطفل ودورها كبيئة تحتضن الطفل وتلعب الأسرة دورا أساسيا في حياة الطفل وشخصيته ومستقبله، فهي إما أن تسهم في تنمية شخصيته وتطورها وتنمية قدراته التفكيرية وإكسابه المهارات الإبداعية ، أو تسهم في طمس شخصيته وتحطيمها من خلال دورها السلبي في تقدير مواهب طفلها، وبسبب الأساليب الخاطئة التي تتبعها في تربية طفلها تنتج معوقات للتفكير الإبداعي ، مما يخفض فرص الإبداع و التجديد في عقول الأطفال.

وتأتي المدرسة بعد الأسرة في سلم التنشئة الاجتماعية للأفراد معرفيا وسلوكيا ومهنيا ، وهي حلقة مكملة للتربية الأسرية، والمدرسة مؤسسة اجتماعية وتربوية نظامية مسؤولة عن توفير بيئة تربوية تهدف إلى تنمية شخصية التلميذ من جميع جوانبها الجسمية و العقلية و النفسية و الانفعالية و الاجتماعية و العلمية و الأخلاقية على نحو متكامل بالإضافة إلى مسؤوليتها عن توفير فرص الإبداع و الابتكار له، فوظيفة المدرسة تتضمن تزويد التلميذ بالمعلومات و المعارف ، وتعليمه كيف يوظفها في حياته العملية وكيف يستخدمها في حل مشكلاته ، وتنمية نفسه وشخصيته ومجتمعه. ويبرز دور المدرسة الحديثة على الإعداد و التنشئة و التعليم وأيضا تبني التغيير و التطوير و التجديد. ولهذا فان دراستنا هذه تحاول معرفة العلاقة بين العوامل البيئية(الأسرة و المدرسة) والإبداع الإداري

أولا: الإطار المنهجي للدراسة

1- أهمية الدراسة

- معرفة كيف يمكن أن تكون البيئة السائدة أو المحيطة بالمنظمة قوة دافعة لتحسين أداء العاملين وزيادة قدراتهم الإبداعية، و كيف يتم استغلالها لتحقيق أهداف المنظمة بكفاءة وفعالية.

- محاولة معرفة مميزات وخصائص المؤسسات الاقتصادية الجزائرية ومدى تبنيها لثقافة الإبداع، ومدى مساهمتها في تفجير الطاقات الإبداعية.

- الغرض من الدراسة توجيه الاهتمام بالعوامل البيئية الخارجية للمؤسسة من خلال الأسرة و المدرسة في تكوين شخصية المبادرة و الابتكار و الإبداع لدى الطفل و التلميذ على التوالي وهل هناك تكامل و تواصل القيم و المعايير بينها او تضاربها.

2- أهداف الدراسة

- تهدف للكشف عن جوانب الإبداع الإداري في المؤسسة، و تحديد المعوقات البيئية التي تحد منه.

- إن الهدف الذي نسعى الوصول إليه إمداد المسؤولين ببيانات و توصيات و مقترحات مستمدة من دراسات ميدانية تساعد على بناء وتطوير ودعم القرارات الإبداعية و الارتقاء بمستوى أداء العاملين.

3- إشكالية الدراسة :

في ظل التحولات الدولية وما تتضمنه من تقدم علمي وتكنولوجي وتطور في كافة المجالات ، وما تعيشه المنظمات الجزائرية من ظروف متغيرة ومعقدة ، نتيجة التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، تفرض عليها تحديات عديدة ينبغي عليها مواجهتها ، وان التحدي الأكبر الذي تواجهه هو قدرتها على تبني آلية مناسبة لتحفيز و دعم القدرات الإبداعية ، والتي تمكنها من تطوير و خلق حلول و أفكار للوضعية التي تعيشها و للمشاكل التي تواجهها.

ولدراسة العوامل التي تحفز على الإبداع أو تعرقل تحقيقه ركزت بعض الدراسات على العوامل التي قد تعترض العاملين نتيجة لمؤثرات من خارج بيئة العمل و التي تتحكم وتتصرف في سلوكهم و تؤثر على القدرات الإبداعية لديهم ، فالتفاعل بين الفرد و المجتمع و ما يحتويه من عوامل و متغيرات هو الذي يحدد شخصية الفرد و سلوكه و استعداده للإبداع و التفوق و التميز ، ويبدأ هذا التفاعل في نطاق الأسرة التي تشكل التنشئة الاجتماعية الأولى للفرد ودورها في صياغة و تطوير شخصية الطفل و دفعه إلى تحقيق التميز السلوكي ، فمن الأسرة يتعلم كيف يكون مبدعا ، و كيف يستطيع تنمية خصائصه الذاتية ، فهي تسهم في تشكيلة شخصية الفرد ليكون مبدعا أو تقليديا ، وبذلك فان الأسرة تملك القدرة على أن تكون من العوامل الإيجابية التي تبلور مواهب الأطفال الإبداعية ، كما يمكن أن تكون عوامل هدم تحجم بواذر الإبداع عند الطفل . أما المؤسسة الاجتماعية الثانية وهي المدرسة ، فهي بدورها تؤثر على الفكر الحر للتلميذ من خلال طرق التربية و التعليم المتبعة في المدارس التعليمية بمختلف مراحلها. فعندما تكون طرق التعليم تلقينية تعتمد على الحفظ ثم إتباع ذلك بصمها في الامتحان دون أن يطلب من التلميذ تحليلها أو التفكير فيها ونقدها والزيادة عليها والاستنتاج منها ، فان ذلك يشكل طريقة تفكير هذا التلميذ ويحوله إلى كتلة متلقية غير قادرة على استيعاب المعلومات أو الاستفادة منها بتمثلها في حياته أو ربطها بواقعه المعاش ، وبالتالي تتضاءل فرصة تطوره لما تعلم وإقدامه على إبداع الجديد . أما عندما تعمل طرق التعليم بهدف تشجيع التلميذ على إعمال عقله وحواسه بالملاحظة و التحليل و الفهم والتميز والاستنتاج ، فان ذلك يجعل موقفه من المدرسة و العلم ايجابيا ويزيد من فرص فهمه واستقلالية فكره وتقدم أدائه سواء في الامتحانات الدراسية أو في امتحانات الحياة العملية أو المهنية لاحقا .

مما سبق يمكن القول أن مجموعة العوامل السابقة تؤثر في بعضها ، كما تؤثر على السلوك الأدائي و الإبداعي للعاملين ، و بالتالي فان سلوك الفرد و أدائه و قدراته الإبداعية تختلف بين بيئة العمل المنفرة وبيئة العمل الجاذبة. وعليه أردنا أن ندرس و نفهم ما تواجهه الأجهزة الإدارية من مشكلات في جانب الإبداع الإداري و السبب المؤدي إلى ذلك ؟ وهل هي قوة دافعة لتحسين أداء العاملين وزيادة قدراتهم الإبداعية أم يمكن أن تكون عكس ذلك ؟ ومن ثم تبلورت مشكلة الدراسة في التساؤل الرئيسي الآتي :

ما دور العوامل البيئية في تنمية وتطوير الإبداع الإداري ؟

يمكن ترجمة هذا الطرح من خلال التساؤلات الآتية :

- هل للبيئة الأسرية دور في تكوين شخصية الفرد وتنمية قدراته الإبداعية ؟

- هل النظام التعليمي القائم يعمل على تنشيط قدرات المتعلمين الإبداعية ؟

لمحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة تم صياغة الفرضيات البحثية الآتية :

- للبيئة الأسرية أثر على تنمية القدرات الإبداعية لأبنائها.

- عجز المدرسة ونظامها التربوي عن توفير بيئة تربوية معرفية ومهنية وعن تكوين نظام تعليمي إيداعي يجلب بيئة غير محفزة للاهتمام بالإبداع.

4- المفاهيم الإجرائية:

أ - الإبداع الإداري : نقصد بالإبداع الإداري في هذه الدراسة:

هو الأداء المتميز الذي ينتج عنه عمل ايجابي جديد، أو الانجاز بصورة تشكل تحسينا وتطويرا وإضافة إلى الموجود بطريقة تعطي قيمة أو فائدة إضافية ، وهو مجموعة من العمليات والإجراءات والسلوكيات التي تقوم على تطوير قدرات العاملين للمساهمة في حل المشكلات وتوليد الأفكار الجيدة والإتيان بأشياء جديدة ومفيدة قد تكون فكرة أو عملية أو نشاط أو أسلوب عمل أو تغيير إجراءات وأساليب تسيير الإدارة أو حل مميز لمشكلة ما ، يحقق فيها أهداف المنظمة.

ب - الأسرة : يمكن تعريف الأسرة من خلال هذه الدراسة:

على أنها نسق اجتماعي والإطار الذي ينمو فيها الطفل المبدع وتتشكل ملامح شخصيته ، فالأسرة بأساليب تنشئتها الايجابية تقوم بدور مهم في تنمية القدرات الإبداعية لدى أطفالها، حيث تتولى رعاية الأطفال والعناية بشؤونهم من النواحي الجسمية والنفسية والفكرية والاجتماعية والدينية ، ويقع على عاتقها مسؤولية معرفة الطفل المبدع وحضانتها وتربيته ومراقبته وترتبط قدرات الأبناء الإبداعية بحجم الأسرة ومستواها التعليمي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي وبالعلاقات الايجابية بين الوالدين والممارسات والاتجاهات الوالدية وإتباع الأساليب التربوية السوية.

ج - المدرسة : يمكن تعريف المدرسة من خلال هذه الدراسة :

هي نسق اجتماعي ووظيفتها تتضمن تزويد التلاميذ بالمعلومات والمعارف، وتعليمهم كيف يوظفونها في حياتهم العملية وكيف يستخدمونها في حل مشكلاتهم، ولا يقتصر دورها على التنشئة الاجتماعية والتعليم ، بل تتعدى ذلك وتقوم بعملية إعدادهم للحياة المهنية والأكاديمية، وانطلاقا من ذلك فان البيئة المدرسية الايجابية تقوم بدور مهم في تنمية القدرات الإبداعية لدى التلاميذ، والتي تشكل نتيجة لتفاعل جملة من الظروف المادية والتعليمية فهي بفلسفتها ومنهجها والبناء المدرسي والبرامج والمواد الدراسية وطرق التدريس والخدمات التوجيهية والصحية والنشاطات الاجتماعية والثقافية والتربوية المرتبطة بالمنهاج الدراسية ومناخها المدرسي ، يبرز دورها في تشكيل قدرات التلاميذ واستعداداتهم وتوجيههم وتنمية دوافعهم.

5 - المقاربة السوسولوجية

الاقتراب السوسولوجي في نظر عمار بوحوش هو تحديد الزاوية الفكرية أو الاتجاه النظري الذي نتناول منه دراستنا.^[1] على هذا الأساس واعتمادا على طبيعة موضوع الدراسة وهدفها ، فإننا اعتمدنا في دراستنا على البنائية الوظيفية لتالكوت بارسونز Talcott parsons كتوجيه نظري دون أن نهمل التنشئة الاجتماعية التي تندرج في إطار البنائية الوظيفية .

وبهذا فالبنائية الوظيفية تعني تماسك المؤسسات الاجتماعية وانسجامها حتى تتمكن من تحسين أدائها الوظيفي ، ويستطيع كل نسق القيام بعملياته الاجتماعية على ضوء بنائه الداخلي الذي يوجد فيه سواء أكان بنية مادية أو بنية اجتماعية.^[2]

1. عمار بوحوش، محمد الذنبيبات، مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1995. ص89.

2. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر دراسة تحليلية ونقدية ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، 1991، ص75.

ان المؤسسات التي قدمها بارسونز تقوم ببناء فعل اجتماعي (سلوك أو تفكير إبداعي) يتصرف الفاعل (الطفل، التلميذ، الطالب، الموظف) حسب المعايير و القيم و الضوابط و التوجيهات الدورية و النمطية و الثقافية التي اكتسبها من المؤسسات التي عاش فيها أو تعايش معها (الأُسرة، المدرسة، المنظمة...) فيظهر فعله نمطا تنميطا نسقيا. وان النكوص عن هذه المعايير سيؤدي إلى خلل في النظام الاجتماعي، و الذي يسميه بارسونز بالانحراف الناتج عن خلل في التنشئة الاجتماعية.^[1]

وعلى ذلك يمكن القول بان البيئة الأسرية بأساليب تنشئتها الايجابية تقوم بدور مهم في تنمية القدرات الإبداعية لدى أطفالها، بحيث تتيح للطفل الفرصة للتعبير عن حاجاته، وهي التي تشجع حب الاستطلاع والثقة في النفس والاستقلالية في التفكير والنقاش و الحوار، وعليها التخلص من الأساليب التسلطية و التي تعتبر من معوقات التفكير الإبداعي للطفل كاستخدام أساليب الضغط و التهديد و التوبيخ و السخرية والتدليل و الإهمال، وهي تمثل الانحرافات التي قصدها بارسونز.

وتعتبر المدرسة البيئة الثانية التي يواصل الطفل فيها نموه وإعداده للحياة المستقبلية، يدخلها ليستكمل تنشئته وفي قالب تربوي منظم. ويرى بارسونز أن مسؤولية المدرسة لا تقتصر على إعداد التلاميذ للتعامل مع المجتمع سريع التغير الذي سيواجهونه عندما يكبرون، فان النظام التعليمي يجب أن يعمل على إمداده بأشخاص يستطيعون تطوير المعارف و الأساليب الجديدة، وتبذل جهود لتطوير محتويات المناهج التقليدية وإذا توفرت الوظائف فان أي نقص في إعداد التلاميذ أو الخرجين يمكن تلافيه بالتدريب و التكوين قبل العمل أو أثناءه من قبل قيادة المؤسسات أو من طرف متخصصين. وأكد بارسونز على أن النظام التعليمي هو المسؤول عن إعداد الموارد البشرية المؤهلة اجتماعيا ومهنيا، للقيام بدورها المستقبلي فيه - النسق الاجتماعي- ووظيفة المدرسة عند بارسونز الاكتشاف المبكر لقدرات التلاميذ واستعداداتهم وتوجيههم وتنمية دوافعهم للعمل، أما دور المعلم فهو مساعدة التلاميذ على إدراك ومعرفة قدراتهم وتوجيههم.

ثانيا: الاطار النظري للدراسة

1- مفهوم الإبداع الإداري

إن كلمة الإبداع في اللغة العربية هي من فعل "أبدع" أي "بدع الشيء" والذي يعني أنشأه على غير مثال سابق^[2]. وفي اللغة الانجليزية تعني كلمة "Innovate" إحداث أو إيجاد شيء جديد.

لكن أصل كلمة الإبداع لاتيني من "Novus" وتعني جديد.

ذكر الإبداع في القرآن الكريم، حيث يقول رب العزة جل وعلا " بديع السماوات والأرض (سورة البقرة) الآية 116، أي مبتدعها على غير مثال سابق.

ويعرفه حسين حريم "الإبداع هو تطبيق فكرة طورت داخل المنظمة، أو تمت استعارتها من خارج المنظمة، سواء كانت تتعلق بالمنتج أو الوسيلة أو النظام أو العملية أو البرنامج أو الخدمة، وهذه الفكرة جديدة بالنسبة للمنظمة حينما طبقها".^[3]

1 - عامر مصباح، علم الاجتماع الرواد و النظريات، شركة دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع، برج الكيفان، الجزائر، 2005، ص ص 116-117.

2- علي بن هادية، القاموس الجديد للطلاب، ط7، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص 143

3- حسن حريم، السلوك التنظيمي - سلوك الأفراد و المنظمات، دار زهران للنشر و التوزيع، عمان، 1979، ص 345

ويعرفه القريوتي بأنه " القدرة على ابتكار أساليب وأفكار يمكن أن تلقى التجاوب الأمثل من العاملين وتحفزهم لاستثمار قدراتهم ومواهبهم لتحقيق الأهداف التنظيمية." [1]

الإبداع هو القدرة على تكوين وإنشاء شيء جديد، أو دمج الآراء القديمة أو الجديدة في صورة جديدة ، أو استعمال الخيال لتطوير وتكييف الآراء حتى تشبع الحاجيات بطريقة جديدة ، أو عمل شيء جديد ملموس أو غير ملموس بطريقة أو بأخرى. [2]

2- أهمية الإبداع الإداري

يلخص "علي السلمي" أهمية الإبداع في النقاط والمجالات الآتية: [3]

● الأهمية الثقافية: إن الإبداع يخلف تيارات ثقافية متجددة وحيوية معتمدة على الإنتاج الذاتي للنظم وهو الأمر الذي يغذي ثقافة الأمة ويدعم جهود أبناءها من الفئة المثقفة.

● الأهمية الاقتصادية: يفضل الإبداع والابتكارات الجديدة توفر الأمة نفقات وجهود معتبرة، حيث تعمل على بلوغ مستوى أفضل للأداء الاقتصادي.

● الأهمية التقنية: يسهم الإبداع في التطور التكنولوجي، كهدف أولي للاختراع العلمي والذي يمكن أن يطور الماكينات والآليات.

● الأهمية الحضارية: إن حضارة الأمة تتقدم بفضل الإبداعات والابتكارات بفضل تطوير الرسائل المادية كالنقل والمواصلات وتطوير الوسائل النظرية من أفكار ومناهج علمية في الحياة.

3- ملامح الإداري المبدع :

- الإداري المبدع هو الذي يحاول دوما التفكير بطرق جديدة للعمل.

- يتصف الإداري المبدع بالمرونة والقدرة على التكيف والتجريب ويشكك بالقضايا التي يمكن أن يعتبرها عامة الناس مسلمات.

- الجرأة في إبداء الآراء والمقترحات، ومناقشة التعليمات والأوامر الصادرة من المراجع العليا.

- القدرة على التعامل مع مقتضيات التغيير، فالمبدع يتحمل التعامل مع المواقف الغامضة لأنها تثير في نفسه البحث عن الحلول.

- الثقة بالنفس وبالآخرين، فالمبدع لا يستسلم بسهولة بالفشل شيء يتوقعه الإداري المبدع ولكن

² - محمد قاسم القريوتي ، السلوك التنظيمي ، دراسة السلوك الإنساني الفردي و الجماعي في المنظمات المختلفة، دار الشروق للنشر و التوزيع، ط4 ، الأردن، 2003 ص. 314 .

² - طارق سويدان ، محمد الاكرم العدلوني ، مبادئ الإبداع ، شركة الإبداع الخليجي للاستثمارات و الترتيب ، الصفات ، ط3 ، الكويت ، 2004، ص18.

³ - علي السلمي، خواطر في الإدارة المعاصرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة 1998، ص44

ذلك لا يزيده إلا تصميمًا.^[1]

4- مقاييس الإبداع الإداري

إن منهاج قياس الإبداع تسير موازية لمنهاج تعريفه، حيث تركز على خصائص الفرد والعملية والمنتج.^[2]

المقاييس المبنية على أساس الفرد:- مقاييس الشخصية: يتضمن تشخيص الفرد المبدع وتحديد مستوى إبداعه، ويتم إدراك الشروط التي تميز بين أصحاب الإبداع العالي وأصحاب الإبداع الأقل.

- رصيد السيرة الذاتية: يتم التركيز في هذه الحالة على أحداث حياة وخبرات الشخص المبدع.

- اختبارات القدرة الإبداعية: ويدور حول اختبارات الورقة والقلم، حيث تقدم إلى الشخص المبدع في شكل سلسلة من المشاكل ويطلب منه إيجاد حل لها.

المقاييس المبنية على الناتج: ونقصد بنوع الناتج المقدم من الشخص المبدع، ومعرفة إذا كان يتصف بالأصالة وبعده عن المألوف.

المقاييس المبنية على العملية: وهذا بالتعرف على المهارات والأساليب التي يعتمد عليها أو يستعين بها الشخص المبدع لإنتاج أفكاره الأصلية ومعرفة كيف يتعامل مع المواقف والأحداث وبما يستعين.

5- نظريات الإبداع الإداري

هناك عدة نظريات للإبداع يشار إلى أهمها كالتالي:^[3]

- نظرية التحليل النفسي: وهنا ينظر للإبداع باعتباره نوعاً من هروب الفرد من واقعه الحالي إلى حياة خيالية رائعة لا وجود فيها للإحباط أو القلق، ولأنه يريد الثروة والقوة والشرف، ولكن تنقصه الوسائل للوصول إلى هذه الأشياء وإشباعه، فهو يلجأ إلى الإعلاء أو التسامي لتحقيق رغباته المكبوتة من خلال الإبداع.

- النظرية الموقفية السلوكية: وتعزى إلى التعلم والاكتماب وحل المشكلات بطريقة إبداعية، أكثر من تركيزها على الخصائص البيولوجية أو النفسية للفرد، حيث كانت العوامل الداخلية في إطار هذه النظرية تتضمن العوامل الاجتماعية والتنظيمية التي من بينها حرية التصرف والأثر الإيجابي للمواقف على الشخص والقيادة، والتغذية المرتدة والتقدير والبناء التنظيمي.

- النظرية البيولوجية: تركز على الصفات البيولوجية للفرد وبخاصة ما يتعلق بوظيفة المخ أو الدماغ بالنسبة للإبداع، وهذه النظرية تؤكد أن هناك طاقة غير محدودة في مخ الفرد تمكنه من القيام بمهام متعددة ومعقدة أكثر مما يعتقد.

- نظرية العبقرية: حسب هذه النظرية يأتي تفسير الإبداع بالعبقرية أو الجنون على اعتبار أن المبدعين غير عاديين لأنهم يأتون بإنتاجات أو أعمال غير مألوفة وغريبة فلا بد من أنهم يتعاملون مع الأرواح أو الجن، حتى ذهب بعضهم إلى أن المبدعين يتعاملون مع الآلهة التي توحى إليهم بإبداعاتهم و التي تولد الأفكار الإبداعية وتنفخها في عقول الناس. إن العبقرية حسب هذه النظرية

1 - محمد قاسم القريوتي، السلوك التنظيمي، دار وائل للنشر، ط5، الأردن، 2009، ص263

2 - محمود حسن حسني، ترجمة لنيجل كنج و نيل أندرسون، إدارة أنشطة الابتكار والتغيير، دار المريخ للنشر، الرياض، 2004، ص 45 - 48.

3- عامر خضير الكبيسي، إدارة المعرفة و تطوير المنظمات، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2004، ص244.

يستطيع تجاوز المعرفة الحالية وإنتاج شيء جديد بعصاه السحرية. إن عامة الناس ينظرون إلى الأعمال الإبداعية بأنها منتهج السحر و الجنون لأنها خارقة للعادة و المؤلفو ويعتقدون أن المبدعين أناس يمتلكون عقولا جبارة تختلف عن عقولهم. [1]

- النظريات الفلسفية: فقد رأى سقراط أن الإبداع نوع من الإلهام الإلهي الذي يقذفه في روح الشخص المبدع. ولقد شارك أفلاطون سقراط نفس التفسير لظاهرة الإبداع ولقد اعتبر بأنه سببه يعود إلى الإلهام الذي يأتي للفرد لحظة معينة ثم ينتهي. ويقصد أفلاطون تلك القوى الإلهية التي تلهم الفرد لإنتاج أفكار أو أعمال إبداعية. [2]

- النظرية الإنسانية: ترى أن الأفراد جميعا لديهم القدرة على الإبداع وأن ذلك يعتمد على المناخ الاجتماعي الذي يعيشونه ، فإذا كان المجتمع متحررا من القيود و التعصب بكافة أشكاله فان ذلك سيسمح للفرد بأن يتقدم في إبداعيته وتحقيق ذاته الأمر الذي يفتح الطريق أمام طاقات الإنسان لتخرج من أسرها وأن التلقائية و الحرية في التعبير عن محتويات طاقات الفرد الكامنة ستوصله إلى الإبداع. [3]

- نظرية البحث عن التميز: يرى كل من "بيترز و ترمان." أن المنظمة الرائدة و المتفوقة هي التي تتسم بدرجة عالية من الابتكار والإبداع وتعتمد على الرغبة والتحفيز للإنجاز وإعطاء الأسبقية دائما للفعل والشروع في الأداء بدلا من إنفاق الكثير من الوقت في التحليل، وفي الاجتماعات والتقارير التفصيلية للجان، وتنمية وتطوير العلاقات والصلات مع المستفيدين من الخدمة المقدمة من المنظمة للتعرف عليهم والاستفادة من اقتراحاتهم، ونبذ المركزية و إعطاء مجال أوسع من الاستقلالية للوحدات والأقسام و الأفراد و الجماعات بما يشجعها على التفكير المستقل ويحفزها على المنافسة و الأداء المتميز، و تنمية قدرات جميع العاملين وتعميق المبادئ التي تجعل كل فرد يقدم أفضل قدراته وجهوده، وتبسيط المستويات الإدارية وتوضيحها، وتنمية و تطوير بيئة تنظيمية تؤمن الانتماء للقيم الرئيسية للمنظمة، وتحقق في ذات الوقت المرونة ، و استمرار المنظمة في تقديم السلع والخدمات التي أثبتت فيها القدرة على التميز. [4]

6- دور الأسرة في تنمية التفكير الإبداعي لدى الأطفال

إن الأسرة بأساليب تنشائها الإيجابية هي التي تتيح للطفل الفرصة للتعبير عن حاجاته وأفكاره. ويورد سعيد عبد العزيز أمثلة على الجو الأسري الذي يشجع على الإبداع ونموه ورعايته كما يلي: [5]

- الاستماع الحريص لما يقوله الأطفال.

- التعرف على أفكارهم الغريبة.

- التعرف على أنماط تفكيرهم غير المألوفة.

1- سعيد عبد العزيز، المدخل إلى الإبداع، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الأردن، ط1، 2006، ص471-

2 - نفس المرجع، ص48.

3- نفس المرجع، ص53

4- رعد حسن الصرن، إدارة الإبداع و الابتكار الأسس التكنولوجية و طرائف التطبيق، الجزء الأول، دار الرضا للنشر، ط1، سلسلة الرضا للمعلومات، 2000، ص403.

5 - سعيد عبد العزيز، المدخل إلى الإبداع، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، 2006، ص ص 115، 116.

- إتاحة فرصة كافية لهم في نقاش مشكلات الأسرة.
- إتاحة الفرص أمامهم للتعبير الحر عن أفكارهم.
- عدم قمع الأطفال وعبقريتهم.
- عدم السخرية من الأفكار التي يطرحونها.
- مناقشة المشكلات معهم بشكل جماعي.
- توفير الجو الأمن والمريح لهم.
- تلبية حاجاتهم المختلفة التي تتفق مع مراحل نموهم المعرفي والجسدي.
- عدم اللجوء للعقاب الجسدي أو المعنوي في تعديل سلوكياتهم.
- إشاعة جو من المرح والسرور والفكاهة في محيط الأسرة.
- الابتعاد عن النقد الشديد لسلوكياتهم غير المألوفة.
- تشجيع التعاون بين أفراد الأسرة بدلا من التنافر.
- تشجيع الانفتاح على ما حولهم من أعمال إبداعية.
- التشجيع على زيارة المتاحف والمسارح.
- تشجيع القدرات والمواهب الفنية الموجودة لديهم.
- مكافأتهم على انجازاتهم المدرسية العالية.
- إثراء بيئة الأطفال بالكتب والمعارف والفنون.
- إشراك الأطفال في اتخاذ قراراتهم وحل مشكلاتهم.
- تشجيعهم على الاستقلالية وعدم الاعتمادية.
- تشجيع الأطفال على نقد ذواتهم وأعمالهم ذاتيا بدلا من نقد الأسرة لهم.
- تشجيع الأطفال على حل مشكلاتهم بطرقهم الخاصة وبطرق غير مألوفة.
- احترام الأطفال احتراما غير مشروط بغض النظر عن أخطائهم.
- التفريق بينهم وبين ما يفعلونه فقد يكون سلوكهم هو الخطأ و الذي يجب تعديله لذلك يجب عدم توجيه مشاعر الغضب نحوهم بل إبداء مشاعر الاستحسان نحو سلوكهم الخاطئ.
- يجب عدم إصدار أحكام قيمية على أعمالهم بمعنى أنها جيدة أو فاسدة بل يمكن التعبير عن مشاعر الوالدين بطريقة ذكية بحيث يعبران فيها عن مشاعر الرضي و التقبل.

7- البيئة المدرسية وتنمية التفكير الإبداعي

تعد البيئة المدرسية احد المكونات الأساسية لمفهوم الإبداع و المهوبة ، وتتطلب عملية تطوير البيئة المدرسية لتصبح بيئة ايجابية ومثيرة للإبداع التعامل مع العناصر الآتية [1]

أ- المناخ المدرسي العام : لكي تستطيع المدرسة أن تنمي الإبداع لدى طلابها فان عليها أن تأخذ بما يلي :

- تقبل التنوع و الاختلاف في أفكار واتجاهات وميول وقدرات الطلاب .

- الاستماع للرأي الآخر واحترامه .

- تشجيع إنتاجات الطلاب في مجال الفنون و النشاطات .

-بناء جسور الثقة بين المدرسة و البيت .

- نشر جو من الألفة و الحب و الاحترام بين الطلاب .

- أن تستقطب المدرسة جميع الأطفال وعدم تنفيرهم منها .

- أن تحل مشكلات الطلبة وتشجعهم على تجاوزها وان تشركهم في حلها .

ب- المناخ الصفي : ان المناخ الديمقراطي و التعاوني و المتسامح الذي يسمح بوجود الأخطاء و الأفكار و النشاطات الجديدة وعدم مقاومتها أو الهزأ بها أو التقليل من قيمتها فانه لا شك انه يشجع على نمو التفكير الإبداعي وعلى العكس من ذلك فان المناخ الصفي الذي يشجع الاستهزاء بأفكار الطلبة و استنتاجاتهم و الذي تسوده الفوضى و النزاعات العدوانية فانه ودون شك لن يستطيع القيام بمثل هذه المهمة.

ج- فلسفة المدرسة و أهدافها: لكل مدرسة فلسفتها في البلوغ لأهدافها لذلك يجب أن تكون فلسفة المدرسة فلسفة تتبنى سياسة الدفع بقدرات الطالب أقصى حد ممكن وأن تشجع التفكير الإبداعي و الإبداع وأن تحدد جميع وسائل الدعم لتحقيق تلك الغاية ، وأن ترسم سياستها التربوية في ضوء تحقيق أهدافها المنشودة ألا وهي التربية و التعليم وتنمية التفكير الحر وعدم قمع حرية الطالب في التعبير عن مشاعره وأفكاره .

د- مصادر التعلم و الكشف عن الإبداع :إن المدرسة الفقيرة بمصادرنا التعليمية ومواردها المالية ، وبمعلميها لا تستطيع النهوض بمهمة تنمية الإبداع إذ كيف يمكن اكتشاف طالب لديه استعدادات للتفوق في الحاسوب والبرمجة ، إذا لم يكن لديه فرصة لقضاء ساعات كافية للتعامل مع الحاسوب وبرامجه بإشراف معلم ماهر؟

بعكس المدرسة الغنية بمواردها التعليمية وبما توفره من مختلف الوسائل المعينة لتسهيل عملية التعلم و التعليم و الغنية بمعلميها المنفتحين بعقولهم على كل جديد فإنها ستكون قادرة على انجاز هذه المهمة في تنمية الإبداع .

هـ- أساليب التقييم :تلجأ الكثير من المدارس إلى أساليب التقييم التقليدية لقياس انجازات الطلبة الإبداعية مثل الامتحانات التي لا تعتبر أفضل وسيلة لقياس قدرات الطالب في التفكير الإبداعي ولقياس ميولهم واهتماماتهم المتعددة لذلك يجب أن تلجأ من

حين لأخر إلى المحكمين وتقييمات الرفاق وتقييم الطلبة الذاتي و الرجوع إلى بطاقتهم الذاتية وغيرها من وسائل للحصول على تقييم صحيح مناسب نقيس من خلالها نمو الإبداع وتقدمه.

ثالثا: الإجراءات الميدانية للدراسة :

1- مجالات الدراسة

المجال المكاني : تم اختيار المديرية العامة لتوزيع الكهرباء والغاز لوسط- البليدة- الواقعة ب 16 شارع محمد بوضياف بن بو العيد البليدة ، والتي تنتمي إلى فرع منطقة الوسط. والمديرية الجهوية لتوزيع الكهرباء والغاز بالمدينة ، ويقع مقرها بمركز بلدية المدينة وبالضبط ساحة الشهداء مقابل المستشفى المحلي .

المجال البشري : أجريت الدراسة على جميع أفراد مجتمع البحث ويتكون من 383 عاملا من مختلف الفئات السوسيو مهنية ويبلغ عدد العمال بالمديرية للتوزيع الوسط- البليدة- 158 عاملا من بينهم 84 إطارا 59 عون تحكم 15 عون تنفيذ، ويبلغ عدد العمال بالمديرية الجهوية للمدينة 225 عاملا وموزعين على المصالح والأقسام على النحو التالي: 59 إطارا 131 عون تحكم 35 عون تنفيذ المجال الزمني : لقد شملت الدراسة الميدانية فترتين :

- الفترة الأولى و جرت خلالها القيام بالزيارات الاستطلاعية، وهذا ما سمح لنا القيام بالملاحظات المباشرة، وإجراء المقابلات مع العمال و تحضير الاستمارة على ضوء المعطيات الميدانية و تجريب الاستمارة الأولية .

- الفترة الثانية امتدت من منتصف شهر مارس إلى نهاية شهر ماي 2015 و تم خلالها توزيع الاستمارات على العمال و جمعها ثم تفرغها.

2- مجتمع البحث :

نظرا لطبيعة مجتمع البحث المتمثل في عدد قليل نوعا ما من العمال ، وبحثنا عن نتائج أكثر مصداقية ، فقد اعتمدنا على المسح الشامل أي إجراء الدراسة على جميع أفراد مجتمع البحث ، ولقد تم توزيع 383 استمارة بحسب عدد أفراد مجتمع البحث . وتم استرجاع 370 استمارة فقط الإطارات: 138 أعوان التحكم: 184 أعوان التنفيذ: 48 ، والتي تم تفرغها وبناء الجداول الإحصائية على ضوءها .

3- منهج الدراسة :

إن المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي ، الذي يقوم على تحديد خصائص الظاهرة و أبعادها ويقوم بتحليلها استنادا للبيانات المجمعة حولها ، و الوصول إلى نتائج قابلة للتعميم . ولقد قمنا باستخدام هذا المنهج بتجميع المعطيات الميدانية ، بواسطة الاستمارة و المقابلة، واستخدمنا النسب المئوية كأدوات إحصائية ، و ذلك بعرضها في جداول و استنتاج هذه الجداول و تحليل بياناتها ، و ربط المتغيرات مع بعضها لتفسير العلاقة بين هذه المتغيرات و مدى تأثير كل متغير على الآخر .

4- الدراسة الاستطلاعية: استهلنا بحثنا بالزيارات الاستطلاعية وهذا ما سمح لنا القيام بالملاحظات المباشرة، وإجراء المقابلات مع رئيس الموارد البشرية و مختلف الفئات السوسيو مهنية لفهم التقسيم الهيكلي للوظائف و تحضير الاستمارة على ضوء المعطيات الميدانية وتجريب الاستمارة الأولية .

5- الأدوات المنهجية المستعملة في الدراسة وقد تم في هذه الدراسة استخدام الأدوات التالية :

- الملاحظة:

هي أداة مكملة لأداة الاستمارة والمقابلة و وسيلة مساعدة للقيام بتسجيل بعض السلوكيات التنظيمية ، وذلك من خلال القيام بزيارات عادية استطلاعية للمؤسسة و التحدث مع العمال حول سير عملهم والظروف التي يعملون فيها ، وسلوكيات القيادة الإدارية ، وأفعالهم و طريقة تسييرهم ليوم العمل، وتستعمل هذه الملاحظات في عملية تحليل البيانات الميدانية وتحليل النتائج .

- الاستمارة:

وتم تحديد ثلاثة أشهر في بناء الاستمارة من بدايتها إلى نهاية المصادقة في شكلها النهائي، و قد تم إعداد هذه الاستمارة عبر مرحلتين هما:

- المرحلة الاستطلاعية التي يتم فيها تجريب الاستمارة على عدد معين من العمال .

- مرحلة وضع الاستمارة في شكلها النهائي .

- المقابلة:

استخدمنا هذه الأداة باعتبارها من أكثر الأدوات أهمية في جمع المعطيات، لا سيما بمقابلة المبحوثين و التحدث معهم ، حيث اعتمدنا في دراستنا على المقابلات الحرة و التي هي مناقشة عادية بين الباحث و المبحوث وإتاحة هذا الأخير الشعور بالارتياح و الاطمئنان و التعبير بحرية عن أفكاره ورؤيته للموضوع ، وقد استفدنا من تصريحات رؤساء الدوائر والمصالح ورئيس الموارد البشرية و بعض العمال من مختلف الفئات.

5- الاستنتاج العام للدراسة:

تلعب البيئة الأسرية دورا مهما في تنمية قدرات الطفل، لأن من الوظائف الأساسية التي تقوم بها الأسرة نقل المعارف و القيم السائدة في المجتمع، وترجمتها إلى أساليب عملية عن طريق عملية التنشئة للأبناء، متمثلة في توفير المجال الكافي لهم لمتابعة ميولهم وهواياتهم داخل المنزل وخارجه، ومناقشتهم في الموضوعات التي تهمهم وتشجعهم على المطالعة وحب الاستطلاع وتقدير الحوار، كما يمكن أن تربي الأسرة الإبداع عند الطفل من خلال إبداء التسامح من قبل الوالدين و الابتعاد عن العقاب واحترام ميولهم وقدراتهم وإعطائهم الحرية في ذواتهم وتشجيعهم على اللعب وتوفير الألعاب وتقوم بالرحلات، وإثارة التساؤلات، وتحملهم المسؤولية منذ الصغر. إن هذه الممارسات تساهم بشكل ايجابي في رعاية الإبداع ، وكما أن البيئة الأسرية تمثل عاملا داعما

لنمو الإبداع، كذلك يمكن أن تكون عامل إعاقة وإحباط، وهو ما يؤكد صحة الفرضية الأولى القائلة " للبيئة الأسرية أثر على تنمية القدرات الإبداعية لأبنائها".

أما فيما يخص الاستنتاجات التي توصلنا إليها فيمكن حصرها في ما يلي :

- أن هناك علاقة طردية بين مستوى البيئة الأسرية الداعمة للإبداع و المستوى الاقتصادي للأسرة.

- كما استنتجنا أن نصف عينة المبحوثين لهم دخل أسري متوسط وهذا ما يعكس المستوى المعيشي للمجتمع الجزائري و أن كثير من الأسر لا تستطيع توفير كل الاحتياجات والأنشطة التي تثرى قدراتهم المعرفية نظرا للعدد الكبير من الأبناء.

- كما استخلصنا أن لنوعية المسكن وحجمه تأثير على تنشئة الأبناء وتربيتهم وتعليمهم ، إضافة إلى قلة عدد الغرف مقارنة بحجم الأسرة وكثرة عدد أفرادها تؤدي إلى عدم إشباع متطلبات الطفولة ، مما يؤثر على مجالات تربية الأبناء داخل هذه المنازل ، و تؤثر على نموهم العقلي والفكري .
- وقد توصلنا إلى أن إهمال المطالعة من طرف الوالدين فلن يصل التشجيع إلى الأبناء، لأن القدوة غير متوفرة ولا يوجد اهتمام بشراء الكتب و القصص و المجلات ولا تكوين مكتبة منزلية .
- غير أن الأسرة تعجز أحيانا كثيرة عن القيام بدورها في تقديم الرعاية اللازمة لتنمية قدرات أبنائها و إمكانياتهم، فلا تمنح لهم الفرصة لممارسة الأنشطة الفنية و الأدبية في أوقات فراغهم (الرسم ، الشعر، الموسيقى...).
- غياب الحس بالمسؤولية لدى بعض الآباء هو أحد المشاكل التي قد يهدد الأسرة بإعداد جيل اتكالي ويعود ذلك إلى نمط تربيتهم كسبب في نشوء سلوكيات سلبية لدى الأبناء بما فيها عدم القيام بالواجبات، فمنهم من يشرف على القيام بكل شؤون أطفالهم على حل مشكلاتهم واتخاذ القرارات عنهم، مما يشعرهم بعدم الاستقلالية ويجعل منهم شخصية اتكالية .
- إهمال المطالعة من طرف الوالدين فلن يصل التشجيع إلى الأبناء الصغار، لأن القدوة غير متوفرة ولا يوجد اهتمام بشراء الكتب و القصص و المجلات و لا تكوين مكتبة منزلية.
- استنتجنا أن أكثر الأساليب إتباعا من طرف أولياء المبحوثين هي الأساليب المتسامحة التي تناسب الطفل المتميز و الموهوب .
- كما أن المعاملة غير السوية من بعض الوالدين لها علاقة سلبية بالقدرات الإبداعية لدى الأبناء ، نتيجة المفاضلة و التمييز.
- كما نجد في مجتمعنا أن ثقافة الحوار مفقودة في معظم الأسر، وأغلب الآباء يجهلون أهميته، وقد تعددت الأسباب لافتقار الحوار الأسري .
- ونجد في مجتمعنا أن الآباء يضيّقون بتساؤلات أبنائهم، لأنه لا تتوافر لهم المعرفة الثقافية و العلمية الصحيحة للإجابة عن تساؤلاتهم واستفساراتهم.
- واقع المجتمع الجزائري و ثقافة الأسرة لا تهتم بالرحلات الترفيهية أو الخروج للتنزه بسبب ضعف مستواها الاقتصادي.
- إن مؤشر الدخل الأسري للأسرة الجزائرية يؤثر على إمكانية توفير الألعاب للأطفال ، و بالتالي لا تتيح لأبنائها استثمار الألعاب لتنمية شخصيتهم فكريا وعقليا.
- إن روضة الأطفال بالنسبة للمجتمع الجزائري هي مجرد مكان لإيواء الطفل أثناء فترات عمل الأمهات خارج البيت ، وعدم إدراك الأولياء لأهمية مرحلة الطفولة وأهمية الرعاية و العناية بالطفل خاصة من الناحية التربوية و العقلية و النفسية و الجسمانية .
- وأن المدرسة يمكنها أن تكون بيئة محفزة للإبداع بما ترسخه في نفوس وعقول تلاميذها من اكتشاف وحب الاستطلاع وتوفير الأنشطة و الوسائل التعليمية المتنوعة والإمكانيات و التجهيزات ، فتفجر طاقاتهم وتكشف عن إمكانياتهم ومواهبهم الكامنة، كما يمكن للمدرسة أن تكون بيئة خائنة للإبداع وذلك حين تستعمل طرق تدريسها على التلقين و الحفظ و الاستظهار في الامتحانات وعدم السماح بطرح الأسئلة و البحث على المطالعة وعدم برمجة الرحلات التعليمية و الترفيهية والعلاقات السلبية مع المعلمين و التقيد بالكتاب المدرسي ومحتواه كمصدر وحيد للتعليم والالتزام بالمقرر المدرسي مما تخمد وتكبت الإمكانيات و القدرات الإبداعية

وهو ما يؤكد صحة الفرضية الثانية القائلة "عجز المدرسة ونظامها التربوي عن توفير بيئة تربوية معرفية ومهنية وعن تكوين نظام تعليمي إبداعي، يجلب بيئة غير محفزة للاهتمام بالإبداع"

أما فيما يخص الاستنتاجات التي توصلنا إليها فيمكن حصرها في ما يلي :

- مبالاة المعلمين بمشاكل التلاميذ وقلة الاهتمام بحاجاتهم المختلفة يترتب عنه عجزهم عن اكتشاف قدراتهم وعدم تفجير طاقاتهم الكامنة، وقد تحد من عطائهم وإبداعهم وتضمحل مواهبهم .

- إن قدرات التلاميذ الإبداعية متدنية في المدارس لأنها طبقت النظام التقليدي في التدريس الذي يركز على الحفظ وعدم إتاحة الفرصة لحرية التعبير عن قدراتهم.

- اعتماد العديد من المعلمين على طريقة التدريس التقليدية ولا سيما الطريقة التلقينية طريقة الإلقاء والإلقاء والشرح، يكون موقف التلميذ سلبي في هذه العملية التعليمية حيث تنمي فيه صفة الاتكال والاعتماد على المعلم وتغفل عن ميول التلاميذ ورغباتهم والفروق الفردية بينهم، ولا تستثير قدراتهم العقلية من تفكير وفهم وذكاء مما يكسبهم الملل والكسل العقلي والفكري.

- إن المعلم في المدرسة الابتدائية يعتمد على طريقة التعليم الجماعي بحيث يخاطب التلاميذ داخل قسمه باختلاف مستوياتهم، مما يترتب عنه مساوئ تنعكس على فهم التلاميذ وتعليمهم وتفكيرهم .

- إن مؤسساتنا التعليمية ومناهجها وطرق التدريس تعاني قصور في فهم الفروقات الفردية بين التلاميذ، بحيث وضعت مناهج لتناسب عموم التلاميذ دون مراعاة الفروق الفردية وخصوصية كل تلميذ.

- وقد توصلنا إلى أن تشجيع المعلم للتلاميذ قليل في مجال الترغيب على المطالعة.

- تبين لنا قلة اهتمام برمجة المنظومة التربوية بالنشاطات المدرسية، مما لا يعطي الفرصة للتلاميذ إظهار ميولاتهم وأفكارهم الإبداعية .

- وواقع الحال بالنسبة لمدارسنا يشير إلى أن معظم المدارس تتعامل مع موضوع الرحلات من زاوية التسلية والترفيه.

- الواقع المعاش في مدارسنا التربوية يبين غياب خدمات الأخصائي الاجتماعي في المجال الدراسي، مما يؤثر على عملية التنشئة الاجتماعية للتلاميذ، ومن بينها عدم الكشف عن هواياتهم ومواهبهم .

- وبما أن اغلب المدارس تعاني من قلة الإمكانيات ونقص الموارد المالية وغياب التجهيزات والآلات والمعدات والوسائل التعليمية، مما تقلل جذب تلاميذها ومن سعيهم نحو تحقيق الانجازات.

خاتمة :

من خلال ما توصلنا إليه في الجانب الميداني تبين لنا :

- أن كثير من الأسر لا تستطيع توفير كل الاحتياجات والأنشطة التي تثرى قدراتهم المعرفية نظرا للعدد الكبير من الأبناء، وكثرة مطالبهم .

- عدم ملاءمة بعض المنازل لمتطلبات الطفولة وعدم توفر المقتنيات التعليمية .

- عدم تحميل أبنائهم مسؤولية تناسب وسنهم وقدراتهم، فيعملون على حل مشكلاتهم واتخاذ القرارات عنهم ، مما ينشأ شخصية اتكالية وقد يشكل عبئاً في المستقبل على بيئة العمل .
- نتيجة المفاضلة والتمييز والتفرقة في معاملة الأبناء من بعض الأولياء ينتج عنه ظهور بعض السلوكيات السلبية ، وهذا ما يعرضه إلى التراجع في سلوكه التربوي و التعليمي وضعف قدراته العقلية و المعرفية .
- وإذا تأملنا واقعنا التعليمي فإنه يعاني مشكلات وتحديات كمثلها من الأنظمة الأخرى ، ولذلك يحتاج إلى تغيير وإصلاح وإعادة النظر في المنظومة التربوية وعلاج أوجه القصور و النقص ، إن تعليماً يقتل الإبداع ويكبت المواهب و القدرات للتلاميذ المتميزين والمتفوقين والمجتهدين ، ولا يهدف تكوين الشخصية الإبداعية، لأنه نظام يركز على الحفظ والتذكر والتلقين ، وما زالت مناهج التعليم تعتمد على المواد التعليمية الكثيرة تملئ بها رؤوس التلميذ دون أن يستفيد منها في الواقع الاجتماعي و المهني .
- كما نشير إلى مجموعة من المعوقات التي تؤدي إلى هدر طاقات التلاميذ في المدرسة ومنها :
- عدم وجود استراتيجية واضحة للكشف عن التلاميذ المبدعين والموهوبين وكيفية رعايتهم وتشجيعهم .
- لا يوجد برامج لإعداد المعلمين للتعامل مع التلاميذ المبدعين .
- طريقة التدريس يطبعها التعليم الجماعي ولا تأخذ بعين الاعتبار الفروقات الفردية للتلاميذ .
- يطلبون الحصول على العلامات الجيدة والانتقال إلى المستوى الأعلى دون النظر إلى مستواهم المعرفي وتحسين الأداء وتعليم مهارات التفكير الإبداعي .
- ارتفاع عدد التلاميذ في الأقسام نتيجة إتباع سياسة الكم ، يؤثر سلباً على أداء المعلم ويؤدي إلى عدم قدرته على مراعاة الفروق الفردية ، وبالتالي عدم مراقبة وتوجيه أعماله ، زيادة على ضخامة البرنامج المطالب بإتمامه .
- كثافة البرامج الدراسية وكثرة عدد الحصص التدريسية ، وزيادة الأعباء من تصحيح الواجبات و الامتحانات و التحضير للدروس ، أمر يرهق المعلم ويقلل من فاعليته .
- ضعف تأهيل المعلمين لان غالبيتهم وظفوا في ظروف كان قطاع التربية يشهد تزايد عدد التلاميذ وقلة الموارد البشرية ، إضافة إلى نقص التكوين وتجديد المعارف وتحسين المستوى بعد التوظيف .
- عدم توفر معلمين متخصصين في تصميم وتنفيذ الأنشطة المدرسية .
- قلة وانعدام الأنشطة الثقافية و الترفيهية و الفنية التي تساعد على تفتح شخصية التلاميذ .
- الكتب المدرسية خالية من التشويق و الجذب ويغلب عليها الجانب النظري .
- افتقار أغلبية المدارس إلى التجهيزات المدرسية ونقص الأدوات البيداغوجية والوسائل التعليمية الحديثة .
- وتأتي الامتحانات و نظم التقويم في المدرسة والتي لا توجه التعليم نحو الإبداع ، فهي تقيس إلا ما حفظه التلميذ واستظهره وعدم اعتنائها بقدراته وإمكاناته .

قائمة المراجع:

1. بوحوش، محمد الذنبيبات، مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
2. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر دراسة تحليلية ونقدية، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1991.
3. عامر مصباح، علم الاجتماع الرواد والنظريات، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، 2005.
4. علي بن هادية، القاموس الجديد للطلاب، ط7، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991.
5. حسن حريم، السلوك التنظيمي - سلوك الأفراد والمنظمات -، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، 1979.
6. محمد قاسم القريوتي، السلوك التنظيمي، دراسة السلوك الإنساني الفردي والجماعي في المنظمات المختلفة دار الشروق للنشر والتوزيع، ط4، الأردن، 2003.
7. طارق سويدان، محمد الاكرم العدلوني، مبادئ الإبداع، شركة الإبداع الخليجي للاستثمارات والترتيب، الصفات، ط3، الكويت، 2004.
8. علي السلي، خواطر في الإدارة المعاصرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.
9. محمد قاسم القريوتي، السلوك التنظيمي، دار وائل للنشر، ط5، الأردن، 2009.
10. محمود حسن حسني، ترجمة لنيجل كنج و نيل أندرسون، إدارة أنشطة الابتكار والتغيير دار المريخ للنشر، الرياض، 2004.
11. عامر خضير الكبيسي، إدارة المعرفة وتطوير المنظمات، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2004.
12. سعيد عبد العزيز، المدخل إلى الإبداع، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، 2006.
13. رعد حسن الصرن، إدارة الإبداع والابتكار الأسس التكنولوجية و طرائف التطبيق الجزء الأول، دار الرضا للنشر، ط1، سلسلة الرضا للمعلومات، 2000.
14. سعيد عبد العزيز، المدخل إلى الإبداع دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، 2006.

المشكلات التي يعانها الممرضون في الجزائر: دراسة ميدانية مقارنة

Problems experienced by nurses in Alegria : comparative field study

د.أحمد فلوح/ المركز الجامعي غليزان، الجزائر د.سناء عبيدي/المركز الجامعي ميلة، الجزائر

ملخص:

هدفت الدراسة إلى التعرف على المشكلات التي يعانها الممرضين في الجزائر، والتعرف على اثر متغيرات الجنس، المستوى الاقتصادي، الأقدمية، والحالة الاجتماعية على تقديرات الممرضين للمشكلات، ولتحقيق أهداف الدراسة تم إعداد استبيان مكون من 30 بنداً، موزعة على خمسة أبعاد، تم توزيعها على عينة مكونة من 50 ممرضا، من ثلاث مستشفيات بولاية مستغانم، ولقد أسفرت الدراسة النتائج التالية: يعاني الممرضين العاملين في المستشفيات من عدة مشكلات اجتماعية ونفسية واقتصادية وإدارية ومهنية بدرجات متفاوتة، وأنه لا يوجد فرق دال إحصائيا يعزى لمتغيرات الدراسة، الجنس، المستوى الاقتصادي، الأقدمية، والحالة الاجتماعية على تقديرات الممرضين للمشكلات التي يعانها الممرضين.

الكلمات المفتاحية: المشكلات النفسية - المشكلات الاقتصادية - المشكلات الإدارية - المشكلات المهنية - الممرضين - القطاع الصحي.

Abstract:

The study examined the problems experienced by nurses in Algeria, And identify the impact of the following variables: gender, economic level, seniority at work, social status on the nurses' estimates of the problems. In order to achieve the objectives of the study, a questionnaire was prepared consisting of 30 items, divided into five dimensions. The questionnaire was distributed to a sample of 50 nurses from three hospitals in Mostaganem State. The results were as follows: Nurses who work in hospitals suffer from several problems: social, psychological, economic, administrative and professional problems and to varying degrees. There is no statistically significant difference due to the variables of the study: sex, economic level, seniority at work, and social status of the problems experienced by nurses.

Keywords: psychological problems - economic problems - administrative problems - professional problems - nurses - health sector.

مقدمة:

قال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. سورة الجمعة (10).

لقد أعلن القرآن الكريم دعوته الأكيدة على ضرورة العمل، وإنه الأمر الطبيعي الذي يتفق عليه البشر منذ بداية الخليقة هو العمل لكسب القوت اليومي، ونجد أن الحضارة الحديثة التي نعيش تحت تأثيرها الآن ابتكرت بيئة عمل على مدار أربع وعشرين ساعة، وهناك بالفعل أعمال مهمة ضرورية يطلب من العامل فيها العمل ليلا ونهارا وفي ظروف أحيانا غير ملائمة ما يتسبب في سلبات وأضرار نفسية واجتماعية وصحية وهذا ما نجده خاصة عند العاملين في القطاع الصحي ونخص بالذكر الممرضين حيث يعتبر التمريض عملاً يؤدي لمساعدة المرضى للقيام بالأنشطة التي تُساهم في الارتقاء بصحته، أو استعادة صحته في حالة المرض، حيث يهتم بالفرد من الناحية الجسمية والعقلية والروحية من خلال العناية ببيئته، وتقديم التثقيف الصحي.¹

إلا انه و لأسباب عديدة يتعثر عمل الممرضين ويتسبب لهم في المعاناة في عملهم. ويذكر محمد فرج الله أبو الحصين في دراسته أن التمريض يعتبر ركنا أساسيا في المستشفيات، حيث أن نجاح أو فشل هذه المستشفيات يعتمد عليه بشكل أساسي، ولهذا لا بد من تقدير الدور الذي يلعبه الممرض في تطويرها، وأي تجاهل لهذه الحقيقة لن يدفع الإصلاح النظام الصحي إلى الأمام، فالممرض في نموه يحتاج إلى إشباع حاجاته النفسية شأنه شأن سائر الناس، وتتأثر شخصيته بصورة مباشرة بكل ما يصيب حاجاته أو بعضها من إهمال أو تغيب أو حرمان، لذلك فإن مهنة التمريض تستدعي توفير المكونات التي تسهل أداء مهنته بطريقة ملائمة.²

وبينت دراسة رجاء مريم أن الممرضين من أكثر الفئات المعرضة للضغوط المهنية، وذلك لما تتضمنه من مواقف مفاجئة، وشعور بالمسؤولية نحو المرضى، وأعباء عمل زائدة تعرض العاملين في هذه المهنة إلى معاناة العديد من المشاكل النفسية والصحية الناجمة عن شعورهم بالضغوط النفسية في العمل.³

و كشفت دراسة محمد سليم خميس (2013) التي هدفت التعرف على الضغوط النفسية لدى عمال القطاع الصحي على عينة مكونة من 120 عامل بالمؤسسة الاستشفائية العمومية بورقلة، حيث توصلت الدراسة إلى أن عمال القطاع الصحي يعانون من مستوى مرتفع من الضغوط النفسية كما انه لا توجد فروق في مستوى الضغوط النفسية باختلاف الخبرة المهنية و الجنس.⁴

وأظهرت دراسة آية فواز عقل (2014) التي هدفت التعرف على المعوقات التي تواجه عمل الممرضات في المستشفيات الحكومية والخاصة في مدينة نابلس، جامعة النجاح الوطنية والتي تكونت عينتها من 471 ممرضة، توصلت الدراسة إلى وجود معوقات

القران الكريم، سورة الجمعة ، الآية 10، ص2، 1.

² محمد فرج الله مسلم أبو الحصين، "الضغوط النفسية لدى الممرضين والممرضات العاملين في المجال الحكومي وعلاقتها بكفاءة الذات"، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية غزة، فلسطين، 2010، ص2.

³ رجاء مريم، "مصادر الضغوط النفسية المهنية لدى العاملات في مهنة التمريض، دراسة ميدانية في المستشفيات التابعة لوزارة التعليم العالي في محافظة دمشق"، مجلة جامعة دمشق، المجلد (24)، العدد (2)، 2008، ص47.

⁴ محمد سليم خميس، "الضغوط النفسية لدى عمال القطاع الصحي، دراسة ميدانية بالمؤسسة الاستشفائية محمد بوضياف بورقلة". مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 13، (285-298)، 2013، ص 285.

اجتماعية وثقافية وإدارية ونفسية، والى وجود فروق بين العزاب والمتزوجين¹. و أثبتت دراسة العاتي فوزية (2017) التي هدفت التعرف على الضغط المهني لدى الممرضين بالمؤسسة الاستشفائية المتخصصة للام والطفل، ورقلة حيث استخدم مقياس لقياس الضغط النفسي لدى الممرضين، وتكونت العينة من 128 من الممرضين، و توصلت الدراسة إلى أن الممرضون يعانون من مستوى مرتفع من الضغط المهني، وانه توجد فروق في سنوات الخبرة، وعدم وجود فروق في متغير الحالة الاجتماعية. فمختلف الدراسات أثبتت أن الممرضين يعانون من ضغوط مختلفة ناشئة من عدة مشكلات وعوائق مهنية².

وسنحاول في هذه الدراسة تناول المشكلات التي يعانيها الممرضين في الجزائر من خلال جانب نظري نعرض فيه أهم مصطلحات الدراسة وآخر ميداني نحاول فيه رصد المشكلات التي يعانيها الممرضين، نوعها ودرجتها من خلال القيام باستقصاء على عينة منهم. مشكلة الدراسة:

يعتبر القطاع الصحي من ابرز القطاعات أهمية نظرا للخدمات الصحية التي يقدمها لأبناء المجتمع، والخدمات الصحية مؤشر أساسي في قياس التنمية الإنسانية والاجتماعية، وعليه تولي المجتمعات أهمية وتبذل مجهودات لتحسين وتطوير القطاع الصحي. والتطوير والتحسين السليم هو الذي يأخذ بعين الاعتبار المورد البشري واليد العاملة في القطاع. والممرضين والممرضات من أهم العناصر التي تتوقف عليها الخدمات الصحية فهي التي تقدم مختلف الخدمات الصحية للمرضى وتقدم المساعد للأطباء وتحرص على متابعة المرضى.

وفي السنوات الأخيرة منها السنة الحالية نشهد اضطراب ومشاكل في القطاع الصحي، أدت حتى إلى متابعات قضائية لبعض الممرضين والممرضات، ونشهد إضرابات وتوقفات عن العمل من طرفهم من حين لآخر، مما ينبئ بوجود مشكلات مهنية لدى هذه الفئة. وهذا مما دفعنا لمحاولة إجراء استقصاء ميداني للمشكلات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والإدارية والمهنية التي يعانيها الممرضين والممرضات، وذلك بإتباع الخطوات العلمية لتحقيق أهداف الدراسة للكشف عن حقيقة معاناة فئة مهمة في القطاع الصحي.

و تصاغ إشكالية البحث الرئيسية كالتالي: هل يعاني الممرضين من مشكلات، وما نوعها، وما درجتها؟.

تساؤلات الدراسة:

- هل يعاني الممرضين في العاملين في المستشفيات من مشكلات ؟.
- هل يعاني الممرضين من مشكلات اجتماعية ونفسية واقتصادية وإدارية ومهنية؟.
- هل يوجد فرق بين الذكور والإناث في تقدير المشكلات التي يعانيها الممرضين؟.
- هل يؤثر المستوى الاقتصادي للممرضين على تقدير المشكلات التي يعانيها الممرضين؟.

¹ آية فواز عقل، "المعوقات التي تواجه عمل الممرضات في المستشفيات الحكومية والخاصة في مدينة نابلس"، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2014، ص 13.

² العاتي فوزية، "الضغط المهني لدى الممرضين دراسة استكشافية بالمؤسسة الاستشفائية المتخصصة للام والطفل، ورقلة". مذكرة لنيل شهادة الماستر، تخصص علم النفس العمل والتنظيم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، 2017.

- هل تؤثر أقدمية الممرض على تقديره للمشكلات التي يعانيها الممرضين؟.
- هل للحالة الاجتماعية (أعزب/ متزوج) اثر على تقدير المشكلات التي يعانيها الممرض؟.
- هل يوجد فرق بين المستشفيات في تقدير المشكلات التي يعانيها الممرضين.

فرضيات الدراسة:

- يعاني الممرضين في العاملين في المستشفيات من عدة مشكلات بدرجة متوسطة.
- يعاني الممرضين من مشكلات اجتماعية ونفسية واقتصادية وإدارية ومهنية بدرجات متفاوتة.
- لا يوجد فرق بين الذكور والإناث في تقدير المشكلات التي يعانيها الممرضين.
- لا يوجد فرق يعزى إلى المستوى الاقتصادي للممرضين في تقدير المشكلات التي يعانيها الممرضين.
- لا يوجد فرق يعزى لمدة أقدمية الممرض في تقدير المشكلات التي يعانيها الممرضين.
- لا يوجد فرق في الحالة الاجتماعية بين العزاب والمتزوجين على تقدير المشكلات التي يعانيها الممرضين.
- لا يوجد فرق بين المستشفيات في تقدير المشكلات التي يعانيها الممرضين.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى :

- التعرف على درجة المشكلات التي يعانيها الممرضون.
- التعرف على المشكلات الاجتماعية، النفسية، الاقتصادية، الإدارية، المشكلات المهنية التي يعاني منها الممرضين.
- التعرف على اثر متغيرات الدراسة، الجنس، المستوى الاقتصادي، الأقدمية، والحالة الاجتماعية على تقديرات الممرضين للمشكلات التي يعانيها الممرضين.
- الكشف عن واقع المورد البشري في قطاع الصحة.
- توفير معلومات يستفاد منها في إصلاح المنظومة الصحية.

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة في الآتي:

- أهمية ودور الممرضين في ميدان التمريض، حيث يمثلون أهم عناصر المورد البشري في قطاع الصحة فهم الذين يقومون بمختلف عمليات التمريض ويقدمون المساعدة الطبية للمرضى ويسهرون على معالجتهم، وهم السند للأطباء في المستشفيات والعيادات الطبية.
- أهمية التعرف على المشكلات المختلفة التي يعانيها الممرضين، فتحسين وضع التمريض والعلاج يبدأ بتحسين وضع الممرضين ومعالجة مشكلاتهم المختلفة حتى يتطور ويتحسن أداءهم التمريضي والعلاجي.
- أهمية التعرف على الفروق في الإحساس والمعاناة من المشكلات بين الممرضين بسبب الجنس أو الأقدمية أو المستوى الاجتماعي والاقتصادي، من اجل معالجة شاملة ولكن أيضا تراعي مشاكل كل فئة.
- وأهمية الدراسة تكمن أيضا في كونها دراسة موضوعية وعلمية للواقع والكشف عن الصعوبات التي يعانيها الممرضين، هي مرحلة أساسية في بناء وتطوير المنظومة الصحية في الجزائر.

حدود الدراسة :

- الحدود الزمانية: أجريت الدراسة الميدانية في شهر مارس 2018.
 - الحدود المكانية: تم تطبيق أداة الدراسة بثلاث مستشفيات بولاية مستغانم.
 - الحدود الموضوعية: تمثلت في استبيان لقياس المشكلات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والإدارية والمهنية للمرضين من إعداد الباحثين، والذي احتوى على 30 بنداً موزعة على خمس أبعاد.
 - الحدود البشرية: تتحدد في عينة البحث التي تقدر ب: 50 ممرضا وممرضة.
- مصطلحات الدراسة:

- مفهوم المشكلات: هي الصعوبات التي تواجهنا عند الانتقال من مرحلة إلى أخرى، وهي إما أن تمنع الوصول أو تؤخره أو تؤثر في نوعيته. فهي حالة من عدم الرضا أو نتيجة غير مرغوب فيها، والشعور بوجود عوائق لا بد من تجاوزها لتحقيق هدف ما، وتنشأ من وجود عدة أسباب معروفة أو غير معروفة.

وتعرف المشكلة على أنها نوع من أنواع الالتباس يعترى سبيل الإنسان في أموره وقضاياها. والحلّ هو نشاط ذهني يقوم به الإنسان ويمارسه من أجل التوصل إلى ما يزيل هذا الالتباس. وتعرف أيضا على أنها: "موقف جديد يكون بمثابة عقبة تعوق إرضاء حاجات الفرد و رغبته، ولا يكفي لحله السلوك التعودي أو الخبرة السابقة".¹

ويرى كانفر Kanfer وجولدستين Goldstein أنها: "صعوبات في علاقة الشخص بغيره أو إدراكاته عن الكون الذي يعيش فيه أو في اتجاهه نحو ذاته، ويمكن أن تتصف المشكلات النفسية بوجود مشاعر القلق والتوتر لدى الفرد وعدم رضاه عن سلوكه الخاص، والانتباه الزائد لمجال المشكلة وعدم الكفاءة في الوصول إلى الأهداف المرغوبة، وعدم القدرة على الأداء الفعال في المجالات النفسية، والعقلية، والوجدانية، والسلوكية".² المتعدّدة، والمتنوّعة، والمتجدّدة عبر الزمن". ويرى مُحَمَّد شَوْقِي الفَنْجَرِيُّ أَنَّ المشكلة الاقتصادية هي مشكلة تعدّد الحاجات مع ندرة الموارد، وبعبارة مبسّطة هي مشكلة الفقر الذي لا يعدو كونه مظهرًا من مظاهر زيادة الحاجات مع قلة الموارد.³

-المشكلات الإدارية: هي تلك التي تتعلق بالوظائف الإدارية. وتتجلى في تعطل النظام الإداري أو قصوره عن القيام بوظائفه وتحقيق أهدافه أو إن حالة النظام الإداري لا تتوافق مع الحالة المرغوب أن يكون عليها في الوقت الراهن أو في المستقبل أو عند وجود أي ضرورة لتغيير أهداف نشاطات النظام.

-المشكلات المهنية: هي تلك المتعلقة في طبيعة و بيئة العمل، وتتجلى في تعطل نظام العمل و عن مثل هذه المواقف خلال العمل كفييلة بان تجعل المرء يشعر بالمعاناة في عمله و يفكر بشكل كبير ومكثف كيف يمكنه التعامل مع مثل هذه المشكلات. و يمكن أن تكون هذه الأخيرة من نوع عدم تكافؤ فرص العمل، أيضا كل ما يتعلق بالمناوبات، الترقية، الأمن، السلامة، النظافة، العلاقات مع الزملاء و...مناخ العمل بشكل عام.

-المرضى: إن التمريض علم وفن ويهتم بالفرد ككل - جسم وعقل وروح - ويعمل على تقديم وحفظ الفرد روحيا وعقليا وجسمانيا ومساعدته على الشفاء عندما يكون مريضا ويمتد الاهتمام بالفرد المريض إلى أسرته ومجتمعه. أما الممرض هو

¹ راجح أحمد عزت، "أصول علم النفس"، مصر، الإسكندرية، المكتب المصري الحديث، 1989، ص 283.

² حسن بن علي بن محمد الزهراني، "المشكلات النفسية والاجتماعية و التعليمية لدى عينة من طلاب كليات المعلمين المتأخرين في التحصيل الأكاديمي في ضوء بعض المتغيرات"، ماجستير الآداب في علم النفس جامعة الملك سعود، قسم علم النفس، المملكة العربية السعودية، 2005-2006، ص 11.

³ المشكلة الاقتصادية بين التّوصيف والحل، من منظور اقتصاديّ إسلاميّ، ص 8، على موقع <http://www.alukah.net/culture/0/106072>

الشخص الذي حصل على تأهيل علمي وفني يمكنه من تقديم العناية التمريضية العامة غير المعقدة، ويعمل الممرض تحت إشراف الممرض المجاز. أما الممرض المساعد فهو الذي حصل على تأهيل علمي وتدريب مهني يمكنه من مساعدة الفريق التمريضي في تقديم العناية التمريضية. وذلك لمساعدة الأفراد مرضى كانوا أو أشخاص سالمين في الارتقاء بصحتهم أو استعادة صحتهم في حالة المرض أو "الموت في سلام وأمان".

-القطاع الصحي: يُعبّر مفهوم القطاع الصحي عن جميع الوحدات، والخدمات، والتنظيمات التي تُعنى بالصحة. ويتميز القطاع الصحي بخاصية عدم التأكد، وتعني عدم التأكد من حدوث المرض وعدم التأكد من حدوث فعالية العلاج، ولا يطلب المستهلك وهو المريض نوعية علاج محددة، ويعتمد في ذلك على الطبيب.

و يقول طلعت الدمرداش: "بالرغم انه يمكننا شراء وبيع الخدمات الصحية إلا أن الصحة ليست كذلك فلا يمكن الاتجار بها ويصعب تعريفها وقياسها صعب إذ أن التمتع بحالة صحة جيدة لا يعني الحياة فقط بل يعني القدرة على التمتع بها"¹.

وتختلف القطاعات الصحية من دولة إلى أخرى لكنها في الأغلب تشتمل على القطاع الصحي الحكومي العام والقطاع الصحي الخاص بالإضافة إلى القطاعات الأخرى الصحية حسب النظام الصحي للدولة.²

ووضع السياسة الصحية يكون من طرف أعلى سلطة في الدولة أو اعلي مستوى إداري في المؤسسة الصحية. كما أن الالتزام، الاستجابة والاهتمام بالسياسة الصحية مرتبط ارتباط وثيق بالمستوى الإداري الذي قام باتخاذ القرار ووضع السياسة الصحية.³

وهذا القطاع يعمل على توفير السلع والخدمات لمعالجة المرضى من خلال تقديم الرعاية العلاجية أو الوقائية أو التأهيلية أو التلطيفية أو حتى في بعض الأحيان الرعاية غير الضرورية. وينقسم قطاع الرعاية الصحية الحديثة إلى العديد من القطاعات الفرعية، كما يعتمد على فرق متعددة التخصصات من الأخصائيين المدربين والمهنيين المساعدين لتلبية الاحتياجات الصحية للأفراد والمجتمعات السكانية.⁴(Princeton University. (2007). Health profession)

إجراءات الدراسة:

منهج الدراسة: اعتمد المنهج الوصفي الميداني الذي يتلاءم وموضوع بحثنا. حيث تم جمع البيانات حول موضوع الدراسة من الميدان من خلال تطبيق استبيان لقياس المشكلات المختلفة التي يعانيها الممرضين في القطاع الصحي بالجزائر. ثم تحليل وتفسير النتائج ووضع الاقتراحات.

عينة الدراسة: تكون من الممرضين العاملين بالمستشفيات بولاية مستغانم. وعينة الدراسة تكونت من 50 ممرضا وممرضة ينتمون لثلاث مستشفيات، اختيرت بطريقة عشوائية قصدية. والجدول الآتي يوضح مواصفات العينة وتوزيعها.

¹ طلعت الدمرداش، "اقتصاديات الخدمات الصحية"، مصر، مكتبة القدس، الزقازيق، 2006، ص17.

² صلاح محمود ذياب، "إدارة خدمات الرعاية الصحية"، عمان، دار الفكر، 2009، ص209.

³ فريد توفيق نصيرات، "إدارة منظمات الرعاية الصحية"، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2008، ص33.

⁴ Princeton University, " Health profession". Retrieved June 17, 2007, from: <http://wordnet.princeton.edu/perl/webwn?s=health%20profession>

جدول 1: مواصفات عينة الدراسة

الأقدمية			الحالة الاقتصادية			الحالة الاجتماعية		الجنس	
+10	10-5	5-0	ضعيف	متوسط	جيد	أعزب	متزوج	أنثى	ذكر
15	8	27	8	37	5	25	25	24	26
30.00	16.00	54.00	16.00	74.00	10.00	50.00	50.00	48.00	52.00
50			50			50		50	

أداة الدراسة :

أ- وصف الأداة:

الأداة المستخدمة في قياس موضوع البحث عبارة عن استبيان من إعداد الباحثين بناء على بعض الدراسات السابقة، ولقد تكونت الدراسة من 30 بندا موزعة على خمس أبعاد هي:

- بعد المشكلات الاجتماعية: يحتوي على 7 بنود.
- بعد المشكلات النفسية: يحتوي 6 بنود.
- بعد المشكلات الاقتصادية: يحتوي 5 بنود.
- بعد المشكلات الإدارية: يحتوي 9 بنود
- بعد المشكلات المهنية: يحتوي 3 بنود.

الإجابة على عبارات الاستبيان وفق سلم ثلاثي متدرج:

موافق بشدة (درجة: 2) موافق (درجة: 1) معارض (درجة: 0).

ب- متغيرات الدراسة:

تضمنت الدراسة على أربع متغيرات مستقلة، جنس، أقدمية، مستوى اقتصادي والحالة الاجتماعية. وعلى خمس متغيرات تابعة تتمثل في المشكلات الاجتماعية، والمشكلات النفسية والمشكلات الاقتصادية، والمشكلات الإدارية، والمشكلات المهنية. وهذه المتغيرات شكلت الأبعاد الخمس لاستبيان الدراسة.

ج- صدق الأداة: تم حساب الصدق عن طريق حساب الارتباط بين كل فقرة وبعدها والدرجة الكلية، و بين الأبعاد الفرعية للاستبيان والدرجة الكلية، ولقد جاءت النتائج كالآتي:

جدول 2: معاملات الارتباط بين العبارات و أبعادها والدرجة الكلية

الارتباط بالدرجة الكلية	الارتباط بالبعد	العقارة	الارتباط بالدرجة الكلية	الارتباط بالبعد	العقارة	الارتباط بالدرجة الكلية	الارتباط بالبعد	العقارة
0.30	0.52	21	0.21	0.73	11	0.49	0.73	1
0.39	0.45	22	0.39	0.44	12	0.38	0.70	2
0.71	0.78	23	0.49	0.62	13	0.50	0.79	3
0.19	0.47	24	0.44	0.56	14	0.37	0.71	4
0.28	0.41	25	0.27	0.63	15	0.51	0.57	5
0.44	0.52	26	0.60	0.90	16	0.58	0.78	6
0.85	0.77	27	0.46	0.87	17	0.63	0.67	7
0.00	0.85	28	0.41	0.72	18	0.56	0.74	8
0.33	0.71	29	0.76	0.81	19	0.05	0.37	9
0.01	0.82	30	0.66	0.71	20	0.50	0.55	10

جدول 3: معاملات الارتباط بين أبعاد الاستبيان والدرجة الكلية

الدلالة	معامل الارتباط بالدرجة الكلية	البعد
دالة عند 0.05	0.70	المشكلات الاجتماعية
دالة عند 0.05	0.66	المشكلات النفسية
دالة عند 0.05	0.58	المشكلات الاقتصادية
دالة عند 0.05	0.83	المشكلات الإدارية
دالة عند 0.05	0.13	المشكلات المهنية

يتبين من الجدولين السابقين (2 و3) الصدق البنائي حيث درجة ارتباط الفقرات بالبعد الذي تنتهي إليه كانت عالية كلها، وكذلك درجة ارتباط كل بعد بالدرجة الكلية للاستبيان أيضا كانت عالية، ودالة كلها.

كما تم حساب الصدق الذاتي وتحصلنا على معامل يساوي: 0.94.

د- ثبات الأداة: تم حساب الثبات بطريقة الاتساق الداخلي بمعادلة ألفا كرونباخ وكانت الدرجة 0.89. وبطريقة التجزئة النصفية، حيث بعد تصحيح الدرجة بمعادلة سبيرمان براون تحصلنا على معامل ثبات يقدر ب: 0.82.

من خلال نتائج قياس الصدق والثبات اتضح أن الأداة المستخدمة تتوفر على مؤشرات الصلاحية والموثوقية. طريقة تحليل البيانات:

تم تحليل النتائج بالبرنامج الإحصائي (spss) حيث اعتمدنا الأساليب التالية:

- التكرارات: لحساب مجموع الدرجات.

- المتوسط الحسابي: لحساب متوسط درجات الفقرات والأبعاد.
 - الانحراف المعياري: لحساب انحراف درجات الفقرات عن المتوسط.
 - اختبار ت: لحساب الفرق بين الجنسين، و بين حالة فئة العزوبة وفئة المتزوجين.
 - تحليل التباين: لقياس الفروق في متغير المستوى الاقتصادي، ومتغير الأقدمية، ومتغير المستشفى.
- نتائج الدراسة:

- أولاً: الإجابة على الفرضية العامة: يعاني الممرضين العاملين في المستشفيات من مشكلات مختلفة بدرجة متوسطة. لإثبات هذه الفرضية أو نفيها نجري هذه المقارنة بين النتائج النظرية والنتائج المحسوبة وفق المؤشرات الإحصائية التالية: مجموع الدرجات- المتوسط الحسابي.

جدول 4: مقارنة بين المؤشرات الإحصائية النظرية والمحسوبة على أبعاد الاستبيان ودرجته الكلية

أبعاد الاستبيان	عدد البنود	التكرارات النظرية	التكرارات المحسوبة	المتوسط النظري	المتوسط المحسوب
المشكلات الاجتماعية	7	700	592	14	11.84
المشكلات النفسية	6	600	494	12	9.88
المشكلات الاقتصادية	5	500	591	10	11.82
المشكلات الإدارية	9	900	964	18	19.28
المشكلات المهنية	3	300	362	6	7.04
الدرجة الكلية	30	3000	2993	60	59.86

التعليق: تبين من الجدول أن الممرضين يعانون من مشكلات مختلفة بدرجة متوسطة، حيث المتوسط المحسوب (59.86) يساوي تقريبا مع المتوسط النظري (60.00). وحسب المتوسطات المحسوبة فان ترتيب المشكلات يكون على النحو التالي: المهنية والاقتصادية والإدارية بدرجات أكبر ثم المشكلات الاجتماعية والنفسية بدرجة أقل منها. والنتيجة أن الممرضين يعانون بدرجة متوسطة من مشكلات مختلفة.

- ثانياً: الإجابة على الفرضية الجزئية الأولى: يعاني الممرضين من مشكلات اجتماعية ونفسية واقتصادية وإدارية ومهنية بدرجات متفاوتة. للإجابة على هذه الفرضية سنعرض نتائج استجابات أفراد العينة حسب كل بعد من أبعاد الاستبيان.
- أولاً: عرض نتائج بعد المشكلات الاجتماعية:

جدول رقم 5: يوضح التكرارات و النسبة المئوية و المتوسط الحسابي لاستجابات أفراد العينة على فقرات المشكلات الاجتماعية

الرقم	العبارات	موافق بشدة	موافق	معارض	المتوسط	التقدير
1	عملي في مهنة التمريض يؤدي إلى التقصير في واجباتي المنزلية	8.00	34.00	58.00	1.50	دون المتوسط
2	عملي في مهنة التمريض يؤثر على علاقتي الاجتماعية خارج المهنة	2.00	24.00	74.00	1.28	دون المتوسط
3	عملي في مهنة التمريض يعرضني لمواقف محرجة	14.00	66.00	20.00	1.94	دون المتوسط
4	عملي في مهنة التمريض يعرضني لإهانات من طرف المرضى وأهاليهم	26.00	40.00	34.00	1.92	دون المتوسط
5	عملي في مهنة التمريض يصعب علي تنظيم وقتي	12.00	34.00	54.00	1.58	دون المتوسط
6	عمل المرأة كمرضة يسبب لها مشاكل مع زوجها	14.00	44.00	42.00	1.72	دون المتوسط
7	عمل المرأة كمرضة يحد من دورها في تنشئة أبنائها	22.00	46.00	32.00	1.90	دون المتوسط

التعليق: يظهر الجدول أن استخدام المؤشرات الإحصائية النسبة المئوية و المتوسط الحساب كشف أن الممرضين يعانون من مشكلات اجتماعية قريبة من المتوسط، حيث كانت نتائج استجابات فقرات بعد المشكلات الاجتماعية قريبة من المتوسط (2). وان المشكلات الاجتماعية التي حصلت على تكرارات مرتفعة هي:

- عملي في مهنة التمريض يعرضني لمواقف محرجة.
 - عملي في مهنة التمريض يعرضني لإهانات من طرف المرضى وأهاليهم.
 - عمل المرأة كمرضة يسبب لها مشاكل مع زوجها.
 - عمل المرأة كمرضة يحد من دورها في تنشئة أبنائها.
- والنتيجة أن الممرضين يعانون من مشاكل اجتماعية قريبة من المستوى المتوسط.
- ثانياً: عرض نتائج بعد المشكلات النفسية:

جدول رقم 6: يوضح التكرارات و النسبة المئوية و المتوسط الحسابي لاستجابات أفراد العينة على فقرات المشكلات النفسية

الرقم	العبارات	موافق بشدة	موافق	معارض	المتوسط	التقدير
1	عملي في التمريض يجعلني غير مستقر في مزاجي	20.00	28.00	52.00	1.68	دون المتوسط
2	عملي في التمريض يجعلني أخاف كلام الناس	8.00	22.00	70.00	1.38	دون المتوسط
3	عملي في التمريض يجعلني متخوف من أي خطأ مهني	20.00	56.00	24.00	1.96	دون المتوسط
4	علاقتي مع زملائي في العمل ليست جيدة	2.00	24.00	74.00	1.28	دون المتوسط
5	معاملة أهل المريض ليست حسنة وغير محترمة	12.00	50.00	38.00	1.74	دون المتوسط
6	المناوبة الليلية تزعجني وتقلقني	22.00	40.00	38.00	1.84	دون المتوسط

التعليق: يظهر الجدول أن استخدام المؤشرات الإحصائية النسبة المئوية و المتوسط الحساب كشف أن الممرضين يعانون من مشكلات نفسية قريبة من المتوسط، حيث كانت نتائج استجابات فقرات بعد المشكلات النفسية قريبة من المتوسط (2). وان المشكلات النفسية التي حصلت على تكرارات مرتفعة هي:

- عملي في التمريض يجعلني متخوف من أي خطأ مهني- المناوبة الليلية تزعجني وتقلقني.
 - معاملة أهل المريض ليست حسنة وغير محترمة- عملي في التمريض يجعلني غير مستقر في مزاجي.
 - والنتيجة أن الممرضين يعانون من مشكلات نفسية بدرجة قريبة من المتوسط.
- ثالثاً: عرض نتائج بعد المشكلات الاقتصادية:

جدول رقم 7: يوضح التكرارات و النسبة المئوية و المتوسط الحسابي لاستجابات أفراد العينة على فقرات المشكلات الاقتصادية

الرقم	العبارات	موافق بشدة	موافق	معارض	المتوسط	التقدير
1	دخلي ليس كافي ولا يلي الاحتياجات	36.00	44.00	20.00	2.16	فوق المتوسط
2	نظام التعاقد فيه إجحاف	32.00	58.00	10.00	2.22	فوق المتوسط
3	نقص الحوافز المادية	48.00	50.00	2.00	2.46	فوق المتوسط
4	الراتب لا يتناسب مع طبيعة الجهد والعمل المبذول	60.00	36.00	4.00	2.56	فوق المتوسط
5	غياب الحوافز المعنوية	50.00	42.00	8.00	2.42	فوق المتوسط

التعليق: يظهر الجدول أن استخدام المؤشرات الإحصائية النسبة المئوية و المتوسط الحساب كشف أن الممرضين يعانون من مشكلات اقتصادية بدرجات تفوق المتوسط، حيث كانت نتائج استجابات فقرات بعد المشكلات الاقتصادية كلها أعلى من المتوسط (2). وان المشكلات الاقتصادية التي حصلت على تكرارات مرتفعة هي:
- الراتب لا يتناسب مع طبيعة الجهد والعمل المبذول- نقص الحوافز المادية- غياب الحوافز المعنوية- نظام التعاقد فيه إجحاف. والنتيجة أن الممرضين يعانون من مشكلات اقتصادية تفوق المتوسط.

رابعاً: عرض نتائج بعد المشكلات الإدارية:

جدول رقم 8: يوضح التكرارات و النسبة المئوية و المتوسط الحسابي لاستجابات أفراد العينة على فقرات المشكلات الإدارية

الرقم	العبارات	موافق بشدة	موافق	معارض	المتوسط	التقدير
1	نظام الترقية غير عادل	44.00	46.00	10.00	2.34	فوق المتوسط
2	يوجد قسوة في تطبيق النظام على الممرضين	32.00	44.00	24.00	2.08	فوق المتوسط
3	لا يوجد تفهم لطبيعة المرأة ودورها	20.00	64.00	16.00	2.04	فوق المتوسط
4	نظام المناوبة فيه تعسف	22.00	58.00	20.00	2.02	فوق المتوسط
5	اشعر بغياب الأمن الوظيفي	42.00	44.00	14.00	2.28	فوق المتوسط
6	يوجد تمييز بين الممرضين والممرضات	20.00	28.00	52.00	1.68	دون المتوسط
7	لا يوجد تحديد واضح للمسؤوليات	26.00	54.00	20.00	2.06	فوق المتوسط
8	حقوق الممرض(ة) مهضومة	54.00	42.00	4.00	2.50	فوق المتوسط
9	مناخ و بيئة العمل غير مريحة	40.00	48.00	12.00	2.28	فوق المتوسط

التعليق: يظهر الجدول أن استخدام المؤشرات الإحصائية النسبة المئوية و المتوسط الحساب كشف أن الممرضين يعانون من المشكلات الإدارية بدرجات تفوق المتوسط، حيث كانت نتائج استجابات فقرات بعد المشكلات الاقتصادية أعلى من المتوسط (2). وان المشكلات الإدارية التي حصلت على تكرارات مرتفعة هي: حقوق الممرض(ة) مهضومة- نظام الترقية غير عادل- مناخ و بيئة العمل غير مريحة- اشعر بغياب الأمن الوظيفي. والنتيجة أن الممرضين يعانون من مشكلات إدارية بدرجة تفوق المتوسط.

خامسا: عرض نتائج بعد المشكلات المهنية:

جدول رقم 9: يوضح التكرارات و النسبة المئوية و المتوسط الحسابي لاستجابات أفراد العينة على فقرات المشكلات المهنية

الرقم	العبارات	موافق بشدة	موافق	معارض	المتوسط	التقدير
1	نقص الوسائل والتجهيزات الطبية الضرورية	56.00	40.00	4.00	2.52	فوق المتوسط
2	النظافة والترتيب غير ملائمين	34.00	50.00	16.00	2.18	فوق المتوسط
3	المرافق والمكاتب غير ملائمة	44.00	46.00	10.00	2.34	فوق المتوسط

التعليق: يظهر الجدول أن استخدام المؤشرات الإح

صائية النسبة المئوية و المتوسط الحساب كشف أن الممرضين يعانون من المشكلات المهنية بدرجات تفوق المتوسط، حيث كانت نتائج استجابات فقرات بعد المشكلات المهنية أعلى من المتوسط (2). وقد حصلت على تكرارات مرتفعة:

- نقص الوسائل والتجهيزات الطبية الضرورية.

- المرافق والمكاتب غير ملائمة.

- النظافة والترتيب غير ملائمين.

والنتيجة أن الممرضين يعانون من مشكلات مهنية بدرجة تفوق المتوسط.

ثالثا: الإجابة على الفرضية الجزئية الثانية: يوجد فرق بين الذكور والإناث في تقدير المشكلات التي يعانيها الممرضين.

جدول 10: اختبار "ت" لتوضيح دلالة الفروق في الجنسين على أبعاد الاستبيان.

الدالة المعنوية	قيمة "ت"	درجة الحرية	الإناث: 24		الذكور: 26		الأبعاد
			2ع	2م	1ع	1م	
غير دالة	0.11	48	2.94	11.79	3.02	11.88	المشكلات الاجتماعية
غير دالة	1.35	48	1.73	10.33	2.68	9.46	المشكلات النفسية
دالة 0.05	2.15	48	1.90	11.16	2.19	12.42	المشكلات الاقتصادية
غير دالة	1.17	48	3.72	18.66	3.36	19.84	المشكلات الإدارية
غير دالة	1.71	48	1.31	7.41	1.64	6.69	المشكلات المهنية
غير دالة	0.37	48	8.58	59.37	8.88	60.30	الدرجة الكلية

التعليق: يوضح الجدول أن نتائج استخدام اختبار "ت" لقياس الفروق كشف انه ليس هناك فروق دالة بين الممرضين الذكور والإناث في أربعة أبعاد وفي الدرجة الكلية، ووجد فرق دال إحصائيا في بعد واحد هو بعد المشكلات الاقتصادية فقط. رابعا: الإجابة على الفرضية الجزئية الثالثة: يوجد فرق يعزى إلى المستوى الاقتصادي للمرضين في تقدير المشكلات التي يعانها الممرض.

جدول 11: تحليل التباين الأحادي لقياس الفروق في المستوى الاقتصادي

المتغير	مصدر التباين	مجموع المربعات	درجة الحرية	متوسط المربعات	ف	الدلالة الإحصائية
المشكلات الاجتماعية	بين المجموعات	18.277	2	9.138	1.04	غير دالة
	تفاعل المجموعات	410.443	47	8.733		
	المجموع	428.720	49			
المشكلات النفسية	بين المجموعات	6.09	2	3.048	0.56	غير دالة
	تفاعل المجموعات	253.183	47	5.387		
	المجموع	259.280	49			
المشكلات الاقتصادية	بين المجموعات	7.678	2	3.839	0.836	غير دالة
	تفاعل المجموعات	215.704	47	4.589		
	المجموع	223.380	49			
المشكلات الإدارية	بين المجموعات	2.353	2	1.176	0.090	غير دالة
	تفاعل المجموعات	617.727	47	13.143		
	المجموع	620.080	49			
المشكلات المهنية	بين المجموعات	16.917	2	8.459	4.098	دالة عند 0.05
	تفاعل المجموعات	97.003	47	2.064		
	المجموع	113.920	49			
الدرجة الكلية	بين المجموعات	34.513	2	17.265	0.223	غير دالة
	تفاعل المجموعات	3645	47	77.564		
	المجموع	3680.02	49			

التعليق: يوضح الجدول أن نتائج استخدام اختبار تحليل التباين لقياس الفروق في المستوى الاقتصادي انه ليس هناك فروق دالة بين الممرضين ترجع للمستوى الاقتصادي في أربعة أبعاد وفي الدرجة الكلية، ووجد فرق دال إحصائيا في بعد واحد هو بعد المشكلات المهنية فقط.

خامسا:الإجابة على الفرضية الجزئية الرابعة: يوجد فرق يعزى لمدة أقدمية الممرض في تقدير المشكلات التي يعانها الممرضين.

جدول12: تحليل التباين الأحادي لقياس الفروق في الأقدمية

المتغير	مصدر التباين	مجموع المربعات	درجة الحرية	متوسط المربعات	ف	الدلالة الإحصائية
المشكلات الاجتماعية	بين المجموعات	30.079	2	15.040	1.77	غير دالة
	تفاعل المجموعات	398.641	47	8.482		
	المجموع	428.720	49			
المشكلات النفسية	بين المجموعات	22.761	2	11381	2.262	غير دالة
	تفاعل المجموعات	236.519	47	5.032		
	المجموع	259.280	49			
المشكلات الاقتصادية	بين المجموعات	7.609	2	3.804	0.829	غير دالة
	تفاعل المجموعات	215.771	47	4.591		
	المجموع	223.380	49			
المشكلات الإدارية	بين المجموعات	18.842	2	9.421	0.736	غير دالة
	تفاعل المجموعات	601.238	47	12.792		
	المجموع	620.080	49			
المشكلات المهنية	بين المجموعات	6.704	2	3.352	1.469	غير دالة
	تفاعل المجموعات	107.216	47	2.81		
	المجموع	113.920	49			
الدرجة الكلية	بين المجموعات	267.804	2	133.902	1.844	غير دالة
	تفاعل المجموعات	3412.216	47	72.600		
	المجموع	3680.020	49			

التعليق: يوضح الجدول أن نتائج استخدام اختبار تحليل التباين لقياس الفروق في الأقدمية انه ليس هناك فروق دالة بين الممرضين ترجع لمتغير الأقدمية في جميع الأبعاد وفي الدرجة الكلية.

سادسا: الإجابة على الفرضية الجزئية الخامسة: يوجد فرق في الحالة الاجتماعية بين العزاب والمتزوجين على تقدير المشكلات التي يعانها الممرض.

جدول 13: اختبار "ت" لتوضيح دلالة الفروق في العزاب والمتزوجين على أبعاد الاستبيان .

الأبعاد	العزاب : 25		المتزوجين: 25		درجة الحرية	قيمة "ت"	الدلالة المعنوية
	1م	1ع	2م	2ع			
المشكلات الاجتماعية	11.32	2.57	12.36	3.26	48	1.25	غير دالة
المشكلات النفسية	9.24	1.98	10.52	2.45	48	2.02	دالة 0.05
المشكلات الاقتصادية	12.04	2.18	11.60	2.10	48	0.72	غير دالة
المشكلات الإدارية	19.28	3.85	19.28	3.31	48	0.00	غير دالة
المشكلات المهنية	7.08	1.49	7.00	1.58	48	0.18	غير دالة
الدرجة الكلية	58.96	9.17	60.76	8.21	48	0.73	غير دالة

التعليق: يوضح الجدول أن نتائج استخدام اختبار "ت" لقياس الفروق كشف انه ليس هناك فروق دالة بين الممرضين العزاب والمتزوجين في أربعة أبعاد وفي الدرجة الكلية، ووجد فرق دال إحصائيا في بعد واحد هو بعد المشكلات النفسية فقط. سابعاً: الإجابة على الفرضية الجزئية السادسة: لا يوجد فرق بين المستشفيات في تقدير المشكلات التي يعانيها الممرضين.

جدول 14: تحليل التباين الأحادي لقياس الفروق في المستشفى

المتغير	مصدر التباين	مجموع المربعات	درجة الحرية	متوسط المربعات	ف	الدلالة الإحصائية
المشكلات الاجتماعية	بين المجموعات	44.800	2	22.400 8.169	1.134	غير دالة
	تفاعل المجموعات	383.920	47			
	المجموع	428.720	49			
المشكلات النفسية	بين المجموعات	11.932	2	5.966 5263	1.086	غير دالة
	تفاعل المجموعات	247.348	47			
	المجموع	259.280	49			
المشكلات الاقتصادية	بين المجموعات	9.864	2	4.932 4.543	0.467	غير دالة
	تفاعل المجموعات	213.514	47			
	المجموع	223.380	49			
	بين المجموعات	12.094	2	6.047	0.820	غير دالة

		12.936	47	607.986	تفاعل المجموعات	المشكلات الادارية
			49	620.080	المجموع	
غير دالة	1.081	1.921	2	3.841	بين المجموعات	المشكلات المهنية
		2.342	47	110.079	تفاعل المجموعات	
			49	113.920	المجموع	
غير دالة		80.896	2	161.762	بين المجموعات	الدرجة الكلية
		74.856	47	3518.228	تفاعل المجموعات	
			49	3680.020	المجموع	

التعليق:

يوضح الجدول أن نتائج استخدام اختبار تحليل التباين لقياس الفروق بين المستشفيات انه ليس هناك فروق دالة إحصائية بين المرضى ترجع لمتغير المؤسسة الاستشفائية في جميع الأبعاد وفي الدرجة الكلية.

الخاتمة والمناقشة:

لقد حاولنا من هذه الدراسة استقصاء المشكلات التي يعانيها المرضى في الجزائر، والتعرف على اثر متغيرات الجنس، المستوى الاقتصادي، الأقدمية، والحالة الاجتماعية، والمستشفى، على تقديرات المرضى للمشكلات ولقد توصلت إلى عدة نتائج نلخصها في الآتي:

1- يعاني المرضى من مشكلات اجتماعية ونفسية واقتصادية وإدارية ومهنية بدرجات متوسطة. وهذه النتيجة تقترب من نتائج بعض الدراسات التي كشفت عن معاناة المرضى من ضغوط نفسية مصدرها مشكلات مهنية نفسية واجتماعية إدارية مثل دراسة أية فواز عقل (2014)، ودراسة محمد سليم الخميس (2013) ودراسة رجاء مريم (2008)، ودراسة العاتي فوزية (2017).

2- أنه لا يوجد فرق دالة إحصائية تعزى لأي متغيرات الدراسة، الجنس، المستوى الاقتصادي، المكانة الاجتماعية، الأقدمية تأثير على تقدير المشكلات التي يعانيها المرضى. وتتشابه نتائج الدراسة مع نتائج بعض الدراسات، حيث دراسة العاتي فوزية (2017) توصلت انه لا توجد فروق في متغير الحالة الاجتماعية، ودراسة أية فوزية (2014) التي توصلت انه لا يوجد اختلاف في الخبرة وفي الجنس. بينما تختلف مع نتائج أخرى التي وجدت فروق تعزى لعامل الخبرة (دراسة العاتي فوزية، 2017)، و(دراسة رجاء مريم، 2008). ووجود فروق تعزى لمتغير الحالة الاجتماعية والخبرة (دراسة رجاء مريم، 2008). ووجود فروق في الحالة الاجتماعية بين العزاب والمتزوجين (دراسة أية فواز عقل).

وبالرجوع إلى نتائج الدراسة فان عدم وجود فروق لأي متغير من متغيرات الدراسة واتفاق المرضى على اختلافهم في عدة متغيرات يبين أن المشكلات في مستوى من الوضوح و الجلاء وأنها واقع يعانيه جميع المرضى. وان المرضى في مختلف المستشفيات يعانون من مشكلات مختلفة متشابهة.

في الأخير تبين أن الممرضين يعانون من مشكلات مختلفة نفسية واجتماعية وإدارية واقتصادية ومهنية مما يستدعي الالتفات إليها من طرف المسؤولين ومعالجتها، لأنه من غير المعقول أن نتكلم عن تحسين قطاع الصحة وترقيته، والممرضين القلب النابض للتمريض يعانون من مشكلات مختلفة تعوق أداء مهامهم وتخفف من أدايمهم، فتطوير وتحسين التمريض مرتبطة بتحسين وضع الممرضين، إذا أردنا حقيقة إحداث التغيير المرجو في القطاع الصحي.

التوصيات:

- بحث المقترحات لتطوير الصحة مع أهل الصحة منهم على الخصوص الممرضين.
- تحسين ظروف عمل الممرضين بالقطاع الصحي.
- عقد ورشات تكوين لتبيان أضرار الإجهاد والعمل في ظروف ضاغطة على الصحة النفسية والجسمية للممرض.
- محاولة الجهات المعنية تحسين ظروف الحياة المهنية للممرض خاصة فيما يتعلق بالأمن الوظيفي والسلامة المهنية والنظافة والإطعام.
- محاولة إيجاد حلول للمشكلات الإدارية وضمان السير الحسن للمستشفيات ومؤسسات الصحة الجوارية والتقليل من الصراعات العلائقية بين العمال في القطاع الصحي.
- القيام بأيام تحسيسية وإعلامية لتبيان أهمية القطاع الصحي وضرورة العناية به بشكل أفضل.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. آية فواز عقل: "المعوقات التي تواجه عمل الممرضات في المستشفيات الحكومية والخاصة في مدينة نابلس"، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2014.
3. حسن بن علي بن محمد الزهراني: "المشكلات النفسية والاجتماعية و التعليمية لدى عينة من طلاب كليات المعلمين المتأخرين في التحصيل الأكاديمي في ضوء بعض المتغيرات"، ماجستير الآداب في علم النفس جامعة الملك سعود، قسم علم النفس، المملكة العربية السعودية، 2005-2006.
4. راجح أحمد عزت: "أصول علم النفس"، مصر، الإسكندرية، المكتب المصري الحديث، 1989.
5. رجاء مريم: "مصادر الضغوط النفسية لدى العاملات في مهنة التمريض"، رسالة ماجستير، جامعة دمشق. سوريا، 2008.
6. رجاء مريم: "مصادر الضغوط النفسية المهنية لدى العاملات في مهنة التمريض، دراسة ميدانية في المستشفيات التابعة لوزارة التعليم العالي في محافظة دمشق"، مجلة جامعة دمشق، المجلد (24)، العدد (2)، 2008.
7. صلاح محمود ذياب: "إدارة خدمات الرعاية الصحية"، عمان، دار الفكر، 2009.
8. طلعت الدمرداش: "اقتصاديات الخدمات الصحية"، مصر، مكتبة القدس، الرقازيق، 2006.
9. العاتي فوزية: "الضغط المهني لدى الممرضين دراسة استكشافية بالمؤسسة الاستشفائية المتخصصة للام والطفل، ورقلة". مذكرة لنيل شهادة الماستر، تخصص علم النفس العمل والتنظيم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، 2017.
10. فريد توفيق نصيرات: "إدارة منظمات الرعاية الصحية"، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2008.

11. محمد سليم خميس: " الضغوط النفسية لدى عمال القطاع الصحي، دراسة ميدانية بالمؤسسة الاستشفائية محمد بوضياف بورقلة". مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، العدد 13، (285-298)، 2013.
12. محمد فرج الله مسلم أبو الحصين: "الضغوط النفسية لدى الممرضين والممرضات العاملين في المجال الحكومي وعلاقتها بكفاءة الذات"، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية غزة، فلسطين، 2010.
13. مقال بعنوان: "المشكلة الاقتصادية بين التّوصيف والحل، من منظور اقتصادي إسلامي"، ص 8، على موقع <http://www.alukah.net/culture/0/106072>

1. Princeton University: " Health profession". Retrieved June 17, 2007, from: <http://wordnet.princeton.edu/perl/webwn?s=health%20profession>.

قراءة وتحليل في كتاب (الهويّات القاتلة) لأمين معلوف

Reading and analysis in the book "Deadly Identities" by Amin malouf

د.نصر الدين دلاوي/جامعة معسكر، الجزائر

ملخص :

يعتبر كتاب (الهويّات القاتلة) لأمين معلوف من الدّراسات الهامّة، في موضوع الهويّة، التي صدرت في نهاية القرن الماضي. وقد صدر في خضمّ الأوضاع العالميّة الجديدة التي أعقبت سقوط الاتحاد السّوفياتي، سابقًا، و انتهاء الحرب الباردة و تنامي ظاهرة العولمة. وهذا التّوقيت له دلالاته و هو يلفت انتباه الباحث و يدعو إلى فحص هذا الكتاب و تأمله و الوقوف، مليًا، عند أفكاره و أبعاده لاكتشاف حجم التّأثير و طبيعة الانعكاسات التي تلقّاها أمين معلوف من هذه الأوضاع العالميّة الجديدة و رؤيته لموضوع الهويّة و لكثير من المواضيع اللّصيقة به. وقد اعتمدت، في هذا البحث، على النّسخة الأصليّة للكتاب: Les identités meurtrières للاطلاع على الأفكار من منبعها و تحقيق مزيد من التّواصل و القرب من المؤلّف.

الكلمات المفتاحية: الهويّة - الدّين - التّبادل - الإنسانيّة - اللّغة

Abstract:

This book is one of the most important studies on the subject of identity issued at the end of the last century. It was published in the midst of the new global situations that followed the fall of the Soviet Union, the end of the Cold War and the growing phenomenon of globalization. And this time is significant and draws the attention of the researcher and invites him to examine this book and hopes to discover the magnitude of the impact and nature of the repercussions received by Amin Maalouf of these new global situations and his vision of the subject of identity and many of the topics close to it. In this paper I have adopted the original version of the book: Les identités meurtrières to view ideas from their source and to achieve greater communication and proximity to the author.

Keywords: Identity - Religion - Exchange - Humanity - Language

مقدمة:

لقد كثر الحديث عن الهوية، بمعناها الواعي، منذ نهايات القرن الماضي و بالتّحديد مع مطلع الثّمانينيات التي شهدت تحولات سياسية وثقافية عميقة في بنية الكتلة الشّرقية التي كانت تابعة للاتحاد السّوفياتي سابقًا. وقد كان من نتائج هذا الوعي الجديد وما أفرزه من حركة و صراع و مواقف وأفكار أن تفكّكت المنظومة الاشتراكية و تهاوت قيمها. و انتهى الأمر، بالتّبعيّة و المأل، إلى تفكّك الاتحاد السّوفياتي و أقول نجمه و زوال سيطرته. و بالموازاة مع هذه الأحداث الكبرى التي كانت ساحتها المنظومة الاشتراكية شهد العالم العربي ميلاد ظاهرة غيرت عناوينه و أثرت على لافتاته تمثّلت في ما يُعرف بالصّحوة الإسلاميّة. و لئن كانت طبيعة الظّاهرتين الشّرقية و العربيّة مختلفة و لئن كانت مصادر الوعي فيهما و الاستمداد متباعدة بل متناقضة فإنّ الذي كانت تستهدفه كليهما هو تحقيق العودة إلى الدّات و استعادة الهوية المسلوبة.

و الذي زاد موضوع الهوية أهميّة و شأنًا أن تصدّى لها و خاض فيها شخصيات ذوات رؤى مختلفة و مشارب كالياديات الفكرية و الدّينية و السياسيّة. و ليس من شكّ أنّ هذا التّنوع في الطّرح و الاختلاف في الرّؤى له إيجابياته في اكتناه هذا الموضوع و إضاءة جوانبه و زواياه. و لكنه قد أفرز، من جهة أخرى، فهمًا للهوية جامحة مضطربة بل خطيرة و مدمرة قادت أصحابها، أحيانًا، إلى متاهات الغلوّ و العنف فاستحلّوا الدّماء و استباحوا الأعراس و تفتنوا في عمليّات التّفي و القتل و الإبادة الجماعيّة و التّطهير العرقيّ كما حدث في دول البلقان و في إفريقيا السّوداء و آسيا و في مناطق أخرى من العالم.

و يعتبر كتاب (الهويّات القاتلة)¹ Les identités meurtrières لأمين معلوف من الدّراسات الهامّة التي تناولت موضوع الهوية² و أوضاعها و أحوالها و ما ينشأ عنها و سبل التّعامل معها.

و يكتسب هذا الكتاب أهميته من عدّة نواحٍ: فصاحبه من لبنان البلد العربيّ ذي الوضع الخاصّ و التجربة المتميّزة في العيش المشترك و إدارة الاختلاف بين الطوائف. ثمّ هناك انتساب المؤلّف إلى طائفة اليونان الكاثوليك³ أو طائفة الرّوم الملكيين الكاثوليك و هي إحدى الطّوائف اللّبنانية التي لا تتمتع بوجود سياسيّ كبير و لا تحظى بحضور ثقافيّ ظاهر. و يُضاف إلى كلّ ما تقدّم أنّ أمين معلوف يعيش في فرنسا منذ سنة 1976 بعيد اشتعال الحرب الأهليّة في لبنان و يكتب باللّغة الفرنسيّة و لغته الأمّ هي العربيّة.

هذه الانتماءات المختلفة التي تتجمّع في شخصية أمين معلوف و تختلط بلحمه و دمه، بدرجات مختلفة من القوّة و التّأثير، و ما ينشأ عن مزيجها من الألوان و الأذواق و الخواطر و الأفكار و الهواجس و الإيحاءات... كلّ أولئك قد يكون أثر، و لا شكّ،

1- صدرت الطبعة الأولى للكتاب في أكتوبر 1998 عن دار النشر الفرنسيّة (Grasset)

2- هويّة: في الكلّيات لأبي البقاء ص 961 « الأمر المتعقّل من حيث إنه مقول في جواب (ما هو) يسمّى ماهية. و من حيث ثبوته في الخارج يسمّى حقيقة و من حيث امتيازها على الأعيان يسمّى هويّة ». و قيل إنّها « الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتغال النواة على الشجرة في الغيب المطلق ». و تطلق، أيضًا، على الشّخص، أو الموجود، إذا ظلّ الشّخص ذاتًا واحدة رغم التغيّرات التي تطرأ عليه في مختلف أوقات وجوده. و انظر الجرجاني - التعريفات ص 258 و جميل صليبا- المعجم الفلسفي 531/2

3- الروم الكاثوليك: و هي إحدى الطّوائف المسيحيّة الشّرقية التي قبلت بالمبادئ العقديّة و التنظيميّة التي أقرها مجمع خلقيدونية Chalcedoine و أعلنها القيصر Malkâ السّوريّ سنة 451 م و من هنا جاء اسمها. و كنيسة الرّوم الكاثوليك أو اليونان الكاثوليك أو الملكيين الكاثوليك تعترف بسلطة البابا في روما و لكنها تحافظ على بعض الطّقوس البيزنطية و تؤدّي شعائرها باللّغة العربيّة

انظر: <http://ejabat.google.com/ejabat/thread?tid=61feb7b785c01b3c>

و انظر أيضًا: La Grande Encyclopédie : 13/7835

تأثيرًا ما على قلمه ووجه أفكاره و صنع مواقفه¹ و صبغ آراءه. وكلّ هذه الأبعاد، أيضًا، هي التي تمنح (الهويّات القاتلة) نكهته الخاصة و ذوقه المميّز و تجعله كاتبًا ذا متعة و فائدة جديرًا بالقراءة و التدبر و الفحص.

التّعريف بأمين معلوف:

وُلد أمين معلوف في 25 / 02 / 1949 ببيروت و قضى جزءًا من طفولته في مصر. و قد كان أبوه صحافيًا معروفًا، في لبنان، و شاعرًا و رسامًا. تحوّل أجداده لأبيه من الكاثوليكية إلى المذهب البروتستانتي منذ القرن التاسع عشر. أمّا أمّه فتنتهي إلى عائلة كاثوليكية من تركيا. تلقّى أمين معلوف تعليمه الابتدائيّ في المدارس الفرنسية اليسوعية ببيروت ثم اتّجه إلى دراسة علم الاجتماع و العلوم الاقتصادية في المرحلة الجامعية و عمل صحافيًا في جريدة النهار اللبنانية مكلّفًا بصفحة السياسة الدّولية. انتقل إلى فرنسا سنة 1976 بُعيد اشتعال الحرب الأهلية في لبنان و أصدر هناك سنة 1983 أوّل كتبه و هو: Les croisades vues par les arabes.

و لن أقف، في الصفحات التالية، عند كلّ القضايا التي تصدّى لها أمين معلوف في كتابه و لكّي سأحاول التركيز على بعض النقاط هي، في نظري، ذات أهميّة و بال أعرضها كما وردت في الأصل ثمّ أسلّط الأضواء عليها ما وسّعني ذلك مُبدئيًا الموقف منها بالمناقشة و الفحص و التّحليل. و قد بدا لي، طلبًا للتركيز و الوضوح، أن أضع هذه التّقاطات المختلفة في عناوين جانبية ليسهل تصوّرها و استيعابها و تكون هي المدخل إلى الذي يليها.

1- التّوسّع في مفهوم الهوية:

في فصل (هويّتي انتماءاتي)² يتوسّع أمين معلوف في مفهوم الهوية توسّعًا كبيرًا و لا يقبل أن تكون محدودة بتلك العناصر التي تعارف عليها النّاس كالانتماء إلى الدّين و اللّغة و الوطن. و يذكر أنّ الهوية قد تتحقّق، بالإضافة إلى العناصر السّابقة، بانتماءات أخرى كالانتماء إلى مجموعة عرقية أو لغوية أو عائلة كبيرة نسبيًا أو مهنة أو هيئة أو وسط اجتماعي... و لكنّ هذه القائمة، عنده، ليست نهائية فقد يشعر المرء بالحاجة إلى الانتماء إلى إقليم أو حيّ أو قبيلة أو هيئة رياضية أو نقابة أو حزب سياسيّ أو كنيسة...

و هذا الشّعور قد يتحقّق، كذلك، بالانتماء إلى مجموعة من الأشخاص لهم أهواء و اهتمامات مشتركة أو يتقاسمون ميولات جنسيّة واحدة أو يعانون أضرارًا و عوائق جسدية متشابهة. و يخلص أمين معلوف إلى القول بأنّ هذه الانتماءات لا تحظى، بطبيعة الحال، بدرجة واحدة من الأهميّة و القدر و لكن لا يمكننا الجزم بأنّ واحدًا من هذه الاهتمامات هو تافه أو عديم الأهميّة لأنّها جميعًا تمثّل العناصر المكوّنة للشّخصية بل هي «جينات الرّوح».

و يرفض الكاتب ما يتداوله الكثير من النّاس من وجود سلّم ثابت أو ترتيب دائم في بناء الهوية يجعل بعض عناصرها تحظى بعناية فائقة أو تتمتع بتأثير أكبر مُضيقًا بأنّ الانتماءات الهامة في حياة الإنسان و التي يُولمها عناية كبيرة ليست هي التي يتداولها النّاس، عادةً، كالدين و اللّغة و الوطن. و لتوضيح هذا الأمر يعطينا أمين معلوف مثالًا بأحد الشّواذ جنسيًا في إيطاليا الفاشية

1- الموقف: يقصد به التهيؤ العقليّ الذي يجعل الإنسان مستعدًا للقيام بسلك معين تجاه شيء أو حادثة أو هو كما شاع، في العصر الحديث، علاقة الموجود بغيره من الموجودات الأخرى. و هو حينئذ يكون دالًّا على الموقف الكامل لا على الموقف العقليّ أو العاطفيّ فقط. و في الحالتين يكون الموقف مصحوبًا باستجابة خاصّة. انظر المعجم الفلسفي ص 197 و مراد وهبة - المعجم الفلسفي ص 437 و دينكن ميتشل - معجم علم الاجتماع ص 25-26

2- انظر: Les identités meurtrières p 16-21

حين يجد نفسه ضحية المطاردة والإقصاء ومهددًا بالمحاكمة والقتل. فهذا الشاذ جنسيًا الذي كان وطنيًا، من قبل، سيفقد حماسه الوطنية القديمة وسيتمنى، مخلصًا قلبه، هزيمة الجيش الإيطالي كذلك.

و تفسير هذا الانقلاب أنّ هذا الرجل بسبب المطاردة والاضطهاد التي تعرّض لهما فإنّ ميولاته الجنسية قد تعاضم شأنها وتضاعفت أهميتها وأصبحت، عنده، أولى بالعناية والاهتمام دون سائر عناصر الهوية الأخرى وأنه لا يستعيد انتماءه الوطني وحماسه الوطنية إلا بعد هزيمة الفاشية وتنفسه الصُّعداء في أجواء إيطاليا الجديدة.

و إنه ليبدو لي أنّ لجوء أمين معلوف، هنا، إلى الاستدلال بهذا المثال قد يُضعف حجّته ولا يعضدها ويوهن رأيه ولا يُقويه. ويمكن دفع ما طرحه والتصدي له وبيان هشاشته من وجوه. فقد يُقال، في سياق الاعتراض على ما سبق، بأنّ الميولات الجنسية التي اعتمد عليها أمين معلوف لإنكار وجود سلّم ثابت في بناء الهوية أو لإبطال تمتّع بعض عناصرها بأهمية كبرى - فقد يُقال بأنّ هذه الميولات الجنسية التي اعتمد عليها ليس متعارفًا عليه في معظم البحوث والدراسات أنها من عناصر الهوية الجماعية. وفي السياق نفسه يمكن الإضافة، أيضًا، بأنّ هذه الميولات الجنسية التي استند عليها المؤلف لإثبات رأيه السابق إنّما تخصّ حياة الإنسان الشخصية أي أنّ هذه الميولات جزء من هويته الشخصية ولا علاقة لها بالهوية الجماعية التي هي محلّ البحث والتّزاع والجدل.

و إذا تابعنا أمين معلوف في رأيه واستدلّاه و سلّمنا، جدلاً، بأنّ الأمر كما قال فإنه يحقّ لنا أن نسأل مختبرين: ما هو عدد الذين حصل لهم مثل هذا الأمر في جميع الثقافات وعانوه وقاسوه حتّى أصبح هذا الحال واقعًا يصعب تجاوزه و ظاهرة¹ تلفت الانتباه وتستحقّ العناية العلمية والتّسجيل الأمين؟

فإذا ضمّنا إلى مجموع هذه الاعتراضات اعتراض أخير خلاصته أنّ الشذوذ الجنسي مستهجن وقبيح في كلّ الثقافات وليس سلوكًا جنسيًا سليمًا يحظى بالقبول ويتبناه الأسوياء فإنه يمكننا القول، باطمئنان، بأنّ أمين معلوف لم يُوفّق في اختيار دليله الذي جعله عمده في شأن ذي أهمية وبال كشأن الهوية الجماعية.

إنّ هذا التوسّع في مفهوم الهوية، عند أمين معلوف، يُوقع في اللبس لأنه يُنشئ تداخلًا بين الهوية الشخصية أو الفردية و الهوية الجماعية. وتوضيح هذا الكلام أنّ الهوية اثنتان: فهناك الهوية الشخصية وهي مجموعة عناصر كالاسم واللقب وتاريخ ومكان الميلاد والصورة والإمضاء مضافًا إليها بعض الملامح والعلامات والبصمات والميولات المختلفة والأذواق والارتباطات والأوصاف النفسانية والجسدية كالتّي عرض لبعضها أمين معلوف. ثمّ هناك الهوية الجماعية وهي التي يتقاسمها الإنسان مع كثير من الناس وعناصرها القويّة هي الدّين واللّغة والوطن والقيم الثقافية المشتركة وهي موضوع الكتاب ومحلّ هذا البحث.

هذا التوسّع في مفهوم الهوية الجماعية، عند أمين معلوف، يُوقع، إذن، في كثير من اللبس والاضطراب ويشدّ عن الحسن المشترك² ويجعله مفهومًا متهافتًا لا نكاد نلمسه حتّى نفقده. وهو، بالتبعية والمأل، يُفسد موقفنا من هذا الموضوع ويأفكنا عن حقيقته ولا يُسهّل بحثه وتعمّقه و اكتناحه.

1- الظاهرة: يُقصد بها الواقع الخارجيّ المؤثّر في الحواسّ كالظواهر الفيزيائية والكيميائية والفلكية كما تعني الواقع النفسي المدرك بالشعور كالظواهر الانفعالية والعقلية والإرادية. انظر جميل صليبا- المعجم الفلسفي 30/2

1- الحسن المشترك: و يُطلق على ما تشترك فيه عقول الناس من معانٍ كلبية أو أحكام أولية ثابتة لا تتغيّر أو هو مجموع الآراء التي بلغ انتشارها بين الناس درجة من الشّمول بحيث يُعدّ مخالفتها انحرافًا لا يحتاج إلى دحضه بالحجّة. انظر جميل صليبا- المعجم الفلسفي 469/1

و السؤال الذي يقفنا، في هذا المقام، هو: لماذا لجأ أمين معلوف إلى هذا التوسع في مفهوم الهوية؟

لقد بدا لي، من خلال مصاحبة لهذا الكتاب، أن سبب هذا التوجه قد يكون اعتقاد الكاتب بأن الهوية بمعناها العام المتعارف عليه القائم على عناصر الدين واللغة والوطن وما ينشأ عنها من تكتل وتضامن ووحدة في الشعور والعمل والمصير... هذه الهوية قد تجني على أصحابها فتجعلهم أرقاماً متشابهة وألواناً باهتة أو نماذج متماثلة أو أنها قد تقود أصحابها، أيضاً، إلى استباحة الدماء والأعراض كما يوحي بذلك الكاتب نفسه في مواطن عديدة من كتابه.

و كأن هذا الهاجس هو الذي أغراه بإضافة انتماءات أخرى وارتباطات تكون وظيفتها « مزاحمة » العناصر الأساسية المكوّنة للهوية أو التخفيف من غلوائها، على الأقل، و التأني بها أن تكون أداة لصناعة الموت أو إنتاج التماثل¹ أو إفراز المتشابه والمملول. وإذا صحّ هذا الظنّ واستقام فقد يكون وهماً من الكاتب أو عجلة منه لأنّ وحدة الهوية لا تعني، البتة، وحدة الفكر أو وحدة الذوق واللون والسلوك. ولا يحتاج هذا الأمر إلى مزيد تأكيد وفضل بيان لأنه جلي لا يخفى و بديهي لا يؤكّد و هو، بعد، ليس من صلب هذا البحث وعموده.

و قد تكون لأمين معلوف دوافعه الأخرى التي أغرته بهذا الأمر ولكن المؤكّد أنّ النتيجة النهائية لهذا السعي هو سلب مفهوم الهوية، أي الهوية الجماعية، بعض أوصافها الحيوية التي بها تتعرّف و عليها تقوم كالوحدة والكثافة والتماسك² والوضوح ويجعلها أجزاءً وتفاريق بل هيوي³ ليست بذات لّون أو طعم أو هيئة أو عنوان. وقد يكون نهاية هذا السعي، أيضاً، هو محاولة من الكاتب لإذابة هذا المفهوم، مفهوم الهوية، في محلول من الانتماءات قد تكون هشة أو متهافنة أو ضعيفة الفاعلية⁴ قليلة التركيز.

و يمكن القول، تلخيصاً لما سبق، بأنّ الحد الأدنى لمفهوم الهوية الجماعية، كما يذكره جاك بيرك،⁵ هو أن يتحقّق، لدى مجموعة من الناس، شعور بوحدتهم و ترابطهم و انضمامهم و تماسكهم تحت لواء تصوّر ما أو فكرة ما أو عمل ما.

و ليس يخاف أنّ هذا التوسع الذي تبناه أمين معلوف في شأن الهوية الجماعية و ما عرض له من عناصرها كلّ أولئك يقود إلى إحاطة مفهوم الهوية الجماعية بأغشية من اللبس والغموض و هو، بعد، قاصر عن بلوغ هذه الغاية و لا يملك أن يحقّق مثل هذا الشعور بعضه أو نصفه أو ثلثه.

2- التماثل: أو المماثلة، عند المحاسبين، هي كون العددين متساويين و كلا العددين يسمّى متماثلاً. أو هو « اشتراك الموجودين في جميع صفات النفس على

الأصحّ ». انظر التهانوي- كشاف اصطلاحات الفنون 506/1 و الكليات لأبي البقاء ص 311

3- التماسك: تماسك الأفكار و المبادئ خلؤها من التناقض و الاضطراب. و يُطلق على كلّ شيء صلب متين ذي صفات موضوعية ثابتة لا تؤثر فيه

الظروف العرضية. و انظر جميل صليبا- المعجم الفلسفي 340/1

4- الهويّ: هي المادة التي ليس لها شكل و تكون قابلة لأنّ تأخذ أشكالاً مختلفة و صوراً. و هي عند الحكماء (شيء قابل للصّور مطلقاً من غير تخصيص بصورة معينة و يسمّى بالمادة) و هي في كلّ الأحوال (جوهر بسيط لا يتمّ وجوده بالفعل دون وجود ما حلّ فيه) انظر التهانوي - كشاف اصطلاحات الفنون 704 /2 و أبا البقاء الكفوي - الكليات ص 955

5- الفاعلية: هي وصف لكلّ هو ما فاعل. و الفاعل هو ما له قدرة على الفعل و يقابل المنفعل و هو الذي لا قدرة له على الفعل. انظر مجمع اللغة العربية- المعجم الفلسفي ص 137

6- انظر: Guy michaud - Identités collectives et relations inter-culturelles p 11

2- التّحول والانتقال في الهوية:

يقول أمين معلوف¹ إنّ الهوية ليست معطى² ثابتاً و لكنّها تُبنى باستمرار و يمسّها التّحول طول الحياة. ثمّ يعطينا أمثلة بـعوامل البيئة و الزّمان و المكان و الثّقافات و الأحداث و كيف تتدخّل هذه العوامل المختلفة في إعادة صياغة عناصر الهوية و تحويلها أو توجيهها و تحديد حمولتها و معناها. مثال ذلك أنّ الموقف من الجنسين الذّكر و الأنثى و دلالة اللّونين الأبيض و الأسود و الانتماء القبليّ أو القوميّ... كلّ أولئك تتغيّر حمولته من بيئة إلى أخرى و ليس له دلالة واحدة في كابول أو إفريقيا الجنوبية أو التّرويض أو الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

ثمّ يتوسّع أمين معلوف في الحديث عن تجربته الشّخصية. من خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة. مبيّناً و طأة البيئة و الانتماء الطّائفي و الثّقافة و عوامل الزّمان و المكان... في بناء الهوية و شحّ عناصرها المختلفة بالمعاني و الدّلالات و ما ينشأ عنه من هواجس و وساوس و مخاوف و تهديدات.

و الذي أحبّ أن أقف عنده، في هذا المقام، و أستفيد منه هو قول أمين معلوف إنّ الهوية ليست معطى ثابتاً و لكنّها تُبنى باستمرار و يمسّها التّحول و الانتقال. و إنّّي لأقسام الكاتب رأيه و أتبنّاه إذ هو، في ظنّي، كلام صواب و مذهب متقبّل. و الذي دفعني إلى هذا السّلك و دعاني إلى هذا الموقف و أغراني بملازمته سببان اثنان: أوّلهما هو هذا الخطأ الشائع في فهم الهوية على أنّها بناء جاهز أو بنية ثابتة لا يمسّها تحوّل أو انتقال مع ما يطرأ، على حياة الناس، من عوامل الزّمان و المكان و الثّقافة و الأحوال و الأفكار الجديدة و العقليّات...

و جلاء هذا الأمر، ببساطة، أنّ عوامل البيئة و الزّمان و المكان و الثّقافات و الأحداث... كلّ أولئك له تأثير على أفكار الإنسان و عواطفه و مواقفه و ليس أحدٌ من الناس يسلم من تغيّر و تعديل أو تحوّل و انتقال أو تصحيح و تقويم أو زيادة و نقصان... فكيف يجوز القول أو الاعتقاد أنّ الهوية بناء ثابت لا يتزحزح و أنّ عناصرها لا تتأثر صيغتها و مضامينها بما يتأثر به الإنسان من عوامل مختلفات و ملابسات ؟

أما السّبب الثاني الذي دعاني إلى تبنيّ هذا الموقف فهو محاولة لفّت الأنظار و الإيحاء بمجموعة من المعاني و في مقدّمها أنّ التّحول هو امتداد في الزّمان و المكان و انتقال من حال إلى حال مع المحافظة على الأصل و الجوهر³ و تطعيمه و إثرائه و إغنائه بمعانٍ جديدة و صوّر جديدة في حين أنّ الثّبات مقصوص عن كلّ امتداد و انتقال لأنه باقٍ على أصله ملازم لوضعه مقطوع عن غده.

إنّ الهوية، في تعاملها مع الكون و العالم، تتبادل الأخذ و العطاء شئنا ذلك أم أبنينا. و أكاد أجزم أنّ الهوية حين تمارس هذا التبادل و الانفتاح، عن وعي و فهم و استيعاب، فإنّها تصحّ و تقوى و تنمو و تنضج فتنعكس علامات الصّحة و النموّ و القوّة و النّضج على أصحابها المنتسبين إليها. و حينئذ تستحيل هذه الهوية عامل بناء و توازن للشّخصية الإنسانية و لا تصبح مصدرًا للأحقاد و الشّنان أو وسيلة لتبرير القتل و العدوان.

1- انظر: 16-21 p Les identités meurtrières

2- المعطيات: ما يكون حاضرًا في الذهن قبل تناوله بالمعالجة و يقابله المستنبط و المركّب. و المعطيات في الرياضيات هي الكميّات المعلومة التي يستند إليها لاستخراج الكميّات المجهولة. و انظر جميل صليبا- المعجم الفلسفي 424/2

3- الجوهر: هو الموجود القائم بنفسه حادثًا كان أو قديمًا و يقابله العرض. و عند ديكرارت هو الشيء الدائم الثابت الذي يقبل توارد الأوصاف المتضادّة عليه دون أن يلحقه تغيّر. و انظر جميل صليبا- المعجم الفلسفي 394/1

أما وصف « الثبات » الذي يستعمله بعض الكاتبين و السياسيين في حديثهم عن الهوية في مناسبات عديدة و يطوفون حوله كما يطوف الوثني حول وثنه- أما هذا الوصف فقد جرى على الهوية نفسها فحرمها من فرص التجدد و الانبعاث و قطعها عن مصادر القوة و الحياة فاستحالت مرتعاً و خيماً تتكاثر فيه العلل و الأدوية و ميداناً قبيحاً تتمطى فيه الجهالة و الغباء.

إنّ الهوية حين يُراد لها أن تظلّ سجيئة هذا النوع من « الثبات » فدستيم للتفوق و الحبس و الانغلاق و لا تنفتح على الكون و العالم و تتبادل معه الأخذ و العطاء أو حين يُراد لعناصرها أن تبقى أبداً قوالب باردة أو صيغاً محتنة فلا تكون موضوع تجديد و إحياء أو مادة تعميق و تحقيق أو إغناء و تطعيم...

إنّ الهوية حين يُراد لها ذلك أو بعضه فإنها تكون قد فقدت أولى مقومات الحياة و هي التجدد و الحركة و الانبعاث. و هي بسبب هذا التقص أو القصور تظلّ عاجزة عن قيادة حياة الناس أو التأثير فيها و لا تملك، حينئذ، القدرة على تحقيق المشاركة و الحضور أو تأكيد المواجهة و الصمود لأنها تعاني، بسبب تقوقعها، ألواناً من العلل و يسكنها الخوف و الهزيمة و الاضطراب.

و إنّ الثبات حين يلحق، غنوةً، و صفاً للهوية فلا هي تفارقه و لا هو ينفك عنها فإنه يُصيبها بما يُصاب به الماء الرّاكد المحبوس عن كلّ حركة و تجدد و انتقال من كدارة و تعفن و أسون. و مثل هذه الهويات يبيض فيها الجهل و يُعشّش الغباء و تكون مرتعاً خصباً لجملة من الأمراض النفسية كجنون العظمة و التفاخر الهزيل و التعالم الأجوف و الادعاء البليد و الانهزام المقيم و الإقصاء و التهميش و التفوق و الانغلاق و المخاوف و الهواجس و السخيمة و الأحقاد...

و قبل مغادرة هذا المقام يمكن القول بأنّ هناك وصفاً آخر ملازماً للوصف السابق مصاحباً للهوية و هو التواصل الذي يضمن لها أن تعيش في الماضي و الحاضر و تسكن المستقبل.

التحول و التواصل، إذن، وصفان اثنان قميّان يجعل الهوية تنتعش و تحيا في كلّ زمان و مكان و تتجدد و تبعث في كلّ لحظة و آن فتكون، حينئذ، وسيلةً فعالة لبناء الشخصية الإنسانية و أداة سليمة لتحقيق توازنها و نضجها و انتعاشها.

3- وسائل تدجين الهوية:

يرى أمين معلوف¹ أنّ معالجة موضوع الهوية لا يكون أبداً بالاضطهاد و التضييق و لا يتحقق، كذلك، بالمجاملة أو اللامبالاة. و لكنّ الموقف السليم هو مراقبة الظاهرة و دراستها و فهمها جيّداً ثم ترويضها و تدجينها حتى لا تتحوّل إلى أداة خلاف و تقايل و نزاع أو يتحوّل العالم إلى غابة كبرى فيكون مفروضاً على الأجيال القادمة معاناة مشاهد العنف و القتل و الإبادة و التطهير العرقيّ أو تكون هي ضحيتها. و بعد متابعة المؤلف لظاهرة الهوية، في صفحات طوال، انتهى إلى تقديم جملة من الأفكار و المقترحات لتدجين الهوية، كما يقول، حتّى تستحيل عامل إغناء و ثراء يحقّق نسبة من التعارف و اللقاء بين الشعوب. و في ما يلي عرض لبعض هذه الوسائل و الحلول التي يراها الكاتب ملائمةً لتدجين الهوية و قميّة بإزالة « عنفها » و التخفيف من غلوائها.

أ- التبادل:

و لكي لا تستحيل العولمة غولاً يلتهم، في طريقه، كلّ الخصوصيات الثقافية و الحضارية و في مقدّمها الدين و اللغة فتكون سبباً إيقاظ الفتن و النزاعات و أملاً في أن تصبح هذه العولمة إنسانيةً فعلاً و ليست أمريكيةً فقط ينعم الناس بقطافها و جناها يدعو الكاتب إلى إقامة مبدأ المبادلة أو مبدأ التبادل.

1-انظر: Les identités meurtrières p 52, 139-147, 165

و خلاصة هذا المبدأ، عنده، أن تتحقق شعوب الأرض كلّها أنّ عناصر ثقافتها و موادّ حضارتها كالأعمال الفنيّة والألوان و الأطعمة والأذواق و الصّور والأصوات واللّغات والكلمات والموسيقى والأواني والكتب والشّخصيات التاريخية... كلّ أولئك يحظى بالعناية و الاهتمام من قبل الثّقافات المهيمنة. و حينئذٍ لا تجد هذه الشّعوب مانعًا أو غضاضة من أن تحتضن هي، أيضًا، من جهتها عناصر هذه الثّقافات الغالبة وتبتنّها.

و لبلوغ هذا الأمر يدعو أمين معلوف إلى التّوسل بتكنولوجيات الاتّصال الهائلة التي أفرزتها العولمة و الاستفادة منها لتحقيق الانتشار الواسع لكّل عناصر هذه الثّقافات القائمة و موادّ الحضارات و تبادلها. و حين يتحقّق تبادلٌ هذه الصّور و كلّ المنتوجات على المستوى العالميّ بين جميع الثّقافات و يتمّ لها الانتشار الواسع و الدّيوع بين كلّ الشعوب فإنّ أحدًا لن يشعر بالاحتقار و لن يكون ضحيّة الإقصاء و التهميش بسبب هويّته و انتمائه. و في هذه الحال، كذلك، لن يكون مفروضًا على أحد أن يُخفي دينه أو لغته أو اسمه ليعيش في وسط الآخرين.

و يخلص الكاتب إلى القول بأنه في ظلّ وسائل الإعلام الحديثة يمكن لمبدأ التّبادل أن يبلغ تمامه و أن يحقّق نتائجه. و حينئذٍ يكون في مُكّنة جميع شعوب الأرض أن تساهم في بناء ثقافة جديدة هي ثقافتنا المشتركة و هي ثقافة الغد.

و لا بدّ من الإشارة، ابتداءً، أنّ مبدأ التّبادل أو المبادلة الذي أفاض فيه أمين معلوف و ما يحيط بهذا المبدأ من تصوّرات و أفكار قد حظي باهتمام المسؤولين في الأمم المتّحدة التي تبنته و كلّفت إحدى المنظّمات التابعة لها بمهمّة تجسيده و هي لا تألو جهدًا في نشره بين شعوب العالم و تميمه و الدّعوة لجعله قيمة متداولة و مبدأ ثابتًا في العلاقات الثّنائية أو العلاقات المتعدّدة الأطراف.

و مصداق ذلك إعلان منظمة اليونسكو سنة 2010 سنّة للتّقارب و اللّقاء بين الثّقافات بإقامة نشاطات علميّة و فنيّة و ثقافيّة في كلّ الدّول تعكس التّنوع الثّقافي و اللّغويّ و الدّيئي لمختلف الشعوب لتحقيق التّعارف المشترك و تدعيم الحوار و الاحترام المتبادل.

و في هذا الشّأن يقول بيان المنظّمة الدّولية: « إنّ الهدف الأسى من هذه السنّة هو إثبات النّتائج الطّيبة للتّنوع الثّقافي بالاعتراف بأهمية التّقل و التّبادل الدّائم بين الثّقافات و نسيج العلاقات المختلفة القائمة بينها منذ زمن بعيد. و لما كانت الثّقافات تضمّ الآداب و الفنون و أنماط الحياة و أساليب العيش المشترك و نظام القيم و العادات و التّقاليد و الدّيانات فإنّنا مدعوّون للمحافظة على هذا التّنوع الثّقافي و حمايته و ترقّيته. و لا يتحقّق ذلك إلّا بإدماج مبادئ الحوار و الاعتراف المتبادل في كلّ السّياسات و خاصّة في سياساتنا التربوية و الثّقافية و الإعلاميّة لتصبح التّصورات الخاطئة و الأفكار المسبّقة و إثبات أنّ التّنوع الثّقافي هو إغناء للإنسانيّة.»¹

و الحقّ أنّ مبدأ التّبادل مبدأ أصيل و ذو فاعلية و جدوى و لا أحد يُنكر نتائجه الطّيبة في تحقيق التّقارب و التّعارف بين الأحاد و الجماعات و إزالة ما يُباعد بينها من حواجز التّوجس و الشّكوك و الظّنون.

و مع احترامنا لجهد الكاتب، في هذا الشّأن، و مع الاعتراف لمبدأ التّبادل أو المبادلة بهذه الأهميّة و القدر فإنّه لا مناصّ من الإضافة بأنّ هذا المبدأ لا يمكن أن يكون وحده وسيلة فعّالة لتحقيق التّقارب بين الشعوب و التّخفيف من جدّة التّزاعات و صراعات الهويّة لأنّ طبيعة العلاقات الدّولية القائمة تأبأه و طبيعة العولمة الجارفة تتحاشاه. إنّ الاعتراف لمبدأ التّبادل

بالأهمية والجاذبية والتّفع ما ينبغي أن يمتنعنا من القول أو يصدّنا عن التذكير بأنّه مبدأ لا يصمد كثيرًا أمام الواقع العالمي المعاصر وطبيعة العلاقات الدوليّة القائمة و إنه ليصطدم مع اعتبارات أخرى ومواقف تتعلّق بالثقافة والقيم.

إنّ القوّة هي القيمة الوحيدة الكبرى التي تحكم العلاقات الدوليّة، اليوم، و هي التي تنسجها وتوجّهها ولا يبدو أنّ هذا الواقع سيتغيّر غدًا أو في الأجل القريب. و ما حصل في العقود الأخيرة من ظلم وقهر وإبادة جماعيّة واعتداءات على الشّعوب ومصادرة لحيّاتها واستباحة لسيادة الدّول وإعلان الحرب عليها وتدميرها باسم مبادئ الأمم المتّحدة وباسم قيم الحرّيّة و حقوق الإنسان وتحت عناوين المحافظة على الأمن والسّلم الدوليّين... كلّ أولئك يجعل من مبدأ التّبادل مبدأ قاصرًا ضعيف الفاعليّة أو هو نظرة حاملة وأمنيّات.

إنّنا نعيش في زمن ليس للضعيف فيه من قيمة إلاّ بمقدار طواعيّه واستسلامه ولا يمكن أن يلتفت إليه أحد فيحترمه أو يُنزله منزلته إلاّ إذا التفت هو لحاله و سدّ منافذ النّقص في ذاته¹ و استكمل جوانب القوّة في نفسه. فإذا تحقّق له ذلك فإنه يملك، حينئذ، أن يعدّل في موازين القوّة القائمة فيكون في مستوى التّحديات ويستطيع أن يحقّق وجوده و يُثبت ذاته و يحظّي بمكانته في هذا العالم.

و تأسيسًا على هذا الكلام فإنه يصعب الدّهاب بعيدًا في هذا الظّن والاستنامة له والاعتقاد بأنّ مبدأ التّبادل أو المبادلة وحده، كما طرحه أمين معلوف، هو الحلّ الوحيد الأمثل الذي سيبرّي مناسبة طيبة للثقافات، كلّ الثقافات، أن تستعلن و تحقّق وجودها أو أنّ هذا الأخذ والعطاء بين الثقافات الغالبة والثقافات المهمّشة وهذا النّسيج والمزيج لعناصر من الثقافات المختلفة وموادّ الحضارات القائمة سيمكّن الجميع من إعلان ثقافته وممارسة هويّته وإقامة أساس متين للتعارف والتّعاون والاحترام المتبادل. إنها نظرة حاملة للواقع الدوليّ ولطبيعة العلاقات الدوليّة القائمة ولا يُمكن أن تصدر إلاّ من رجل بعيد عن أتون الصّراع أو هو ليس معنيًا به.

إنّنا مع الاحترام الواجب لكلّ هذه الجهود التي تُبذل، هنا وهناك، لتحقيق التّقارب بين الشّعوب وتحقيق الأمن والسّلم العالميّين فإنه لا بدّ من الإشارة إلى وجود وسائل أخرى فعّالة وحاسمة يُمكن الاعتماد عليها، ابتداءً، و تبنيها لتحقيق هذه الأهداف الكبيرة و هما العدل والمساواة.

إنّه ليس كالعدل والمساواة دواءً لكلّ الأدواء في القديم والحديث. و ليس كالعدل والمساواة حلًّا لكلّ المشاكل والقضايا والنّزاعات لأنه يقضي على أسبابها الأولى فيجفّ منابعها ويمنع قيامها و يجتثّ ما قد يسكن القلوب من ضغائن وسخائم وأحقاد. إنّ العدل والمساواة هما القيمتان الإنسانيّتان الأصيلتان الكفيلتان بإنجاز هذه الأهداف الكبيرة وإشاعة الأمن والسّلم العالميّين وتحقيق التّقارب والتّعارف بين الشّعوب والاحترام المتبادل.

إنّ تجسيد مبدأ العدل في العلاقات الدوليّة وتحقيق المساواة بين بني الإنسان في كافّة المجالات الممكنة مضافًا إليهما، و تابعًا لهما و ليس متبوعًا، مبدأ التّبادل أو مبادئ أخرى ملائمة يُمكن استحداثها... كلّ أولئك هو الذي يجعلنا نقرب من حلّ قريب أو ندنو من حلّ مقبول لمشكلة صراع الهويّة و ما قد ينشأ عنها من تطاحن ونزاعات بين الشّعوب.

2- الدّات: ما به الشّعور والتّفكير فتقف الدّات على الواقع وتوجد الصّور الذهنية وتقابل العالم الخارجيّ. و الدّات أعمّ من الشّخص لأنّ الدّات يطلق على الجسم وغيره أمّا الشّخص فلا يطلق إلاّ على الجسم. و قد يُقصد بالدّات الماهية بمعنى ما به الشّيء هو هو و يقابله حينئذ الوجود. و يشيع إطلاق الدّات، في العصر الحديث، على الإنسان الإيجابيّ المتمتّع بالإرادة والوعي. و انظر - مجمع اللغة العربيّة - المعجم الفلسفي ص 87 و الجرجاني - التعريفات ص 112 و جميل صليبا - المعجم الفلسفي 579/1 و م. روزنتال و ب. يودين - الموسوعة الفلسفيّة ص 216 و التّهانوي - كشاف اصطلاحات الفنون 876/1

ب- الإنسانية بدلاً من الدين:

أما الحلّ الثاني الذي يقترحه أمين معلوف لتدجين الهوية فهو موقفٌ نسيجٌ وحده فيه كثير من الغموض والاضطراب. و هو لهذه العلة فاقده للتماسك ولا يمكنه أن يحظى بالقبول والاحتضان.

يقف أمين معلوف¹، في صفحات طوال، عند الانتماء الديني و يدعو صراحةً إلى إخراجها من بناء الهوية أو جعله، على الأقلّ، عاملاً حيادياً لا يؤثر كثيراً في سلوك الأفراد والجماعات. و حجّته في ذلك أنّ الدين حين يكون عنصراً رئيسياً و فعّالاً في بناء الهوية فإنه يسبّب كثيراً من التّطاحن والفتن والالام بين بني البشر بعكس اللّغة أو اللّغات حين تكون هي الأُسّ والأصل في هذا البناء فإنها تستحيل أداة قرب و جمع و وئام و اتّصال.

ثم يؤكّد هذا المعنى بصيغة أخرى قائلاً إنّ فصل الدين عن الدّولة لا يكفي و لكنّ المهمّ، بل الأهمّ، هو فصل عنصر الدين عن بناء الهوية. و يزيد الكاتب موقفه إيضاحاً قائلاً بأنه لا يدعو إلى عالم خلّو من الدين لأنّ الدين باقٍ أبداً و لا يمكن لأيّ سياسة أو علم أن يلغيه أو يتجاوزّه. و لكنه يحلم بقيام عالم تكون فيه الممارسة الدّينية فردية و مقطوعة عن الحاجة إلى الانتماء. عالم لا يصبح فيه الدين رباطاً و أداة لأقوام يُشعلون الفتن و النزاعات.

و زبدة هذا القول كلّهُ أنّ لا يشعر كلّ ذي نحلة أو دين أنه معنيٌّ بالحاجة إلى الانتماء أو أنه في حاجة ماسّة إلى تحقيق التّواصل و الارتباط العضويّ مع إخوة له في العقيدة و الدين.

و يختم أمين معلوف هذا الموقف متسائلاً: كيف نستطيع أن نخفّف من غلّواء الدين و جعله غير ذي فاعلية و تأثير في حياة الناس؟ و هل هناك انتماء آخر يمكنه أن يُزاحم الدين فيجلب محلّه و يجعله مُهملاً أو مهجوراً كما كان من قبل؟ و يجيب في الحين: الانتماء إلى الإنسانية أو الانتماء إلى المجموعة الإنسانية.

و يزيد هذا الجواب جلاءً حين يلتفت إلى ظاهرة العولمة مؤكّداً أنّ تقنيّات الاتّصال الجديدة التي اختصرت المسافات بين الشّعوب قد هيأت لنا مناسبة التّعبير و الإعلان عن خصوصيّاتنا و اختلافنا و لكنّها، أيضاً، حقّقت لدينا الوعي² بمصيرنا المشترك و بجوانب التّشابه بيننا و عناصر الاتّفاق. و ليس بمستبعد أن يتنامى هذا الوعي فينشأ عنه هوية جديدة تكون هي حصيلة كلّ انتماءاتنا و يكون عنصر الانتماء إلى الإنسانية فيها هو العنصر الغالب الذي تزداد أهمّيّته مع الزّمن حتى يصبح الانتماء الأساسيّ دون أن يؤدّي هذا الانتماء الجديد- أيّ الانتماء إلى الإنسانية أو الانتماء إلى المجموعة الإنسانية- إلى محو انتماءاتنا و خصوصيّاتنا المختلفة.

إنّ أوّل ما يقفز إلى الدّهن أنّ مصطلح الإنسانية الذي يعول عليه أمين معلوف، في هذا الشّأن، و يدعو إلى جعله بديلاً عن الدين هو مصطلح غامض و فضفاض و هو ذو لبونة عجيبة و تقلّب و ذو قابليّة للتلون و التّشكّل. و بسبب هذه الخصائص اللّصيقة به فإنّنا لا نكاد نجد اتّفاقاً واحداً حول مضمونه و إجماعاً حول معناه.³

1-انظر: Les identités meurtrières p 107,109 -111, 114-115,123-124

2- الوعي: سيكولوجياً هو إدراك الإنسان لذاته و أحواله و أفعاله إدراكاً مباشراً و هو أساس كلّ معرفة. انظر مجمع اللّغة العربيّة- المعجم الفلسفيّ ص 215

1-انظر: La Grande Encyclopédie: 10/6049

ثم إنَّ الإنسانية ليست نوعاً واحداً بل هي مذاهب وأوان لها أصولها الفلسفية ومنابتها وهي تختلف في حمولتها وفي أسسها اختلافاً يجعل من الصّعب التّوفيق بينها. فالإنسانية الوجودية، مثلاً، التي يؤمن أصحابها أنّ الوجود سابق على الماهية¹ تقوم على اعتبار الإنسان وحده خالق القيم و باعث الحياة في كلّ ما يختار وأنّ الإنسان لا يحقّق ذاته إلاّ بتفوّقه الدائم على نفسه لأنه ليس هناك إلاّ فضاء واحد هو فضاء الإنسانية أو فضاء الدّاتية الإنسانية. وتوضيح هذا الكلام أنّ الله ليس هو القويّة التي نندفع نحوها إذ ليس هناك فويّة مطلقة بل عمليّات تفوّق دائمة. ثم تنتهي الوجودية إلى القول بأنّها تعتمد الإلحاد للوصول إلى كلّ الحلول الممكنة و النتائج. و حصيلة هذا المبدأ، عند أصحابه، أنّ الوجود الإنسانيّ هو الوجود الحقّ وأنّ الإنسان هو مركز الكون الوحيد و لذلك فليس لأحد أن يطالبه بفعل معيّن أو التّزام ما².

أما الإنسانية التي يشيع استعمالها في السياسة و في بعض المناسبات و خطاؤها الطويل المملّ عن حقوق الإنسان و كرامته و نبذ التمييز العنصريّ و الإشادة بقيم الأخوة و التضامن و الحرّية و العدالة و المساواة و الأمن و السّلام...

أما هذه الإنسانية و بنودها، و قد أشار إليها أمين معلوف³ و أشاد بها، فهي التي تزرع الموت و الدّمار في أوطاننا و تغتصب أراضينا و تسرق خيراتنا و طاقاتنا و تتحكّم في مصيرنا و تحوّل أوطاننا إلى ساحات كبرى تُعرض فيها مشاهد الهدم و القتل و البكاء و الدّموع و الجثث و الأحران و الدّماء و الأشلاء. و هذه الإنسانية هي التي يستهويها الدّمار و الخراب و تستحلّ استعمال الأسلحة الفتاكة المحرّمة دولياً لقتل الأطفال و النّساء و الشيوخ و إنّ مشاهدتها بل جرائمها لا زالت قائمة في فلسطين و العراق و أفغانستان و في كلّ مكان.

فأيّ الإنسانية، إذن، هي التي يعنينا أمين معلوف و يتحمّس لها و يراها جديرةً لأنّ تحلّ محلّ الدّين فتحقّق الألفة و التّقارب و الاحترام المتبادلّ بين الشّعوب ؟

و لقد تعدّدت الوقوف عند هاتين الدّالتين المذهبية و السياسية لمصطلح الإنسانية لبيان أنّ ما يدعو إليه أمين معلوف ليس عملياً و لا يمكن تقاسمه أو احتضانه لأنه يتعارض كثيراً مع اعتبارات مختلفة و مواقف تتعلّق بالثقافة و العقائد و نظام القيم. إنّ مصطلح الإنسانية، خلافاً لما يتمنّاه أمين معلوف، لا يمكن أن يكون بديلاً عن الدّين و هو بهذا التّقلب و الغموض أو بهذه الحمولة الشّائمه و هذا المضمون الكالغ لأنّ البديل ينبغي أن يكون في مستوى المبدلّ منه أو قريباً منه أو يساويه و هذا ما لم يتحقّق بعضه أو نصفه أو ثلثه في مصطلح الإنسانية.

و إنّ أوّل تناقض لا يخفى عند أمين معلوف أنه يدعو إلى استبعاد الدّين من بناء الهوية و هو الذي كان قد أكّد، من قبل، أنّ الدّين عنصر حيويّ وفعال في بناء الهوية وأنّه يصعب على الإنسان، أيّ إنسان، أن يحيا حياة فارغة من الدّين أو مُنصّلة تماماً من قيمه و إحياءاته و كذلك لا يستطيع أيّ علم أو نظام سياسيّ أن يمحوه أو أن يحلّ محله.

فكيف يكون الشّيء أساسياً و مهمّاً ثمّ يُراد حذفه ؟ و كيف يُثبت للدّين هذا العمق و هذه القوّة و المكانة ثمّ يدعو إلى تجاوزه و الاستعاضة عنه بمفهوم آخر كالإنسانية غامض و فضفاض تعدّدت حوله المشارب و المواقف ؟

2- الماهية: في التعريفات للجرجانيّ ص 205 « ماهية الشيء ما به الشيء هو هو و هي من حيث هي لا موجودة و لا معدومة و لا كليّ و لا جزئيّ

و لا خاصّ و لا عامّ ». أو هي الخصائص الذاتية لموضوع معيّن و تقابل الوجود و هو نوع من الحضور الفعليّ في العالم. و انظر المجمع اللغويّ - المعجم

الفلسفي ص 87 و لمجموعة من المؤلّفين - معنى الوجودية ص 31

3- انظر: سارتر - الوجودية مذهب إنسانيّ ص 88-89

4- انظر: Les identités meurtrières p 123-125

إنّ الدّين، خلافاً لأمين معلوف، ليس بطبيعته مصدرًا للأحقاد و الشّئان و لا هو وسيلةٌ لصناعة الموت و إقامة العداوات ابتداءً. إنّ للدّين وجودًا مستقلًّا عن وجود الأحاد و الجماعات المنتمين إليه و هو ليس معنيًا بالسلوكات الشّاذة التي تدّعي انتسابًا إليه أو احتضانًا له. و إنّ الوعي الحقيقيّ هو فضح كلّ السلوكات و المواقف التي تنتسب إلى الدّين زورًا و بهتانًا و تدّعي وصالًا به لتبرير التّراعات و الأحقاد أو تزكية الظّلم و القتل و العدوان. أمّا الاتكاء على التّماذج السّلبية و الاستدلال بالسلوكات الخاطئة و تسليط الأضواء عليها وحدها دون غيرها لإبداء حكم عامّ أو تسجيل موقف قاطع فليس من التّزاهة العلميّة في شيء. إنّ هذه الأفكار حول الدّين و صناعته للكراهية و الأحقاد و كونه مصدرًا للعنف- إنّ هذه الأفكار قد كثر تداولها في وسائل الإعلام العالميّة المهيمنة حتى أصبحت منقوشة في العقل الباطن تُردّد، هنا و هناك، عن غفلة و قلة استيعاب. و لا أحبّ، في هذا المقام، أن أقف طويلاً عند هذه الأفكار و تحليلها فليس ذلك مطلوب هذا البحث. و لكّني أقول، في كلمات موجّزات، إنّ القرن الماضي قد شهد حربين عالميتين بلغ ضحاياها حوالي 70 مليون نسمة، حسب بعض التّقديرات، و شهد حروبًا إقليميّة أخرى أنشأت كثيرًا من الأحران و الخراب و سالت فيها كثيرٌ من الدّماء و الدّموع و سقط فيها من الضّحايا و الأشلاء ما سقط. و كلّ هذه الحروب لم يكن الدّين سببها و لم يكن له أيّ دخل فيها من قريب أو من بعيد. فكيف تُطوى مثل هذه الحقائق و الأفكار و لا يعي لها ذكر جادّ أو التفاتة مناسبة ثمّ يُراد لأفكار آخر، خدمةً لجهات معيّنة أو ثقافات بعينها، أن يُكتب لها الدّيوع و الانتشار؟

ج- التعددية اللّغوية:

يذكر أمين معلوف¹ أنّ اللّغة، خلافاً للدّين، لا ينطبق عليها مبدأ التّفرد و الحصر أيّ أنّ أيّ إنسان يستطيع أن يمارس، في الوقت نفسه، اللّغة العربيّة و الإيطاليّة و العبريّة و غيرها و لكنه لا يمكنه أبدًا أن يكون يهوديًا و مسلمًا و مسيحيًا في آن واحد. و يلفت انتباهنا، بعد ذلك، إلى المزيّة المزدوجة التي تتمتع بها اللّغة و هي كونها عنصرًا من عناصر الهويّة و وسيلة للاتّصال. ثمّ يستند الكاتب على هذه الخصوصيّة المزدوجة فيضيف بأنّه لا يدعو إلى فصل اللّغة عن الهويّة، كما صنع مع عنصر الدّين، لأنّه أمر غير مفيد و لا يمكن تخيّل أو التّفكير فيه ابتداءً كما يقول.

و يواصل أمين معلوف كلامه قائلاً إنّ الانتماء اللّغويّ عنصر هامّ في بناء الهويّة قد يُوازي الانتماء الدّيني أو يُضاهيه في الأهميّة و الشّأن. و قد تأكّد شعور كلّ التّقافات بحاجتها القويّة، و الملحّة أيضًا، إلى لغة الهويّة و إشباع انتمائها اللّغويّ. و إذا كانت ممارسة لغة الهويّة حقًا مشروعًا لا يقبل المساومة و التّفاوض فإنّ أيّ سلوك يستهدف قطع الحبل السريّ الذي يربط الإنسان بلغته أو محاولة منعه، بشكل من الأشكال، من ممارسة لغته الأصليّة قد يؤدّي إلى ألوان من التّطرف و يفتح أبوابًا من العنف و التّراعات يصعب سدّها.

و تفاديًا لقيام نزاعات لغويّة، في المستقبل، يقترح أمين معلوف صيغة يراها ملائمة يتحقّق بموجبها صيانة اللّغة الأمّ و إشباع الانتماء اللّغويّ و ضمان التّواصل و التّقارب بين شعوب ذوات لغات مختلفات. و هذه الصّيغة التي يقترحها المؤلّف هي كالتّالي: إنّ كلّ إنسان، في عالم اليوم، يحتاج إلى إتقان ثلاث لغات: اللّغة الأولى و هي لغة هويّته و اللّغة الثّالثة و هي اللّغة الإنجليزيّة لأنها لغة تَبَسُّط جناحها على كلّ الأرض. و بين هاتين اللّغتين هناك اللّغة الوسطى و لتكن أيّ لغة أخرى يختارها الإنسان و تناسبه. و يزيد هذا المعنى وضوحًا حين يدعو إلى المحافظة على لغة الهويّة و عدم إهمالها ثمّ تعميم تعليم و استعمال اللّغة الإنجليزيّة مع التّأكيد على عدم كفايتها وحدها. و بين هاتين اللّغتين الخاصّة و العامّة ينبغي تشجيع تعلّم اللّغات الأخرى حتّى

يَنشأ، في كلِّ أمةٍ و في كلِّ بلد، طوائفٌ من النَّاس تُتقن لغاتٍ عالميّة كالإسبانية و الفرنسيّة و الألمانيّة و العربيّة و اليابانيّة و الصّينيّة...

و الحصيـلة النهائيّة لهذه الصّيغة، في رأي أمين معلوف، هي تنمية كلِّ العلاقات بين الشّعوب بما فيها العلاقات الثقافيّة و التجاريّة و ضمان نجاحها لأنّ الشّركاء في هذه العلاقات يكونون قد أبدوا اهتمامًا سابقًا ببعضهم البعض حين تعلّم كلٌّ منهم لغة الآخر. و يخلص الكاتب إلى القول بأنّ هذه الصّيغة ذات أهميّة و نفع للأحاد و الجماعات و أنّ الذي تحقّقه متعدّدٌ و ثريّ: إشباع الانتماء اللّغويّ و المحافظة على لغة الهويّة و دخول العولمة و التّعامل مع مظاهرها بلا خوف أو وجلّ ثمّ المحافظة على التّنوع اللّغويّ لضمان التّواصل و تنمية العلاقات بين الشّعوب و إثرائها. و كلّ أولئك هو أفضل بكثير من أجواء الشكّ و البلبلة و التّوجس و الظنون.

استنتاج

يمكن القول، بعد كلّ ما تقدّم من أفكار، أنّ كتاب (الهويّات القاتلة) جدير بالقراءة و التأمّل للوقوف على فكر مثقّف لبنانيّ ذي مكانة و شأن و إنتاج كبير تجمّعت فيه انتماءات مختلفة كتبت في موضوع الهويّة بعد ما تابع المأساة اللّبنانية مهاجرًا في فرنسا و مراقبًا للأوضاع الدّولية المتقلّبة و التّزايدات القوميّة التي لا تهدأ. وإذا كان هذا الكتاب لا يخلو من أفكار جيّدة و آراء صائبة فإنه لم يسلم، كذلك، من بعض الهنات و عليه بعض الاستدراك.

إنّ الأمر الكبير الذي يؤكّد عليه أمين معلوف كثيرًا، في كتابه، و يردّده صراحة و إيجاء أنّ الهويّة هي الدّاء و هي مصدر الألام و أصل كلّ الدموع و الدّماء و الأشلاء. و ليس من شكّ أنّ هذا الرّأي يتحلّى ببعض الصّواب و أنّ له من الواقع التّاريخي الطّويل ما يُسنده و يُقوّيه و يجعل وجهًا للهويّة كالجحّ ينتفض أمامنا مذموماً مدحوراً.

و لكنّ الذي لا يقوله الكاتب أو يتغافل عنه هو هذا السّؤال الكبير: متى تكون الهويّة مصدرًا للألام و سبب الفتن و التّزايدات ؟ و لماذا تتنكبّ عن وظيفتها الأولى فتستحيل أداةً وحشيّة من أدوات القتل و القهر و الحقد و التّطهير العرقيّ ؟ و أين يحصل كلّ ذلك و كيف... ؟

إنّ الوظيفة الأولى للهويّة هي جمع شتات النّفس الإنسانيّة و إقامة التّوازن بين دوافعها و تحقيق الانسجام في عالمها ذي التّعقيد و الغموض و تجنّب الشّخصية الإنسانيّة مزلق الفوضى و الحيرة و الأنبتات و صدها عن متاهات التّمزق و العنف و العدوان. فإذا ثبّتها لها وظيفة أخرى أو غاية مشبوهة فإنما هو حال شاذّ و وضع طارئ هي منه براء و يتحمّل عواقبه و ينوء بأوزاره أولئك المرضى و المتطرّفون الذين أفرغوها من حمولتها الإنسانيّة الأولى و شحّنها بخليط غريب من الشكوك و الظّنون و الخوف و التّربص و السّخيمة و الحقد و العدوان.

ليس للهويّة، إذن، وضع واحد كما يوحي بذلك كتاب (الهويّات القاتلة) من خلال عنوانه و لكنّ لها أوضاعًا مختلفة تبعًا للظّروف التي تحياها و تبعًا للملابسات التي تغشاها و ما قد تعرّض له من حبس أو مطاردة و تضيق و ما قد تنعم به من أمن و حرّيّة و انتعاش. و إنّ الوقوف الجادّ عند مجموع هذه الظّروف و الملبسات و فهمها و اكتناهاها هو الذي يحدّد رأينا في الهويّة و في أوضاعها المختلفة و يزوّدنا بالقدرة على الحكم عليها و الموقف منها. و إنّ أيّ محاولة لفهم ما قد يطرأ على طبيعة الهويّة من تغيير أو تحوّل أو شدوذ ينبغي أن يكون مسبقًا بطرح مجموعة من الأسئلة، كالتي سبق بيانها، تُضيء هذا الأمر و تكون عونًا للباحث على تلمّس مواضع الخلل و استبانة أسبابه الأولى و معرفة دواعيه.

و لو سأل أمين معلوف مثل هذه الأسئلة أو بعضها لفتح له أبواب من الفهم مختلفة و ألوان من الرأي متوازنة و لكنّه لم يفعل ذلك أو أغفله أو لم يُرده صراحة. فكانه كان معنياً، ابتداءً، بتسجيل شيء آخر مرتّب في الدّهن سلفاً فهو يتبّعهُ و يستهديه و ينشط له و يستوحيه و من ثمّ لم يطرح مثل هذه الأسئلة و لم يكلف نفسه عناءها.

و قد يكتسب هذا الرّأي بعض قيمته و تبدو وجاهة هذا الموقف بالعودة إلى الكتاب و الوقوف عند عنوانه مَلِيّاً و تدبّره: (الهويّات القتالة) إذ لا يفوت المتأمل الحصيف أن يلاحظ فيه شيئاً من الحكم و يستنتج منه تلخيصاً سابقاً للموقف يجعله مُوحياً بمضمون صفحاته قبل تقليبها. و كأنّ الكاتب المحترم، بهذا الصّنيع، قد جنّى على نفسه فقيدها و جنّى على بحثه فأناه قبل أن يكتبه.

قائمة المراجع:

- 1- أبو البقاء أيّوب بن موسى الكفوي: الكليات. معجم في المصطلحات و الفروق اللّغوية. قابله على نسخة خطّية و وضع فهارسه. عدنان درويش و محمد المصري. مؤسّسة الرّسالة. ط. 1. بيروت. 1998
- 2- جان بول سارتر- الوجودية مذهب إنساني. قدّم له كمال الحاج. دار مكتبة الحياة. بيروت. بدون تاريخ
- 3- جميل صليبا: المعجم الفلسفي. الجزء 1، 2. دار الكتاب اللّبناني. دار الكتاب المصري. 1978
- 4- دينكن ميتشال: معجم علم الاجتماع. تر إحسان محمد الحسن. دار الطليعة. ط. 1. بيروت. 1981
- 5- عليّ بن محمد الشّريف الجرجاني: التّعريفات. مكتبة لبنان. طبعة جديدة. بيروت. 1985
- 6- مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الفلسفي. الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية. القاهرة. 1983
- 7- مجموعة من المؤلّفين: معنى الوجودية. دراسة توضيحية مستقاة من أعلام الفلسفة الوجودية. دار مكتبة الحياة. بيروت. 1978
- 8- محمد عليّ التّهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم. الجزء 1، 2. تقديم و إشراف و مراجعة رفيق العجم. مكتبة لبنان ناشرون. ط. 1. 1996
- 9- مراد وهبة: المعجم الفلسفي. دار الثّقافة الجديدة. ط. 2. القاهرة. 1971
- 10- م. روزنتال و ب. يودين: الموسوعة الفلسفيّة. ترجمة سمير كرم. دار الطليعة. ط. 5. بيروت. 1985
- 11- Amin malouf - Les identités meurtrières, Grasset, Paris, 1988
- 12- La grande encyclopédie . Vol 10,13 Librairie Larousse, Paris, France 1983
- 13- Guy michaud - Identités collectives et relations inter-culturelles, Presse universitaire de France, 1978

Webographie:

<http://ejabat.google.com/ejabat/thread?tid=61feb7b785c01b3c>

http://www.unesco.org/culture/pdf/2010/2010_leaflet_fr

دور الميراث الثقافي في ترسيخ الهوية الوطنية للفرد الجزائري زمن العولمة

The role of cultural inheritance in establishing the national identity of the Algerian individual in the era of globalization

أ. إبراهيم بن عمار/ جامعة وهران 02 ، الجزائر

ملخص :

بالرغم مما تفرضه العولمة من تحديات ومخاطر على الهوية الوطنية والخصوصيات الثقافية للمجتمعات والشعوب عامة والمجتمع الجزائري خاصة، إلا أن مجتمعنا يمتلك من المقومات ما يؤهله إلى المواجهة والتكيف بشكل ايجابي، فالموروث الثقافي للمجتمع الجزائري يمتاز بالتنوع والثراء، غير أن الإقرار بما نملك أمر مهم ولكن الأهم أن نكون على وعي بحقيقة ما نملك، فالإقرار بوجود الشيء غير الوعي بأهميته، لأنه لا سبيل إلى ترسيخ وتعزيز الهوية الوطنية للفرد الجزائري زمن العولمة دونما الوعي بأهمية دور التراث في إحداث ذلك، فمن بين الضمانات التي تمكن للمجتمع الجزائري من الحفاظ على هويته العربية الإسلامية هي إحياء لتراثه الثقافي وتطويره بما ينسجم مع متطلبات العصر، فلا هوية دون تراث ولا تراث دون وعي وإحياء وتطوير.

الكلمات المفتاحية: الموروث الثقافي، الهوية الوطنية، العولمة.

Abstract :

Despite posed by globalization challenges and risks to national identity and cultural specificities of societies and public peoples private and Algerian society, but our society has the basics that qualifies him to confrontation and adapt positively, cultural heritage Algerian society is characterized by diversity and richness, but the recognition of what we have is important, but More important to be aware of the reality of what we have. The recognition that there thing is awareness of its importance, because there is no way to consolidate and strengthen the national identity of the individual Algerian era of globalization without the awareness of the importance of the role of heritage in the creation, it is among the guarantees that enable Algerian society to maintain Islamic Arab identity is revived to its cultural heritage and development in line with the requirements of The era, no identity without heritage or heritage without awareness and revival and development.

Keywords: cultural heritage, national identity, globalization.

مقدمة:

يعد الانتماء مطلباً ضرورياً تصبوا إليه كل نفس بشرية، فهو قضية و ظاهرة جماعية اجتماعية أكثر منها فردية، تتأثر بالتغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية التي يشهدها المجتمع. فالمجتمع الجزائري على سبيل المثال شهد عدة تطورات وتغيرات وعلى جميع الأصعدة، كل هذا أثر ويؤثر في انتماء الفرد الجزائري لمجتمعه وخاصة فئة الشباب، حيث تزداد هذه الفئة ميلاً وانجذاباً نحو الأخذ بالأفكار والنظريات والنظم الغربية، فأصبح الكل يقلد الغرب في أبسط الأشياء مما أدى بهم إلى الابتعاد والانسلاخ عن تراثهم ودينهم وقيمهم، الأمر الذي أبرز تراجعاً رهيباً في القيم الثقافية حتى وصل الأمر إلى تشتت الهوية الوطنية ومسخها.

يعتبر الميراث الثقافي الذي ينبع من أصالة المجتمع الجزائري، وتمتد قيمته الإنسانية في أعماقه ويقتبس منها هذا المجتمع المقومات السامية من الأسس المكونة لهويته العربية الإسلامية، والذي يتم من خلاله رفع شعار التقدم وإعادة أمجاد حضارتنا حتى لا تتفسخ الهوية الوطنية، وتدخل في تراثنا العادات المستوردة بفعل رياح العولمة والتطور والتحضر "الزائف في أغلب مظاهره، لتنفيذ مشروع يعاكس العادات ويحارب التقاليد والقيم التي تحمل معاني السمو والرفعة المتأصلة في السلوك الذي يضمن الحماية من الوقوع في شبك الانحراف، ومنه تأتي أهمية الموضوع في ضوء ما تفرضه العولمة من مخاطر وتحديات على هويتنا الوطنية، وصار تبعاً لذلك ضرورة التعرف أكثر على الميراث الثقافي و إبراز دوره في تعزيز قيم الانتماء الوطني وترسيخ الهوية الوطنية للفرد الجزائري. وذلك بطرح التساؤل التالي: كيف يمكن للميراث الثقافي أن يسهم في ترسيخ الهوية الوطنية للفرد الجزائري زمن العولمة؟ إن الإجابة عن هذا التساؤل يدفعنا إلى تحليل العناصر الآتية:

أولاً: الجانب المفاهيمي

ثانياً: مخاطر العولمة على الهوية الوطنية للفرد الجزائري

ثالثاً: ملامح الميراث الثقافي للمجتمع الجزائري.

رابعاً: دور الميراث الثقافي في ترسيخ الهوية الوطنية للفرد الجزائري.

أولاً: الجانب المفاهيمي

1- في مفهوم التراث:

يرى محمد الجابري حين قيامه بشرح المدلول التاريخي لمعنى التراث أن المضامين التي تحملها هذه الكلمة في أذهاننا اليوم، نحن عرب القرن العشرين، لم تكن تحمله في أي وقت مضى، إن لفظ التراث كما يعرف من خلال لسان العرب من مادة "ورث" وتجعله المعاجم القديمة مرادفاً لـ "الإرث" و "الورث" و "الميراث" وهي مصادر تدل على ما يرثه الإنسان من والديه من مال وحسب⁽¹⁾، كما أنه لا كلمة تراث ولا كلمة ميراث ولا أي من المشتقات من مادة "ورث" قد استعملت قديماً في معنى الموروث الثقافي والفكري، وهو المعنى الذي يعطى لكلمة تراث في خطابنا المعاصر. وحتى في اللغات الأجنبية لكلمة تراث، لا تحمل المضامين نفسها التي نحملها اليوم لكلمتنا العربية "التراث"، إن معناها لا يكاد يتعدى حدود المعنى القديم للكلمة والذي يحيل أساساً إلى تركة الهالك إلى أبنائه⁽²⁾.

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار المعاف، بدون طبعة، القاهرة، دون تاريخ، ص 4808-4809.

(2) محمد عابد الجابري، "التراث ومشكلة المنهج"، مجلة المستقبل العربي، العدد 83، بيروت، 1986، ص 4-5.

إن كلمة تراث بالمعنى الذي يعطيها لها خطابنا العربي المعاصر معتبرا التراث هو الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني، وكما نتداوله اليوم، إنما يجد إطاره المرجعي داخل الفكر العربي المعاصر ومفاهيمه الخاصة، وليس خارجهما، فيإلى هذا الإطار يجب أن نتوجه ونبحث فيه عن الخصوصيات التي تميزه⁽¹⁾، ويرى الجابري ان استعمال التراث بالمعنى الذي أبرزه، بدأ توظيفه في خطابات عصر النهضة العربية ولازال موظفا في الخطاب العربي المعاصر.

ويُعرف التراث بأنه ذلك التراكم المعرفي الموروث غير المحدود الزاخر بالقيم الطيبة والتقاليد النبيلة والسجايا الراقية، والقادر على البقاء أبد الدهر متى ما كان الوعي به قائما بالرغم من التطور الحاصل على مختلف الأصعدة، أما الآثار فهي الجانب المادي الذي يشكل من التراث كل ما تركه الإنسان على فترة من الزمن⁽²⁾.

كما يعرفه الباحث يوسف عبد الله بأنه "شكل ثقافي متميز يعكس الخصائص البشرية عميقة الجذور، ويتناقل من جيل إلى آخر، ويصمد عبر فترة زمنية متفاوتة نوعيا ومتميزة بيئيا، تظهر عليه التغيرات الثقافية الداخلية والعادية ولكنه يحتفظ دائما بوحدة أساسية مستمرة". كما يرى أن مفهوم التراث لا يكتمل دون أن يقترن بمفهوم الحفاظ والإحياء، وهو لا يكون تراثا إلا إذا أحس وارثوه بضرورة التعرف عليه والكشف عنه وحمايته وإحياءه والإفادة من قوته الكامنة التي لا تبرز إلا على قدر وعيهم بذلك التراث وحرصهم على امتلاكه وتحقيق الذات من خلال تواصل الإبداع فيه وتحمل مسؤولية نقله إلى الأجيال القادمة⁽³⁾.

فالتراث بمفهومه الواسع يمثل الذاكرة الحية للفرد والمجتمع التي بها يمكن معرفة هذا الفرد وهذا المجتمع ويتم التعرف على هويته وانتماءه إلى شعب من الشعوب وحضارة من حضارات، وفي ذلك يقول الجابري "التراث كل حاضر فينا أو معنا من الماضي... وبما أن التراث شيء من الماضي فهو يمثل ذاكرتنا الثقافية"⁽⁴⁾.

والتراث لا يمكن اعتباره كله شيء غير قابل لإعادة النظر والتصحيح والترميم والإضافة، كما لا يجوز النظر إليه انه نهاية المطاف وقمة الإبداع وأكمل صورة من صور الحضارة، وبهذا المعنى يمكن أن نفهم التراث، وان نتعامل معه بصيغة ايجابية، باستخراج العناصر الحية لكي تستمر وتنمو دون أن نغفل عن نبض العصر وحاجاته، ويمكن بهذا أن يكون عنصر إثراء وتقدم، لا أن يكون سببا في التخلف وتكريس الماضي⁽⁵⁾.

تصنيف التراث: لقد تعددت تصنيفات التراث، فمنهم من اعتمد تقسيمه إلى مادي ولامادي، ومنهم من قسمه إلى تراث طبيعي وثقافي (مادي ومعنوي) كما فعل منظمة اليونسكو، أما التصنيف الذي نوردده فهو للباحث عبد الله يوسف الذي صنّفه إلى ثلاثة أقسام:

-تراث مادي: كالمباني الأثرية وما تكشفه الحفريات وتضمنه المتاحف وكلها تمثل حضورها بشكل أو بآخر، ويشمل هذا النوع من التراث، الآثار الثابتة والمنقولة، أما الآثار الثابتة، منها بقايا المدن التاريخية والعمائر الدينية والمعالم المعمارية والتحصينات

(1) نفس المرجع، ص 6.

(2) اشرف محمد سيد، التراث الحضاري في الوطن العربي أسباب الدمار والتلف وطرق الحفاظ، مؤسسة النور للثقافة والإعلام، البحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية، 2009، ص5.

(3) يوسف محمد عبد الله، الحفاظ على الموروث الثقافي والحضاري وسبل تنميته، ص19، في موقع <https://www.yemen-nic.info/files/tourism/studies/hefath.pdf>

(4) محمد عابد الجابري، "حول المنهج"، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد02، الكويت، 1989، ص251.

(5) مجموعة من الباحثين، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، تحرير وتقديم: رياض زكي قاسم، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان، 2013، ص79.

العسكرية والمنشآت المائية والزراعية والمدافن ونحوها، وأما الآثار المنقولة، منها المنحوتات والمواد المنقوشة والمخطوطات والمسكوكات والأدوات الفخارية والخزفية والزجاجية والمنسوجات والأسلحة وأدوات الزينة، إضافة إلى الموروثات الحرفية والصناعية والمعمارية التي توقف إنتاجها بالطرق التقليدية التي توارثها الناس لكونها شواهد تراث مميزة تعكس الهوية المحلية وحل محلها إنتاج آلي أو استهلاكي محاكية في الصنعة ومخالفه في الجودة والقيمة الفنية والجهد البشري.

-التراث الفكري: قوامه ما قدمه السابقون من علماء وكتاب ومفكرين ومسئولين سياسيين كانوا شهودا على عصرهم ومبدعين من خلالها، ويشمل هذا النوع من التراث، ما ورث عن السلف من العلوم والمعارف الدينية، العلوم والمعارف الطبيعية والفنون الأدبية والفنون الزخرفية والخطية ونحوها.

-التراث الاجتماعي: حياتي قوامه قواعد السلوك والعادات المجتمعية والأمثال والتقاليد ومنظومة القيم الاجتماعية، وهي تشكل بناء خلقيا متماسكا طويل الدوام، كبير الضغط والتأثير على الأفراد وان يكون مقيما وراء الشعور والوعي في غالب الأحيان، ويشمل هذا النوع من التراث، الموروثات الشفهية كالحكايات والأمثال والأزجال واللهجات، العادات والسجاياء والأزياء وغيرها من التقاليد الاجتماعية، إضافة إلى الفنون الشعبية كالغناء والموسيقى والرقص والأهازيج ونحو ذلك⁽¹⁾. وإذا كان يمثل النوع الأول التراث الثقافي المادي فان النوعين الثاني والثالث يمثلان التراث الثقافي اللامادي، وذلك حسب تصنيفات تعتمد تقسيم التراث إلى مادي ولامادي (غير المادي).

إن التراث غير المادي وبالنظر إلى خصوصيته هو تراث يبقى إلى حدود معينة حاضرا وحييا ومن هنا أطلق عليه اسم "التراث غير المادي الحي" وهذه التسمية يتم استخدامها أكثر فأكثر على النطاق الدولي، حيث يعتبر هذا النوع من التراث ذا أهمية بالغة بالنسبة لأي أمة أو شعب "فالتراث الثقافي غير المادي إبداع عفوي أصيل، يحمل ملامح الشعب، ويحفظ سماته، ويؤكد عراقتة، ويعبر عن همومه اليومية، ومعاناة أفرادها، على مختلف مستوياتهم، وهو صورة لروحهم العامة، وشعورهم المشترك"⁽²⁾.

2- في مفهوم الهوية:

يدل معنى الهوية في الاصطلاح الفلسفي العربي على "ما به الشيء هو هو بوصفه وجودا منفردا متميزا عن غيره"، وكما يقول الفارابي "هوية الشيء وعينيته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له، كل "واحد" وقولنا انه إشارة إلى هويته وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك"⁽³⁾، وتستعمل كلمة الهوية في الأدبيات الغربية لأداء معنى (Identity- Identité) التي تعبر عن خاصية مطابقة الشيء لنفسه أو الاشتراك مع الشيء آخر بالصفات والخصائص عينها⁽⁴⁾.

الهوية هي وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري، ومحتوى لهذا الضمير في نفس الآن، بما يشمل من القيم وعادات ومقومات تكييف ووعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها⁽⁵⁾. حيث يجمع جل الباحثين على انه لا وجود لشعب دون هوية يعبر من خلالها على ذاته.

(1) يوسف محمد عبد الله، مرجع سابق الذكر، ص3.

(2) أحمد زياد محب، من التراث الشعبي... دراسة تحليلية للحكاية الشعبية، دار المعرفة، بيروت، 2005، ص17.

(3) مجموعة باحثين، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مرجع سابق الذكر، ص516.

(4) نفس المرجع، ص158.

(5) عباس الجزائري، مكونات الهوية الثقافية المغربية: في الهوية الثقافية للمغرب، كتاب العلم، السلسلة الجديدة، 1988، ص22.

فالهوية جسر يعبر من خلاله الفرد إلى البيئة الاجتماعية والثقافية، فهي إحساس بالانتماء والتعلق بمجموعة، وعليه فالقدرة على إثبات الهوية مرتبط بالوضعية التي تحتلها الجماعة في المنظومة الاجتماعية ونسق العلاقات فيها⁽¹⁾. ومن ذلك يعتبر مفهوم الهوية من المفاهيم صعبة التحديد باعتباره مفهوما متحركا وفي حالة بناء دائم من خلال الوضعيات التي يكون فيها الأفراد والجماعات ونوعية العلاقات الموجودة بينها وفي كل تلك الوضعيات وما يحدث داخلها من علاقات، إذ يقوم شعور الانتماء بوظيفة هامة في تأكيد الهوية ورسم حدودها⁽²⁾. فالانتماء يشكل جذر الهوية الاجتماعية وعصب الكينونة الاجتماعية، وهو الإجابة عن سؤال الهوية، من نحن؟، والانتماء أيضا هو صورة الوضعية التي يأخذها الإنسان إزاء الجماعة أو العقيدة، كما انه يشكل مجموعة الروابط التي تشد الفرد إلى الجماعة أو عقيدة أو فلسفة معينة، وقد يؤخذ صورة شبكة من المشاعر ومنظومة من الأحاسيس التي تربط بين الفرد والمجتمع، وهذا بدوره يؤسس أيضا إلى مجموعة من العلاقات الموضوعية التي تتجاوز حدود المشاعر إلى منظومة الفعاليات والنشاطات التي يتبادلها الفرد مع موضوع انتماء⁽³⁾، ومنه فالانتماء هو "شعور الفرد بالارتباط بالجماعة وميله إلى تمثيل أهدافها والفخر بحقيقة أن الفرد جزء منها، والإشارة الدائمة إلى الانتماء ولا سيما في لحظات الخطر"⁽⁴⁾.

تحدد الهوية في مجموعة من المقومات الأساسية المتجسدة في:

- اللغة الوطنية واللهجات المحلية المرتبطة بوجود شعب ما وتطوره ومصيره على أساس أن تكون اللغة الوطنية المعتمدة في التدريس على جميع المستويات في التسيير الإداري، وفي القضاء إضافة إلى التواصل بين شرائح المجتمع إلى جانب اللهجات المحلية.
- القيم الدينية والوطنية المتكونة عبر العصور والتي تكسب الشعب حامل الهوية حصانة تحول دون ذوبانه في شعوب أخرى، وتأهله لمقاومة كل محاولات التذويب مهما كان مصدرها.
- العادات والتقاليد والأعراف النابعة من تلك القيم والحاملة لها والعاكسة لمستوى الشعب حامل الهوية.
- التاريخ النضالي الذي ينسجه ذلك الشعب حامل الهوية من أجل المحافظة على هويته أرضا وقيما، وعادات وتقاليدا وأعرافا⁽⁵⁾.

إن مسألة ثبوت الهوية أو تغييرها قد طرح على محك المسألة والنقاش بين الباحثين، ومما يمكن تأكيده هو أن الهوية تتضمن مكونات ثابتة وأخرى قابلة للتغيير، إذ يعتبر الدين واللغة من الثوابت الراسخة بينما تكون المكونات الأخرى من عادات وتقاليد وطرق تفكير قابلة للتغيير في الشكل الإيجابي الذي تحدده حركية المجتمع وتفاعله بمحيطه الخارجي⁽⁶⁾.

بحسب تعبير نديم البيطار فإن الهوية نسبية وتاريخية لا ثابتة ولا جامدة، ليست جوهرًا متصلا بل هي خلاصة وتاريخ خاص من التجارب الثقافية والحضارية لأمة من الأمم، وهي بهذا المعنى أمر قابل للتعديل وللتكيف وللتفاعل مع الهويات

(1) محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، 2003، ص 92.

(2) حكيم بولعشب، "تحديات الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة"، الموقع <http://www.aranthropos.com>

(3) مجموعة باحثين، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مرجع سابق الذكر، ص 155.

(4) نفس المرجع، ص 156.

(5) محمد الحنفي، "الهوية والعولمة"، الموقع <http://www.mokarabat.com/s797.htm>

(6) إبراهيم القادري بوتشيش، "حول مفهوم الهوية ومكوناتها الأساسية"، الموقع <http://www.histoire.maktooblog.com>

الأخرى شريطة أن يتم ذلك باختيار واع ضمن معادلة متكافئة ولحاجة تفرضها الضرورة القومية وتقرها الإرادة الجماعية لكل أفراد الأمة في ظروف وشروط موضوعية⁽¹⁾.

وتتمثل أهم وظائف الهوية في المجتمعات فيما يلي:

- ضمان الاستمرارية التاريخية للأمة إذ لا يمكن التشكيك في انتماءاتها.

- تحقيق درجة عالية من التجانس والانسجام بين السكان في مختلف جهات الوطن الواحد.

- تمثل الهوية الجنسية والشخصية الوطنية التي تحافظ على صورة الأمة أمام الأمم الأخرى وذلك من خلال الحفاظ على الكيان المميز لها⁽²⁾.

إن المكون الثقافي لمفهوم الهوية يعد مركزيا في تحديدها، كون الهوية الثقافية يندرج تحتها النظام القيمي والأخلاقي والإبداعي الفكري لكل أمة، بما يسمح بالتحقق من مدى صدق الحديث عن الخصوصية وتمايز الهوية من جهة، ومدى قدرتها على التواصل مع غيرها من الهويات الثقافية الأخرى بشكل ايجابي⁽³⁾

ويحدد محمد الجابري مستويات ثلاثة للهوية الثقافية وهي: فردية، وجماعية، ووطنية قومية، والعلاقة بين هذه المستويات الثلاثة تتحدد أساسا بنوع الآخر الذي تواجهه، وهي تتحرك على ثلاثة دوائر متداخلة ذات مركز واحد كما يلي:

-الفرد داخل الجماعة الواحدة، قبيلة كانت أو طائفة أو جماعة مدنية(حزبا أو نقابة...)، هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة، عبارة عن "أنا" لها "آخر" داخل الجماعة نفسها، "الأنا" تضع نفسها في مركز الدائرة عندما تكون في مواجهة هذا النوع من "الأخر".

- الجماعة داخل الأمة، هي كالأفراد داخل الجماعة، لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة، ولكل منها "أنا" خاص بها و"آخر" من خلاله وعبره تتعرف على نفسها بوصفها مغايرة له.

والعلاقة بين المستويات الثلاثة تتحدد أساسا بنوع "الأخر"، بموقفه وطموحاته، فإن كان داخليا ويقع في دائرة الجماعة، فالهوية الفردية هي التي تفرض نفسها ك"أنا"، وان كان يقع في دائرة الأمة فالهوية الجماعية (القبيلة، الطائفة، الحزب) هي التي تحل محل "الأنا" الفردي، أما إن كان "الأخر" خارجيا، أي يقع خارج الأمة (والدولة والوطن) فإن الهوية الوطنية-أو القومية- هي التي تملأ مجال "الأنا"⁽⁴⁾. ويؤكد أن الهوية الثقافية لا تكتمل، ولا تبرز خصوصيتها الحضارية، ولا تغدوا قادرة على أن تنشده العملية، على الأخذ والعطاء، إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاث عناصر: الوطن والأمة والدولة.

الوطن: بوصفه الأرض أو الجغرافيا والتاريخ وقد أصبح كيانا روحيا واحدا يعمر قلب كل مواطن.

الأمة: بوصفها النسب الروحي الذي تنسجه الثقافة المشتركة وقوامها ذاكرة تاريخية وطموحات تعبر عنها الإرادة الجماعية التي يصنعها حب الوطن.

(1) مجموعة باحثين، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مرجع سابق الذكر، ص26.

(2) حكيمة بولعش، مرجع سابق الذكر.

(3) حسن حنفي وصادق جلال، ما العولمة، دار الفكر المعاصر، ط2، 2000، ص52

(4) محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، عشر أطروحات، من الموقع: <http://www.awraq-maktooblog.com>

الدولة: بوصفها التجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة والجهاز الساهر على سلامتها ووحدتها وحماية مصالحها وتمثيلها إزاء الدول الأخرى في زمن السلم كما في زمن الحرب.

فكل مس بالوطن أو بالأمة أو بالدولة هو مس بالهوية الثقافية. والعكس صحيح أيضا، كل مس بالهوية الثقافية هو مس في نفس الوقت بالوطن والأمة والدولة وتجسدها التاريخي⁽¹⁾.

يؤكد العديد من الباحثين على أن الدول العربية لها هوية قومية واحدة، وأنه بقدر ما يتجلى عنصر وحدة هذه الهوية يتجلى عنصر تنوعها، ما يجعلها في تفاعل دائم مع غيرها من الهويات المختلفة داخل الأقطار العربية⁽²⁾. فالهوية الوطنية (القومية)⁽³⁾ للمجتمع الجزائري عربية إسلامية، مع أن هذا لا ينفي تفاعل هذه الهوية مع تعدد الانتماءات المختلفة ضمن هذه الهوية الوطنية المشتركة داخل هذه البلد الرحب⁽⁴⁾، وهذا ما يؤكد الباحث عفيف البوني في مقاله تحت عنوان (في الهوية القومية العربية) حيث يرى أن الثقافة العربية الإسلامية هي أساس الهوية المغربية، غير أن ذلك لا ينفي أو يتعارض مع الوجود الفعلي لتنوعات جزئية وخصوصيات فرعية تميز، بقدر نسبي⁽⁵⁾، جماعة من أخرى أو قطر من آخر أو جيل من جيل، أو تميز بمقدار نسبي، أيضا بين الجماعات السكانية في القطر الواحد، فإن كان هنالك تمايز بين سكان المغرب العربي في العصر الحديث عن سكان وادي النيل أو الخليج العربي، إن هذا التمايز موجود، أنه تمايز في الأنساق المعيشية والاقتصادية والاجتماعية المتفاوتة في التطور والمتباينة في بعض المعطيات⁽⁶⁾.

ففي الوقت الذي يكون فيه المجتمع متعدد الانتماءات من فئات وجماعات عرقية أو دينية أو سياسية أو اجتماعية، يتوجب على السياسيين العمل على دمج هذه الانتماءات المتنوعة من أجل الوصول إلى هوية مشتركة تمثل مصالح الجماعة بانتماؤها الطبيعية المختلفة، "فالهوية المشتركة أو محاولة تحقيق الاندماج الاجتماعي ليس بالضرورة إزالة الانتماءات الفرعية بقدر ما تعني ضمان عدم تضارب بين الهوية المشتركة والهوية الفردية، بناء على ذلك تصبح السلطة هي القادرة على منح الهوية المشتركة وذلك من خلال مؤسساتها المختلفة، وتصبح بذلك الهوية الفردية جزءا من الهوية المشتركة"⁽⁷⁾.

(1) نفس المرجع.

(2) مجموعة باحثين، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مرجع سابق الذكر، ص 40.

(3) يعرف الباحث احمد نعمان الهوية القومية (الوطنية) بأنها "هوية أي امة من الأمم هي مجموعة من الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إليها والتي تجعلهم يعرفون أو يتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأمم الأخرى"، انظر: احمد بن نعمان، الهوية الوطنية الحقائق والمغالطات، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر، بدون طبعة، بدون سنة، ص 11.

(4) من خلال النظر إلى ميثاق جبهة تحرير الجزائر المعلن بالقاهرة في 17/01/1955، نجد نص على أن الجزائر عربية الجنسية مسلمة العقيدة، فهي بالإسلام والعروبة كانت وعلى الإسلام والعروبة تعيش، وهي في ذلك تحترم سائر الأديان والمعتقدات والأجناس. كما أن اتفاقيات ايفيان 1962، ومما جاء فيها هو الاتفاق على عروبة وإسلام الشعب الجزائري ولغته الرسمية هي اللغة العربية.

(5) فحسب ما يرى الكثير من الباحثين أن الثقافة المحلية الشعبية والفرعية الخاصة والمتغيرة لا يمكن أن تتناقض في جوهرها مع الأنماط العامة والثابتة التي تطبع الهوية الوطنية أو القومية للأمة بسماحتها، وتشكل كل أو جل أفراد الأمة ذات الهوية الواحدة التي هي منتج -صرف- للعموميات الثقافية الواحدة أو الثابتة، انظر: احمد بن نعمان، الهوية الوطنية الحقائق والمغالطات، مرجع سابق الذكر، ص 15.

(6) الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مرجع سابق الذكر، ص 48-49.

(7) نفس المرجع، ص 159

ثانياً: مخاطر العولمة على الهوية الوطنية للمجتمع الجزائري

لا جدال في أن المستقبل قد أصبح في العصر الحاضر الشغل الشاغل للناس، أفراداً وشعوباً وحكومات، يخططون له ويستشرفون أفاقه. وإن أي مشروع للمستقبل يبنيه الإنسان لنفسه لا بد من أن يؤخذ في عين الاعتبار، بصورة واعية أو غير واعية فعل "الأخر" أو رد فعله، "آخر" اليوم و"آخر" الغد، وبحسب رؤية الجابري فإنه لولا وجود "للآخر" لما كان هنالك تفكير في المستقبل، حيث يؤكد أن تفكيرنا في المستقبل يكون نتيجة لوجود شيئاً ينافسنا في حاضرنا يهددنا أو يستهيننا أو يتقدم علينا، وبعبارة أخرى "يتحدى هدوؤنا وسكينتنا وغفلتنا، نوع من التحدي"⁽¹⁾.

وما العولمة سوى ذلك التحدي -حاضراً ومستقبلاً- الذي أصبحت تجاهه الهوية والخصوصيات الثقافية المحلية للمجتمعات والشعوب عامة والعربية الإسلامية خاصة، فالعولمة هي "الأخر" الذي أصبح يهدد "الذات" الثقافية الحضارية العربية والإسلامية، ما يلزم معها الإدراك الواعي لفعل العولمة - الساعية إلى إقصاء الآخر بخصوصيته الثقافية- ومواجهتها، وإلا فإن المستقبل سيكون أسوأ من الحاضر إن لم نتدارك الوضع، بسرعة أقصى وتديبر أحسن. ومن هنا أصبح علينا وأكثر من أي وقت مضى أن نفكر بجديّة في حاضر ومستقبل هويتنا العربية الإسلامية، فنتائج المستقبل تحددها أفعال اليوم، فيقدر حسن تديبر الأمم لحاضرها يكون مستقبلها.

لقد أخذ موضوع العولمة في بداية العقد الأخير من القرن العشرين جدلاً واسعاً، بدأ في الدوائر والأدبيات الغربية الأكاديمية والسياسية، ثم انتقل إلى دوائرنا العربية والإسلامية، التي انتشر مصطلح العولمة ضمنها مشوباً بنوع من الغموض وعدم الاتفاق على تعريفها سواء من حيث التشخيص أو التفسير، وتبعاً لذلك تعددت التعاريف بتعدد المقترحات (الاقتصادي، سياسي، ثقافي) وباختلاف المنظورات (ليبرالية، ماركسية، قومية، واقعية، إسلامية)، غير أن الملامح العامة في عملية تشخيص العولمة أبرزت أمرين مترابطين، أولهما: الاختراق الخارجي الكثيف والعميق للداخل، حيث تهاوت الحدود بينهما، وثانيهما: امتداد هذا الاختراق وبدرجة غير مسبوقة للنطاقات الثقافية -الاجتماعية، ومن ثم برزت أهمية الأبعاد الثقافية- الحضارية في التفاعلات العالمية، وبدأ معها الوعي المتزايد بإشكالية "نحن/هم"⁽²⁾، في إطار البحث عن الهوية وموقعها في ضوء المستجدات العالمية التي أحدثتها العولمة. وبدأ معها الحديث عن مخاطر والتحديات التي يمكن أن تفرضها على الهوية والخصوصية الثقافية للمجتمعات المحلية، ففي حين راهن البعض على إيجابيات العولمة، رفض آخرون الطابع الإجباري القصري للعولمة (الإيديولوجي)، وحاولوا في ظل ذلك إيجاد الآليات المناسبة للمواجهة.

ومما لا شك فيه أن مخاطر العولمة على ثقافات الشعوب والمس بهويتها، أصبحت تشكل تحدياً جدياً يقلق المهتمين بأصالة الهويات والميراث الثقافي للشعوب والمجتمعات، وما تقدمه العولمة هو في حقيقته نموذج لثقافة غريبة خالصة تمثل ذاتها، أرادت عنوة فرض نفسها على غيرها من الثقافات، وذلك في مجافاة صارخة للقانون الإلهي القائم على تعددية الأمم والملل، كما جاء في قوله تعالى: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة" (سورة المائدة: 48).

إذن فالعولمة هي عملية إرادية تعكس اتجاه نموذج حضاري للهيمنة بسبل إكراهية قصرية -على النماذج الأخرى- ليست على الصعيد الاقتصادي والسياسية فقط ولكن على الصعيد الثقافي أيضاً، وعلى هذه النماذج الأخرى -والتي من بينها

(1) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية العربية والإسلام... والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، بيروت، 2012، ص90.

(2) نادية مصطفى محمود، تحديات العولمة والأبعاد الثقافية الحضارية والقيمية: رؤية إسلامية، بحث مقدم للنشر ضمن كتاب "مستقبل الإسلام"، دار الفكر، دمشق، 2004، ص2.

الإسلام – أن تتكيف وتنخرط، أو أن تقاوم وتقدم الاستجابات اللازمة لمواجهة التحديات والمخاطر⁽¹⁾. على أن تكون المواجهة ايجابية وذلك بأن تطرح نفسها كبديل يحتوى ثقافة العولمة ويبني عليه ويغذيه، في مسعى لإبراز عالمية الاسلام الذي يكرس للتعدد والاختلاف لا التحجر وانكار الآخر المغاير كما روجت – ولا زالت- له كتابات جل المستشرقين الغربيين.

ففي ظل العولمة سيتم طمس تاريخ الثقافات كلها إلى ثقافة المركز المهيمن وهنا تبرز مصطلحات جديدة مثل الثقافة العالمية والتي تحاول أن تحول بقية الشعوب وثقافتها إلى مجرد متحف ثقافي، وهنا يأتي السؤال ملحا حول واقع هويتنا ومكانتها في سياق الفكر الإنساني. ومنه الآليات التي تساعد على ترسيخ وحفظ هويتنا الوطنية.

ويرى حسن حنفي أن مخاطر العولمة على الهوية الثقافية هي مقدمة لمخاطر أعظم على الدولة الوطنية، والاستقلال الوطني والإرادة الدولية والثقافة الوطنية، فهي تعطي مزيدا من تبعية الأطراف (الدولة الوطنية) للمركز (أمريكا والغرب)، تجمع قوى المركز وتشتت قوى الأطراف⁽²⁾، فالعولمة في مثل هذا الوضع تعمل على إضعاف الدولة الوطنية بحيث تتوقف عن وظيفتها الاقتصادية والاجتماعية، فيضعف حضورها في المجتمع، مما يؤدي بالأفراد العودة إلى تجمعات ما قبل الدولة كالقبيلة والعشيرة والعائلة، أو أية تجمعات عصبوية أخرى، فتتقوى النعرات الطائفية والعرقية وغيرها مما يؤدي بالتالي إلى إضعاف وتمزيق الهوية الثقافية للمجتمع⁽³⁾.

وهنا يطرح تساؤل مهم: ما السبيل لمواجهة هذه المخاطر التي تفرضها العولمة على الهويات الثقافية؟ وما الحل في ضوء هذه المعضلة؟ هل الانكفاء على الذات ورفض الآخر (العولمة) كليا؟ أم الانفتاح على الآخر وإقصاء الميراث الثقافي للذات؟ يرى حسن حنفي أن الدفاع ضد مخاطر العولمة لا يكون بالانغلاق على الذات، ورفض الآخر، فهذا تصحيح خطأ بخطأ، بل يكون الدفاع بإعادة بناء التراث الثقافي الوطني، المكون الأساسي للثقافة الوطنية، وبكسر حدة الانهيار بالغرب ومقاومة قوة جذبه، وذلك برده إلى حدوده الطبيعية وعلى أسطورة الثقافة العالمية التي يمكن التخفيف من غلوها، ومن غزو العولمة عامة عن طريق تعزيز قدرة "الأنا" على الإبداع (أي تحفيز الإبداع الوطني) بالتعامل مع ماضي "الأنا" وحاضرها، بين التراث والمعاصرة، بين الثقافة الخاصة والثقافة المعاصرة، أي مختلف الإبداعات الثقافية المعاصرة لدى جميع الأمم ومنها بالطبع ثقافة الغرب⁽⁴⁾. ففي ظل الاستبداد، وهيمنة نظام واحد على العالم، فإن المجتمعات تعود إلى تراثها الثقافي لتجد فيه مخرجا لذلك، وهنا يكون التحدي الثقافي، فقد تؤدي تحديات العولمة إلى استنهاض الإدارة لاستعادة حرية الإنسان في أن يتماها مع حريته، ويحقق فيها ذاته عن طريق الإبداع والتميز والاختلاف⁽⁵⁾.

وعليه فإن من الطرق الصحيحة لمواجهة سلبيات العولمة والحد من آثارها على هوية المجتمعات المحلية، هو الرفع من مستوى الهوية إلى الدرجة التي تصبح معها قادرة على الصمود الايجابي المشبع بالثقة في النفس، وصمودها يتوقف على مستوى تعاطيها مع تراثها الثقافي إحياء وتطويرا.

(1) نفس المرجع، ص 7.

(2) حسن حنفي، الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، الفكر السياسي، العددان 4-5، ص 325-326.

(3) السنوسي صالح، العرب من الحداثة إلى العولمة، دار المستقبل العربي، بيروت، 2000، ص 196.

(4) حسن حنفي، الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، مرجع سبق ذكره، ص 325-326.

(5) حسن حنفي، الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، في " ندوة العولمة والهوية"، منشورات جامعة فيلادلفيا، عمان، الاردن، 1999، ص 36.

ومما تأكد الباحثة نادية مصطفى محمود أن فقه مواجهة العولمة لابد أن ينطلق ابتداء من الإنسان وكل ما يتعلق به من أجل علاج ما أصاب الهوية الحضارية الإسلامية⁽¹⁾، وتضيف قائلة "انه بقدر ما للعولمة الاقتصادية والسياسية والعسكرية من آثار مادية سلبية مباشرة على الأمة الإسلامية، بقدر ما لهذه الأبعاد من آثار ثقافية وقيمية لا تقل خطورة، ما يستلزم وجهين للعملة خلال عملة المواجهة، ولا يمكن لأحد هذين الوجهين -وفق الرؤية الإسلامية- أن يستبعد الآخر، انطلاقاً من ذلك التكامل بين المادي -الروحي، النفعي -القيمي... الخ في الوسطية الإسلامية⁽²⁾.

ومن جهته حسن حنفي يؤكد على أهمية إعادة بناء الموروث الثقافي -المكون الرئيسي للهوية- كخطوة أولى لمواجهة مخاطر العولمة، ويتم إعادة الموروث الثقافي القديم بتجديد لغته وتغيير مستويات تحليله⁽³⁾ وعليه فإن مواجهة تحديات العولمة تتأتى في ضوء إحياء التراث الثقافي للمجتمعات والأمم، فالتفاعل الإيجابي في الحاضر يستدعي الرجوع إلى الماضي بحثاً وتنقيحاً، وهذا ما يستدعي منا تحديد ملامح تراثنا الثقافي، وإبراز تنوعه وثره.

ثالثاً: ملامح الميراث الثقافي للمجتمع الجزائري.

تمتاز الجزائر وكغيرها من الدول العربية والإسلامية ودول العالم بموروث ثقافي ثري ومتنوع، وعليه فإن جمعه وتحديد ملامحه بدقة ليس بالأمر السهل، فالعملية تحتاج تكاثف الجهود في إطار مؤسسات تأخذ على عاتقها هذه المهمة، ونحن هنا إنما نحاول تحديد الملامح العامة لهذا الموروث الثقافي، فما يشمل البلد أكبر مما نورد سواء المادي منه أو الفكري أو الاجتماعي، مؤكداً أن الثراء والتنوع والقيمة الحسية والمعنوية هي ميزة موروثنا الثقافي الذي يمثل ثروت تبي حاضرننا ونتطلع من خلالها لمستقبلنا⁽⁴⁾.

1- التراث المادي:

من المعالم الثقافية المادية للجزائر المسجلة ضمن قائمة التراث العالمي للإنسانية من قبل لجنة التراث العالمي التابعة لمنظمة اليونسكو.

- قلعة بني حماد: تعد احد معالم الحضارة الإسلامية بالجزائر وامتدادا لدولة حماد بن بلكين، وتقع هذه القلعة بولاية المسيلة.
- طاسيلي ناجر: تتواجد بولاية اليزي وتمنراست، تتكون كهوف طاسيلي من صخور بركانية ورملية تعرف بـ "الغابات الحجرية"، وتحتوي جدران الكهوف على مجموعة من النقوش التي تعود لحضارة قديمة.

- وادي ميزاب: تتواجد بولاية غرداية، تأسس في القرن العاشر الميلادي على يد الاباضيين حول مبانيهم التي تم تصميمها بشكل هندسي معماري بسيط وعملي لتكون متكيفة مع البيئة من حولها.

(1) نادية مصطفى محمود، مرجع سابق الذكر، ص 11.

(2) نفس المرجع، ص 12.

(3) حسن حنفي وصادق جلال، مرجع سابق الذكر، ص 52.

(4) انظر إلى بعض الأبحاث الخاصة بالموروث الثقافي لمناطق الجزائر: - التراث الثقافي غير المادي في منطقة الطارف: الواقع والتحديات، ملتقى وطني. - التراث الثقافي الشاوي بين الثابت والمتغير، نجوش أحمد، بويعلوي وسيلة، مجلة العلوم الإنسانية، عدد خاص بالملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري. - دور التراث المادي واللامادي لمجتمع وادي سوف في تحديد ملامح الهوية الثقافية وتكاملها، التيجاني مياطة، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الوادي، العدد السادس، أبريل 2014.

- موسوعة الأدب الشعبي: شعر الأطلس الصحراوي، سلسلة أبحاث مخبر اللغة العربية وآدابها، جامعة الأغواط، جمع وتوثيق مجموعة من الباحثين، ط 1، 2013.

- جيميلة: تتواجد بولاية سطيف، جميلة او سويكول تحتوي على ساحات وهياكل وكنائس وأقواس ومنازل على الطراز الروماني.

- تيبازة: ولاية تيبازة، تشمل عددا من الآثار الفينيقية والرومانية والبيزنطية القديمة.

- تيمقاد: تتواجد بباتنة، وقصبة الجزائر العاصمة وهي تضم بقايا قلعة ومساجد وقصور عثمانية بالإضافة إلى أبنية حضرية قديمة.

2- التراث اللامادي :

سجلت الجزائر الى حدود معطيات أكتوبر سنة 2015 لمنظمة اليونسكو خمسة نقاط ثقافية لامادية ضمن لائحة اليونسكو للتراث العالمي الثقافي غير المادي، وهي :

-أهليل قورارة التقليدي والعادات المرتبطة به منطقة قورارة، ولاية أدرار (2008)، وهو عبارة عن نوع من الغناء الموروث بالصحراء الجزائرية. تتناول كلماته المغناة سير الصحابة والأولياء الصالحين وهو ما جعل أحد المختصين يعتبره من الغناء الصوفي المستلهم من الطريقتين "التيجانية" و"القادرية" المنتشرتين في الجزائر ومنطقة المغرب العربي .

-الزاوية الشيخية والمراسيم المتعلقة بها بلدية الأبيض سيدي الشيخ (2008)، تم تصنيف العادات الصوفية المتعلقة بالزاوية الشيخية ضمن قائمة "روائع التراث الشفهي اللامادي للإنسانية"، وقد عرفت هذه الزاوية إشعاعا روحيا في فترات من الزمن، وتسعى الى المحافظة على التراث وتعزيز القيم المجتمعية مثل حسن الضيافة والممارسات الجماعية كالتسابيح، وتلاوة القرآن الكريم، والأغاني والرقصات التقليدية والفلكلورية ولا سيما المبارزات ومسابقات الفروسية.

-الممارسات والمهارات والمعرفة المرتبطة بمجموعات إمزاد عند الطوارق، تحولت آلة إمزاد الى رمز إلى موسيقى إمزاد، حيث ارتبطت موسيقى إمزاد بآلة إمزاد ارتباطا جوهريا وثيقا، وقد اعتمدها اليونسكو إرثا ثقافيا إنسانيا عالميا، كموسيقى طوارقية بامتياز. حيث تشكل موسيقى الإمزاد وألحانها الموسيقية إحدى مميزات قبائل الطوارق، وتعزفها النساء على آلة موسيقية أحادية الوتر تُعرف بالإمزاد. وتجلس العازفة وتضع الآلة على ركبتيها وتعزف عليها باستخدام قوس. وتوفر آلة الإمزاد أنغاما مصاحبة للأشعار أو الأغاني الشعبية التي غالبا ما يؤديها الرجال في المناسبات الاحتفالية في مخيمات الطوارق.

- عادات وطقوس ومراسم السببية في واحات جانت بجنوب الجزائر(2008)، هو احتفال تقليدي سنوي يقام بمدينة جانت الجزائرية، وتعتبر تقليدا تراثيا، من أهم المناسبات المحلية العريقة التي تحتفل بها طوارق الصحراء بالجنوب الجزائري، الذي يصادف كل سنة اليوم العاشر من محرم في التقويم الهجري، حيث ترمز هذه المناسبة إلى السلم المدني والسلام والالتحام الاجتماعي.

-العادات والمهارات الحرفية المرتبطة بزي الزفاف التلمساني ولاية تلمسان (2012)، وهي عادات تقضي بأن ترتدي العروس بحضور أهلها وصديقاتها المدعوات فستاناً تقليدياً من الحرير الذهبي اللون. وتُزين يداها بأنواع مختلفة من نقوش الحناء كتعبير عن الفرح، ثم تأتي امرأة أكبر مسنة، غالبا ما تكون إحدى قريباتها لتساعد على ارتداء قفطان مخملي مطرز بشكل فني وجمالي وعلى وضع الحلي وتاج مخروطي. وهذه المهارات الحرفية في صناعة هذا النوع من الأزياء الجميلة المرتبطة بزي الزفاف التلمساني المميز والعادات المرتبطة به نقلت من جيل إلى آخر .

رابعاً: دور الميراث الثقافي في ترسيخ الهوية الوطنية للفرد الجزائري.

رغم التحديات والمخاطر التي تفرضها العولمة على الهوية الوطنية والخصوصيات الثقافية للمجتمعات العربية والإسلامية عامة و المجتمع الجزائري خاصة، إلا أنها ليست قدراً محتوماً، بل يمكن التأقلم معها والتخفيف من وطأتها، عن طريق اعتماد أسلوب يجمع ما بين الانفتاح على العالم والاستفادة مما يقدمه دون التنكر للأصل، وذلك بالرجوع إلى التراث الثقافي -أحياء وتطويراً- الذي تتأسس عليه الهوية الوطنية لهذه الأمم والمجتمعات. وإذا كان تراثنا الثقافي بالتنوع والثراء الكبيرين، فهل هو كفيل بالمساهمة في ترسيخ وتعزيز هويتنا الوطنية الثقافية التي أصبحت مهددة بالقيم المضادة التي تفرضها العولمة؟ وكيف له أن يفعل ذلك؟

1- الهوية والتراث: أي علاقة؟

إن الهوية بحث في الأصول ومحافظة على خصوصية الذات إلى جانب الإفادة من الآخر دون أن يستلها، وإقامة علاقة بالجذور الأولى دون أن يعني ذلك العيش في عزلة عن العالم. وليست الهوية سوى بحث في التراث، وأن طبيعة البحث فيه هو المحدد لطبيعة العودة وقوتها.

ولطالما كان تراث الأمم ركيزة أساسية من ركائز هويتها الثقافية، وعنوان اعتزازها بذاتيتها الحضارية في تاريخها وحاضرها، ولطالما كان التراث الثقافي للأمم منبعاً للإلهام ومصدراً حيويًا للإبداع المعاصر ينهل منه فنانونها وأدباؤها وشعراؤها، كما مفكروها وفلاسفتها لتأخذ الإبداعات الجديدة موقعها في خارطة التراث الثقافي، وتتحوّل هي ذاتها تراثاً يربط حاضر الأمة بماضيها، ويعزز حضورها في الساحة الثقافية العالمية.

لا شكّ أن التراث يمثّل الذاكرة الحيّة للفرد وللمجتمع، ويمثّل بالتالي هويّة يتعرّف بها الناس على شعبٍ من الشعوب؛ كما أن التراث بقيمه الثقافية والاجتماعية يكون مصدراً تربوياً، وعلمياً، وفتياً، وثقافياً، واجتماعياً.. ذلكم أن تراكم الخبرات يُكوّن الحضارة، وتراكم المعلومات يُكوّن الذاكرة، وإن فقدان التراث الثقافي يعني فقدان الذاكرة.. إن الذاكرة هي التي تساعد على اتخاذ القرار، فالفرد الفاقد ذاكرته لا يستطيع أن يستدلّ على باب بيته، فكيف والحال هكذا أن يصنع مستقبله، ويطوّر ذاته، ومثلما ينطبق هذا على الفرد ينطبق على الشعوب⁽¹⁾. كما أن علاقة أمة أي أمة، بتاريخها وتراثها علاقة عميقة ومؤثرة، لأنهما يشكلان سندا لها، مصدرا تستلهم منه القدرة على الصمود والاستمرار والتقدم لأنه من شأن هذين العنصرين أن يضفي حتى لا شعوريا على الأمة ملامح وخصائص تميزها من الأمم الأخرى⁽²⁾.

2- التراث وترسيخ الهوية الوطنية : أي دور؟

إن الماضي (التراث) قد يحيا في الحاضر، ولكنه قد يفنى فيه أيضا، على قدر وعي الناس به أو إعراضهم عنه، ولم تعد المشكلة في هذه الأيام بالنسبة لكثير من جوانب التراث، هي ماذا نختار وماذا نترك أو ماذا يستحق الحفاظ والإحياء، وإنما المسألة هي إنقاذ ما يمكن إنقاذه⁽³⁾. وذلك جراء ما تفرضه العولمة من تحديات ومخاطر على الهوية الثقافية للمجتمعات العربية والإسلامية في ظل الضعف الذي نخر عظام هذه الأمة، ومن هنا يرى الجابري انه يجب علينا أولاً وقبل كل شيء من العمل داخل الثقافة العربية نفسها، لأنه سواء تعلق الأمر بمجال الثقافي أو غيره، فمن المؤكد أنه لولا الضعف الداخلي لما استطاع

(1) جمال علبان، الحفاظ على التراث الثقافي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص 60.

(2) مجموعة باحثين، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مرجع سابق الذكر، ص 77.

(3) يوسف محمد عبد الله، مرجع سابق الذكر، ص 7.

الفعل الخارجي أن يمارس تأثيره بالصورة التي تجعل منه خطراً على الكيان والهوية⁽¹⁾. وبطبيعة الحال لا يعالج الضعف الداخلي إلا من خلال إنتاج ثقافي، مادي وفكري يسائر العصر، ويحافظ على ثوابت الهوية الثقافية، وذلك لأن الثقافة التي تبقى تأخذ ولا تعطي ستظل الأضعف، والثقافة المتلقية هي التي يسهل السيطرة عليها⁽²⁾.

إن المنظومة التراثية للمجتمع الجزائري ما هي في حقيقة الأمر إلا خصوصيات هذا الشعب في أنماط وطريقة عيشه وسعيه لحل المشاكل التي واجهته، واليات تعامله مع البيئة المتعايشة معها، إنسانا، وزمنا، ومكانا، في جدلية تواصل عضوية لا تنفصم حتى إنها فاضت بها قريحتها شعرا واساطيرا وحكايات وملاحم وبطولات ظل تداولها متواصلا من جيل إلى آخر في مسيرتها الإنسانية عبر الزمن، وعليه فان تقويضها واندثارها بالتجاوز عليها، ينعكس مباشرة بالسلب في الهوية لهذا المجتمع أو الأمة، بفقدانه لهويته وضياعه للكيان وتفريط في مقومات الوجود، وفي ذلك يكمن دور التراث وأهميته في ترسيخ الهوية الوطنية للمجتمع الجزائري. فالحفاظ على التراث هو حفاظٌ على هوية الأمة وذاكرتها.. ويعني أيضا الحفاظ على المنتجات التي نستطيع من خلالها أن نقيس مستوى الحضارة لهذه الأمة أو تلك⁽³⁾.

ويرى الباحث يوسف عبد الله أن جهود الحفاظ على التراث لا ينظر إليها باعتبارها هذا العمل ترفا أو موضحة أو مجرد هوية محبوبة لدى فئة من ذوي المال، بل الحفاظ عليه هو حفاظ على الذات، ونحن نصنع ذلك لأننا أصبحنا نعي أن حياتنا ليست سوى تطور منطقي للماضي، وينبغي ان تجسد التعبير القوى لمعنى الوطن والمكان الذي نحيا فيه وللذاكرة الجماعية للأمة، من خلال منجزات متواصلة وشواهد باقية تعكس حوارا حيا بين إبداعات الحاضر ونفائس الماضي، وبهذا المعنى يمكن لنا أن نستبين علاقات الانتماء العاطفية ودلالة التوطن الروحي⁽⁴⁾.

وإذا كان التمسك بالميراث ضمانا حقيقة لاستمرار وجود الأمة بهويتها وخصوصيتها، فإن الأمة العربية عامة والجزائرية خاصة أحوج من غيرها لممارسة هذا الفعل، خاصة في ظل ما تواجهه الذات العربية والهوية القومية للأمة من تحديات بغية تزويد الذات وتشتيتها جراء التحديات التي تفرضها العولمة كما بيناه سلفا، فتمسكها بالميراث القومي مطلب ملحٌ للدفاع والحفاظ على هذه الذات، إلا أن تراثنا الثقافي لا يزال يعاني من الإهمال، وعدم الالتفات الواعي بالدراسة والتفحص. ومنه يجب التنويه أن النظرة العلمية إلى التراث الجزائري يجب أن تأسس على قناعة واضحة وهي أن ملكية الأمة الجزائرية لهذا التراث الحضاري هي في مرتبة ملكيتها للثروات الباطنية في أراضيها، وانه على الجيل الحاضر حماية هذا الإرث الثقافي وتبليغه باعتباره أمانة ورسالة من الماضي إلى جميع الأجيال المتعاقبة، وحصانة للهوية الوطنية ضد مخاطر العولمة.

والأمر المؤسف حقا، والذي لا بدّ من ذكره، أنه رغم الجهود المبذولة من قبل الجزائر في جمع تراثنا والحفاظ عليه، إلا أننا لازلنا نتخلف وراء كثير من الشعوب في هذا المجال، لأنّ الجهود بغالبيتها جهود فردية، في الوقت الذي أصبح لا بدّ من خلق المؤسسات، الرسمية والشعبية، لتتولى هذا الأمر، وبشكل موضوعي جادّ، من أجل توظيف التراث بشكل صحيح وفعال في خدمة الأمة وقضاياها، فالميراث الثقافي يشكل وجدان أي أمة، ويقوي ذاكرة الناس، ويجسد كل ما يتعلق بالهوية الوطنية، خاصة اذا كان الميراث كينونة حية في نفوس وعقول الناس، ويمدها بالقدرات والطاقات الخلاقة والمبدعة التي تسهم في البناء والتنمية.

(1) محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص 14.

(2) خريسان باسم، العولمة والتحديات الثقافية، دار الفكر العربي، بيروت، 2001، ص 126.

(3) جمال عليان، مرجع سابق الذكر.

(4) يوسف محمد عبد الله، مرجع سابق الذكر، ص 10.

خلاصة:

نخلص في نهاية دراستنا إلى انه وفي زمن العولمة وما تفرضه من تحديات ومخاطر، فإن الهوية الثقافية الوطنية للمجتمع الجزائري قد تتعرض للذوبان والاندماج- والذي اتضح الكثير من معالمة-، أو قد تصمد وتحافظ على هويتها كغيرها من المجتمعات المشاركة في العولمة دون أن تفقد هويتها وخصوصيتها الثقافية. وبمعنى آخر، فإن بقاء الهوية الثقافية الوطنية وصمودها أمام تحديات العولمة، ممكن، ولكن وفق شروط، والتي منها الوعي بقيمة الميراث الثقافي والعمل على إحياء وتطويره، فترائنا في حقيقة الأمر ليس أكثر من قوة كامنة نستطيع أن نبعث فيها الحياة والحركة والتجديد والتطور لمواجهة التحديات وخدمتنا لقضايا امتنا العربية والإسلامية .

قائمة المراجع:

1. أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية الحقائق والمغالطات، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر، بدون طبعة، بدون سنة.
2. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997.
3. ابن منظور، لسان العرب، دار المعاف، بدون طبعة، القاهرة، دون تاريخ.
4. أحمد زياد محبك، من التراث الشعبي...دراسة تحليلية للحكاية الشعبية، دار المعرفة، بيروت، 2005.
5. اشرف محمد سيد، التراث الحضاري في الوطن العربي أسباب الدمار والتلف وطرق الحفاظ، مؤسسة النور للثقافة والإعلام، البحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية، 2009.
6. التيجاني مياطة، "دور التراث المادي واللامادي لمجتمع وادي سوف في تحديد ملامح الهوية الثقافية وتكاملها"، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الوادي، العدد السادس، افريل 2014.
7. الجابري، مسألة الهوية العروبة والإسلام...والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، بيروت، 2012.
8. السنوسي صالح، العرب من الحداثة إلى العولمة، دار المستقبل العربي، بيروت، 2000.
9. جمال عليان، الحفاظ على التراث الثقافي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، بدون طبعة، بدون تاريخ.
10. حسن حنفي وصادق جلال، ما العولمة، دار الفكر المعاصر، ط2، 2000.
11. حسن حنفي، الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، الفكر السياسي، العددان 4-5.
12. حسن حنفي، الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، في " ندوة العولمة والهوية"، منشورات جامعة فيلادلفيا، عمان، 1999.
13. حكيم بولعشب، "تحديات الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة"، الموقع <http://www.aranthropos.com>
14. خريسان باسم، العولمة والتحدي الثقافي، دار الفكر العربي، بيروت، 2001.
15. عباس الجراري، مكونات الهوية الثقافية المغربية: في الهوية الثقافية للمغرب، كتاب العلم، السلسلة الجديدة، 1988.
16. مجموعة من الباحثين، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، تحرير وتقديم: رياض زكي قاسم، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان، 2013.
17. محمد الحنفي، "الهوية والعولمة"، الموقع <http://www.mokarabat.com/s797.htm>
18. محمد عابد الجابري، "التراث ومشكلة المنهج"، مجلة المستقبل العربي، العدد 83، بيروت، 1986.
19. محمد عابد الجابري، "حول المنهج"، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 02، الكويت، 1989.
20. محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، عشر أطروحات، من الموقع: <http://www.awraq-maktoobblog.com>

21. موسوعة الأدب الشعبي: شعر الأطلس الصحراوي، سلسلة أبحاث مخبر اللغة العربية وآدابها، جامعة الاغواط، جمع وتوثيق مجموعة من الباحثين، ط1، 2013.
22. نادية مصطفى محمود، تحديات العولمة والأبعاد الثقافية الحضارية والقيمية: رؤية إسلامية، بحث مقدم للنشر ضمن كتاب "مستقبل الإسلام"، دار الفكر، دمشق، 2004.
23. يوسف محمد عبد الله، الحفاظ على الموروث الثقافي والحضاري وسبل تنميته، في موقع <https://www.yemen-nic.info/files/turism/studies/hefath.pdf>
24. ابراهيم القادري بوتشيش، حول مفهوم الهوية ومكوناتها الأساسية، الموقع <http://www.histoire.maktoobblog.com>
25. محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، 2003.



جميع الحقوق محفوظة

لمركز جيل البحث العلمي © 2019

ISSN 2311-5181